

محمد رضا سرشار

ها هو اليتيم بعين اللّه

النبي (ص) من الولادة إلى البعثة

ترجمة: بتول مشكين فام



ها هو اليتيم بعين اللّه

(النبي (ص) من الولادة إلى البعثة)

ها هو اليتيم بعين اللّه

(النبي (ص) من الولادة إلى البعثة)

محمد رضا سرشار (رهگذر)[*]

تعريب وتعليق

الدكتورة بتول مشكين فام[*٢]

تقديم

الدكتور علي مهدي زيتون

(*) رهگذر: عابر سبيل. [المعرّبة]

(*٢) أستاذة في جامعة الزهراء/ طهران.

الطبعة الثانية

طبعة دار المعارف الحكمية الأولى

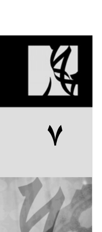
ISBN 978-614-440-044-9

[٢٠١٥م - ١٤٣٦هـ]



العنوان: لبنان - بيروت - سان تيريز - سنتر يحفوفي - بلوك c - ط ٣
تلفاكس: ٠٠٩٦١٥٤٦٢١٩١ - email: almaaref@shurouk.org





الإهداء

إلى نادرةِ العصرِ، وواسطة العِقد،

سماحة الإمام الخميني

وإلى مَن كان لتحفيزه أكبرُ الأثر

في مواصلة هذا السِفر،

ذلك العظيمُ، الحبيبُ.. قائدُ الثورةِ،

آيةُ اللّه الخامنئي(١)

(١) في لقاء خاص لتكريم مَن أنتجَ سلسلةَ «**من ربوع النور**» الإذاعية في ضوء كتابنا هذا، أشاد سماحة القائد بالعمل، وخاطب المؤلف مثنيًا: «**لهذا الكتاب قيمة عظيمة، تستحق العمل، وبذل المساعي، وإن طال العقدان من الزمن، ولم تأت بغيره**». [الروائي]

تقديم

لا تحمل كتابة السيرة النبويّة الشريفة الهمّ الرساليّ وحده. يترافق هذا الهمّ مع همّ آخر هو الهمّ الأدبيّ . ذلك أنّ السيرة الشريفة ليست سيرة أيّ إنسان عـاديّ، تتطلّب من الأهبة والاستعداد والإمكانات العلميّة والأدبيّة ما لا تتطلّبه سيرة أخرى.

شخصيّة الرسول الأكرم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ شخصيّة متفوّقة بلغت حدّ الإعجاز، فلا تماثلها شخصيّة أخرى. وقد استطاعت أن تنهض بأعباء رسالة كانت نهاية الرسالات السماويّة وأكثرها تطلّبًا للجهد، والاستعدادات الشخصيّة النفسيّة، والقدرة على التضحية. والسؤال الذي يُطرح هنا: كيف تُقدّم شخصيّة رسول اختاره الرحمن ليتحمّل عبء آخر ما أراد اللّه أن يبلّغ البشريّة به على امتداد مستقبلها على الأرض؟

وشخصيّة الرسول الأعظم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ شخصيّة مرتبطة بالإسلام غير منفكّة عنه، تمثّله بما يُوحى إليها، وتمثّله ببشريّتها. وهذا ما يثير سؤالًا صعبًا في وجه كاتب السيرة المقدّسة يتعلّق بالمواءمة بين بشريّة محمّد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ واتصاله بالوحي؟

وشخصيّة الرسول الحبيب صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ إلى ذلك شخصيّة

تاريخيّة متحيّزة في تاريخ محدّد تفرض على كاتب السيرة أن يتوسّل العلميّة الموضوعيّة، وتطرح عليه سؤالًا ينافس الأسئلة السابقة وقد يقف في مواجهتها عند من لا يعتنقون الإسلام دينًا. أضف إلى ذلك أنّ التاريخ لا يهتمّ بالتفاصيل اليوميّة الخاصّة بحياة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ، فكيف سيحصل على تلك التفاصيل التي لا تقوم سيرة من دونها؟

ويبقى أنّ التعامل مع سيرة شخصيّةٍ كهذه الشخصيّة لا يمكن أن يتمّ على يد كاتب من الصفّ الثاني أو الثالث. فلتكون الكتابة متوائمةً مع هذه الشخصيّة يجب أن يكون الكاتب من الصفّ الأوّل، فتكون الرساليّة عنده عين الأدبيّة، والأدبيّة عين الرساليّة. ويطلّ على هامش هذا الهمّ سؤال مبدئيّ: كيف تتلبّس الكتابةُ الأدبيّة الكتابةَ التاريخيّة؟ وكيف يمكن أن تُزال الحدود ما بين السيرة والرواية؟

القصّة القرآنيّة هي الأنموذج. ذلك أنّك إذا أردت أن تصفها بأنّها تاريخ فهي تاريخ، وما قدّمته هو حقيقة قد وقعت فعلًا. وإذا أردت أن تصفها بأنّها أدب فهي أدب، وهي ليست أدبًا عاديًّا، هي أدب معجِز. ولا يعني ذلك أنّ المطلوب من السيرة أن تقف بموازاة القصّة القرآنيّة، المطلوب أن تتخذ منها أنموذجًا يُحتذى.

ورواية «ها هو اليتيم بعين اللّه» رواية سيريّة تاريخيّة لا تأبه بما حدّدته السرديّة (المنهج السرديّ) من تقنيّات. وهذا جيّد؛ لأنّ تلك التقنيّات، مع أهميّتها، لا تفي الأدبيّة حقّها، تظلّ تقنيّاتٍ يجيدها من يتمرّس بها. الأدبيّة الحقّة هي تلك المسافة اللغويّة التي تتشكّل على هيئة علامات سيمائيّة دالة تربط رؤية الكاتب بالعمق الذي نفذت إليه تلك الرؤية في جانبٍ من جوانب العالم المرجعيّ،

موضوع الكتابة. وتكون الكتابة أرقى كلّما كان الأديب مثقّفا أكثر. وبقدر رقيّ الرؤية تكون الخصوصيّة أكثر توافرًا. وهذه الخصوصيّة هي الفرادة، رأسمال الكاتب الذي لا يكون كاتبًا من دونها، وهي الأدبيّة عينها.

وتحويل سيرة الرسول الأعظم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ إلى خطاب أدبيّ، إلى رواية، كرواية «ها هو اليتيم بعين اللّه»، لا بدّ من أن ينطلق ممّا يسّره التاريخ والسّير التي كُتِبت على هامش تلك الحياة المقدّسة. وتأتي سيرة ابن إسحق التي لُخِّصت وهُذّبت من خلال سيرة ابن هشام على رأس المرجعيّة المتعلّقة بالسيرة المقدّسة. ولعلّ أوّل ما يواجه هذه المرجعيّة من نقدٍ، مع أهميّة الجهود المبذولة فيها، هو أنّها مالأت الحاكم الذي كُتِبت في ظلّ دولته. فقد ساقت أمورًا عديدةً تساير ما يشتهيه ذلك الحاكم. ولا تطرح مثل هذه المشكليّة مهمّة إعادة كتابة السيرة الشريفة على أسس علميّة محضة، في ضوء الحقيقة التاريخيّة فحسب، ولكنها تطرح مهمّة الوصول إلى أدبيّة جديدة لتلك السيرة أيضًا. ويقتضي هذا الأمر مرحلتين من العمل. تكون المرحلة الأولى من حيّز مؤرّخ من مؤرّخي الصفّ الأوّل الذي يتوجّب عليه تحقيق السيرة من جديد تحقيقًا علميًّا يضع النقاط على الحروف. وتكون المرحلة الثانية من حيّز أديب من أدباء الصفّ الأوّل يعطي هذه السيرة المباركة حقّها الجمالي فيكون منطلقًا ومثارًا لتجارب متجدّدة في هذا المجال.

وإذا ما وُجدت جهود فرديّة عديدة قد بُذلت من أدباء مرموقين في هذا الخصوص، فإنّ مثل هذه الجهود الفرديّة لا تفي بالغرض المطلوب. لا بدّ من مؤسّسة مختصّة، أو دائرة مختصّة من ضمن مؤسّسة تهتمّ بالقرآن والحديث، تراقب عامًا بعد عام



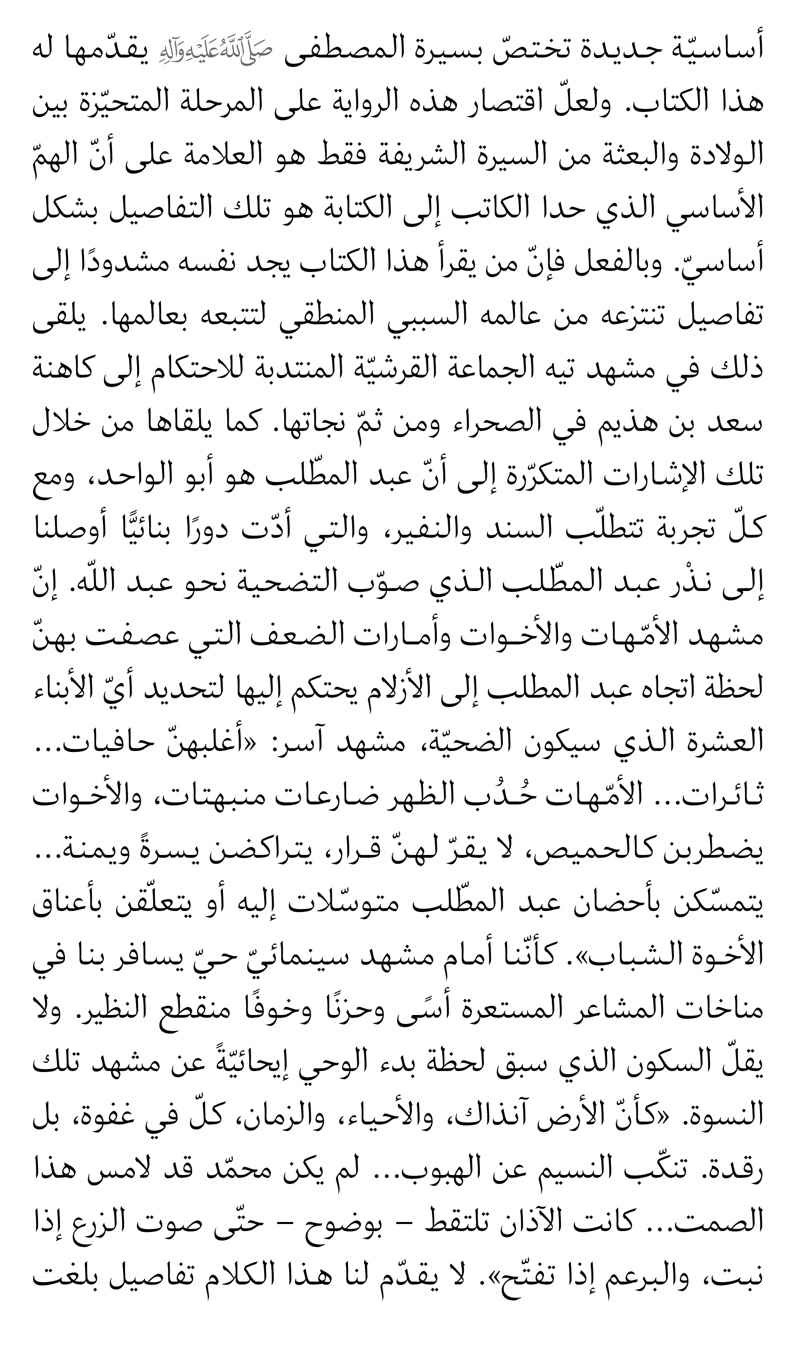
ما وصلت إليه السيرة من حقائق موضوعيّة، وما كُشِف عنه من أبعاد جديدة تتعلّق بالحياة الشريفة للرسول الأكرم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، خصوصًا أن هذه الحياة كانت وما زالت موضع افتئات من بعض من يرفعون شعار الإسلام زمنًا بعد آخر، تُوظّف لغايات مشبوهة. إنّها مسؤوليّة صعبة وخطيرة تمثّل دعوةً مفتوحةً إلى كلّ كبير من أدباء الأمّة أن يعيد كتابة السيرة من جديد. وتعدّد الكتابة لا يعني تكرارًا لما كُتِب. هو، مع كلّ كتابة جديدة بعين جديدة نكون أمام مرحلة جديدة تصل إلى أبعاد جديدة من أعماق تلك السيرة بناءً على نظريّة الكشف الأدبيّة.

ويبقى لنا أن نقول، مع كلّ ذلك: إذا كان المؤرّخ لا ينقل إلينا إلّا العامّ من حياة شخصيّة معيّنة، حتّى لو كانت تلك الشخصيّة شخصيّة النبيّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فإنّ السيرة، هي الأخرى، لا تهمل ذلك العامّ، وإن كان دورها المحوريّ هو الاهتمام بالتفاصيل. ويأتي الحديث الشريف ليمثّل مصدرًا أساسيًّا من مصادر تلك التفاصيل الخاصّة بسيرة الرسول الأعظم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ. وهو مع ما ارتبط به من مشكليّات معروفة حاول علم الحديث تخليصنا منها، لا يعني أنّه مرجع شافٍ كافٍ لمعرفة كلّ تفاصيل السيرة. ثمّة تفاصيل عديدة يمكن أن تكون قد أفلتت من الحديث وغابت عنه. وإذا لم يوجد طريق يقينيّ يصل بنا إلى ما غاب عن كتاب التاريخ أو كتاب السيرة، فهل يُسمح لكاتب السيرة الأديب، لا المؤرّخ، أن يلجأ إلى ما لجأت إليه الرواية التاريخيّة الأدبيّة من تقنيّاتٍ يأتي على رأسها ملء الفجوات التي أهملها التاريخ، ولم يصدف أن واجهها ما وصل إلينا من حديث شريف، بتفاصيلَ من صنع الأديب، تفاصيلَ منسجمةٍ مع ما حقّقه التاريخ، وغير متنافرة معه؟

إنّ الرواية السيريّة الموسومة بعنوان «ها هو اليتيم بعين اللّه» والتي كتبها، بالفارسيّة، محمّد رضا سرشار، وقامت بترجمتها إلى العربيّة بتول مشكين فام أستاذة الأدب العربيّ في جامعة الزهراء عَلَيْهَا ٱلسَّلَامُ الزاهرة، تحمل الكثير من الإجابات عن الأسئلة التي سبق أن طُرِحت، وإن أضافت إليها سؤالًا جديدًا مرتبطًا بالترجمة. ولئن حلا لبعضهم وصف الترجمة بأنّها «خيانة» للنصّ، فإنّ لفظة «خيانة» المرتكزة إلى بعد أخلاقيّ لا توائم الترجمة. وإذا كان النصّ الأصليّ في رواية «ها هو اليتيم بعين اللّه» قد كُتِب بالفارسيّة، يعني أنّه قراءة محمّد رضا سرشار، بالفارسيّة، ومن خلال رؤيته الثقافيّة إلى جانب من جوانب العالم المرجعيّ، مرحلة من حياةِ الرسول المصطفى صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، فإنّ ترجمة هذا النصّ إلى العربيّة هو قراءة المترجِمة بتول مشكين فام بالعربيّة، ومن خلال رؤيتها الثقافيّة إلى النصّ الأصلي. وأن يأتي قارئ «متلقّ» لا يعرف الفارسيّة، فإنّ قراءته الترجمة العربيّة لذلك النصّ هي قراءة ثالثة لحياة الرسول بوساطة قراءتين سبقتاها. وإذا نحن أمام نشاط نقديّ مضمر متعدّد الطبقات. وهذا التعدّد عامل غنًى لا يمكن وصمه بالخيانة مطلقًا.

وإذا أردنا قراءة هذه الرواية السيريّة من خلال النصّ المترجم قراءةً نقديّةً، فإنّنا سنجد أنفسنا ندخل بحرًا يحتاج إلى جهود لا يتّسع لها مثل هذا التقديم. فالعنوان وحده «ها هو اليتيم بعين اللّه» مترع بالدلالات، محمّل بالأبعاد التي تقيمها كلّ من الباء من ناحية، وهاء التنبيه من ناحية أخرى، بين ذلك اليتيم، محمّد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وعين اللّه.

ومهما يكن من أمر، فإنّ أهميّة هذه الرواية تكمن في ما قدّمته من تفاصيل كانت هي الأدبيّة عينها، إذ لا يفاجأ القارئ بمعلومات



أساسيّة جديدة تختصّ بسيرة المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ يقدّمها له هذا الكتاب. ولعلّ اقتصار هذه الرواية على المرحلة المتحيّزة بين الولادة والبعثة من السيرة الشريفة فقط هو العلامة على أنّ الهمّ الأساسي الذي حدا الكاتب إلى الكتابة هو تلك التفاصيل بشكل أساسيّ. وبالفعل فإنّ من يقرأ هذا الكتاب يجد نفسه مشدودًا إلى تفاصيل تنتزعه من عالمه السببي المنطقي لتتبعه بعالمها. يلقى ذلك في مشهد تيه الجماعة القرشيّة المنتدبة للاحتكام إلى كاهنة سعد بن هذيم في الصحراء ومن ثمّ نجاتها. كما يلقاها من خلال تلك الإشارات المتكرّرة إلى أنّ عبد المطّلب هو أبو الواحد، ومع كلّ تجربة تتطلّب السند والنفير، والتي أدّت دورًا بنائيًّا أوصلنا إلى نذْر عبد المطّلب الذي صوّب التضحية نحو عبد اللّه. إنّ مشهد الأمّهات والأخوات وأمارات الضعف التي عصفت بهنّ لحظة اتجاه عبد المطلب إلى الأزلام يحتكم إليها لتحديد أيّ الأبناء العشرة الذي سيكون الضحيّة، مشهد آسر: «أغلبهنّ حافيات... ثائرات... الأمّهات حُدُب الظهر ضارعات منبهتات، والأخوات يضطربن كالحميص، لا يقرّ لهنّ قرار، يتراكضن يسرةً ويمنة... يتمسّكن بأحضان عبد المطّلب متوسّلات إليه أو يتعلّقن بأعناق الأخوة الشباب». كأنّنا أمام مشهد سينمائيّ حيّ يسافر بنا في مناخات المشاعر المستعرة أسًى وحزنًا وخوفًا منقطع النظير. ولا يقلّ السكون الذي سبق لحظة بدء الوحي إيحائيّةً عن مشهد تلك النسوة. «كأنّ الأرض آنذاك، والأحياء، والزمان، كلّ في غفوة، بل رقدة. تنكّب النسيم عن الهبوب... لم يكن محمّد قد لامس هذا الصمت... كانت الآذان تلتقط – بوضوح – حتّى صوت الزرع إذا نبت، والبرعم إذا تفتّح». لا يقدّم لنا هذا الكلام تفاصيل بلغت

من الدقة أقصاها فقط، ولكنّه يقدّم لنا من الأدبيّة أرقاها. هل يوجد وراء هذا السكون سكون يمكّن الآذان من أن تلتقط بوضوح «صوت الزرع إذا نبت والبرعم إذا تفتّح»؟ إنّها الإيحائيّة الأدبيّة بأبهى تجلّياتها، وما كان لهذا السكون أن يكون كما كان لو لم يكن فاتحة منعطف استراتيجيّ في تاريخ البشريّة. نعني به انطلاقة الوحي الإلهيّ. وتتعدّى الأدبيّة المشهد والتركيب إلى المعجم الذي قدّم لنا بمفرداته المناخ الحقيقيّ الذي رافق حياة الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ منذ الولادة إلى البعثة. تابع قوله: «فصلت العير عن مكّة قبل خمسة عشر يومًا»، وراقب كلامه هذا أيضًا: «في صبيحة اليوم الخامس من الحيرة، حرنت أكبر الإبل سنًّا، وجنّت الأُخر جنونها من شدّة الظمأ والسغب، فجمحت نافرة»، تجد كلمات لم تعد مستعملةً أيّامنا هذه: «فصلت»، «العير»، «السغب»، «نافرة»، ولكن من منّا لا يعرف دلالات هذه الكلمات؟ إنّه معجم مرحلة البدايات استطاع أن يستحضر إلينا مناخاتها، وجعلنا نعيش أبعادها. وهذا منتهى أدبيّة أيّ معجم من معاجم النصوص.

ويبقى أنّ رواية «ها هو اليتيم بعين اللّه» هي تجربة حديثة في كتابة السيرة المحمّديّة تؤشّر إلى الأدبيّة الروائيّة التي يجب أن ينتهجها الروائيّ العربيّ؛ لأنّها متصلة بتاريخنا الأدبي، وبإمكاناته، وبمعالم الخصوبة التي يبطنها. وهذا ما يمكّنه من أن يقف أمام مشهد التاريخ الأدبي الغربي، والروائيّ منه على وجه الخصوص، متحرّرًا من كلّ مركّبات النقص التي يعيشها أديبنا وأدبنا في هذه المرحلة.

علي مهدي زيتون

- احفر زمزم!

- وما زمزم؟

- ماء لا تُنْزَح ولا تُذمُّ، احفرها[١]، واسقِ بها الحجيجَ الأعظمَ!

- أين... أين؟ أخبرني عن مكانها!

- في الحرمِ، بين الفَرثِ والدم.

- هل من مزيد...، أخبرني عنها أكثر!

- عند قريةِ النملِ، عند نقرة الغرابِ الأعصمِ.

- أنا...؟!

قد اختفى ذاك الشبح المدّثر بحرير الضباب الناصع، بعد أن حلَّ، ورحل خفيفًا كالسحاب، رقراقًا كالماء، مرفرفا كالنسيم، كان واقفًا وقفته تلك في وجوم، يتحدث في صلابة وأنس. ما إِن همّ

---

(١) انظر في مبحث الغراب وقرية النمل: **تاريخ اليعقوبي**، ١٥/ ٧٦٩؛ **أنساب الأشراف** للبلاذري، ١/ ٨٣؛ و**دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، ١/ ٨٦. [المعرّبة]



بمزيد من السؤال، حتى تسلّل في السماء وأجوائها العطرة.

«في ليل صيفي، بينما كنا نيامًا على السرير، استيقظتُ على صوت عبد المطلب، يناجي ربه، وهو نائم. رأيت وجهه تحت القمر، وقد شمله العرق. بدأ يرتعد، ظننته مريضًا، قد اعترته حمّى. على مهل، أيقظتُه، رويدًا رويدًا».

«أفقتُ من النوم على ربتات زوجتي سمراء، ولمساتها الحنون، والعرق يتصبّب مني، كأنما على عودي أفرغت سجال[1]. كنت أشعر برهق ممتع....

حمدت رب الكعبة على انزياح الهمّ وانفراج الغمّ بعد تلك الأيام العصيبة. أجل، لقد برح الخفاء، وانكشف الغطاء عن غموض ما رأيت من الأحلام فيما مرّ من الأيام، وعلمت حق اليقين أنّ رؤياي تلك كانت إلهيةً صادقة، لا أضغاث أحلام.

لقد كان اللّه وحده هو العالم بما كنت أتحسّسه من الحبور والأفراح؛ فقد منَّ عليّ إذ اصطفاني لإسداء تلك الخدمة.

كانت سمراء ترنو إليّ في وجوم وقلق عميق، في حيرة من أمرها، لا تدري ما الذي تفعله؛ فهي لا تعرف ما يدور في خَلَدي!

راحت تمسح العرق عن جيدي وعن جبيني، بمنديلها الحريري اليماني، الفوّاح، ثم هُرِعَت لتنزل من السرير. تناولت القدح الفخاري المنكوس على الكوز فملأته بالماء البارد القراح،

---

(١) السجال: أعظم ما يكون من الدلاء. [المعرّبة]

وقدّمته إليّ قائلةً: اشرب أولًا، حتى انظر في أمرك.

بلغ بي الظمأ أقصاه. تناولتُ القدح من سمراء، وعببتهُ في ولعٍ عبًّا، ثم أعدته إليها قائلًا: هوّني عليك؛ فأنا على خير!

وقفت سمراء عند حافة السرير، بيدها القدح، وقد ران عليها البَهت والحيرة».

القمر في ليلته الرابعةَ عشرةَ، يسطع بأضوائه اللامعة على ناصية عبد المطلب، فتضفي على طلعته البهية هيبة سماوية.

راح نسيم الصَبا العليل بعد فترة من الهبوب يتسلّل إلى شَعر عبد المطلب الكثّ وينحدر إلى أمواج تجاعيده، فَيُذكّر سمراء بصورة النبي إبراهيم، المعلّقة على باطن الكعبة.

في صمت رهيب، مدّ عبد المطلب بصره إلى البعيد، حيث قمةُ قعيقعان[١] بغيطانها وسواد صعيدها تتلألأ تحت أنوار القمر لتبهر العيون، وتثير الخيال.

جهر عبد المطلب بعريض صوته، صوت كأنه يتعالى من عوالم أخرى:

هذه رابع مرة أراه فيها. قبل أربعة أيام، وللمرة الأولى، ظهر الطائف أمامي، وسط النهار، بينما كنت نائمًا عند الكعبة، في حجر إسماعيل. التفت إليّ قائلًا: إحفر طيبة!

---

(١) موضع بمكة يشرف عليه الجبل الأحمر الذي يكون مع جبل أبي قبيس؛ **معجم البلدان**، مادة «قعيقعان». [المعرّبة]



سألته دون استفسار، وما طيبة؟

انصرف عني، من دون أن يردّ على سؤالي!

وفي المرة الثانية، تمثّل لي في المنام شاخصًا، فأمرني قائلًا:

إحفر برة!

سألته على عجل: وما برة؟

غاب عني من دون أن يُحرِ جوابًا.

كذلك أمسِ طاف بي الطائف في المنام ليقول: إحفر المضنونة!

هرولت إليه لأسأله: وما المضنونة؟[1]

ولّى عنّي كالنسيم، قبل أن أختم كلامي، وأظفر بجواب.

ومنذ ذلك الحين، أجيل الذهن وأتساءل: ما طيبة؟... برّة...؟ مضنونة...؟ الرؤى صادقة؟... إلهية؟ من أين ألمَّ بي هذا الهاتف الغيبي... لماذا...؟

الأسئلة هذه، منذ أيام، قد شغلت بالي، وبعثت فيّ القلق، وحرمتني الراحة، ومنعت عني النوم والطعام.

---

(١) المضنونة: قال وهب بن منبه: سمّيت بذلك لأنها ضنّ بها على غير المؤمنين، فلا يتضلع منها منافق. انظر: **السيرة النبوية**، ١/ ٢٩٣؛ **الإصابة فى تمييز الصحابة**، ١/ ١٨٥؛ **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد**، ١/ ١٨٧. [المعرّبة]

تنفّس عبد المطلب الصعداء، بعد مرحلة عصيبة مرّ بها كأنه تخلّص من أعباء باهظة، أوشكت أن تقصم ظهره ثم أشاح بوجهه عن قمة قعيقعان وألقى نظرة، ملؤها الحنان، على وجه زوجه قائلًا:

وأخيرًا في ليلتي هذه، انكشف الغطاء، وها أنا سأنام بعد الآن مرتاح البال، قرَّي عينًا يا سمراء؛ فزوجك أُمر بحفر زمزم، زمزم البركة والنقاء، زمزم العتيق، تراث أبينا، إسماعيل. لقد مَنَّ رب الكعبة على مكة ثانيةً، فشملها بحسن عنايته، وجميل ألطافه.

قامت سمراء في سكينة واستقرار، مستبشرةً، وقد شملتها متعة روحانية ولذة غامرة. صبّت ثمالة الكأس تحت شجرة «الجهنمية» المتسلّقة على الجدار، ثم أعادت الكأس إلى مكانها، منكوسًا على الكوز. ورجعت إلى فراشها، حيث كان عبد المطلب راقدًا، وقد عقف على جبهته اليدين، بينما كان يرقى ببصره نحو السماء، سماء بلدتهِ العارية... الشفافة. ها هو بدأ يتخلّص من غموض الأسرار... من الرموز الملحّة إلّا أنه غطّ في خضمّ أفكار جديدة خاصمت عينيه، ومنحته السهر وحرمته الرقاد.

«ما اكتحلت عيناي بالنوم حتى الفجر؛ إذ امتزجت روحي بالبهجة والقلق والهلع. كنت أترقّب بفارغ الصبر الفلق، وأتمنى لو يحل عليّ لأنطلق إلى الحرم، وأباشر العمل.

شغل بالي طويلًا حفر زمزم، ضالتي المضنونة، المنشودة، غاليتي العزيزة. بل بلبلت بال أبي، هاشم، وأبيه على مدى الأيام، وسالف العصر والزمان.

منذ أن وافت المنية عمي المطلب، أُنيطت إليّ سقاية الحاج؛

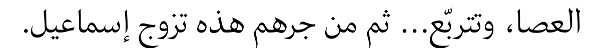
فعقد عليّ الحيّ الآمال. لم أدّخر سعيًا في إسداء الخدمة إليهم وإلى الحجيج. لكن السقاية ما كانت تتم كما أرغب وأشاء؛ فالماء وشل... قليل، لا يفي بالمطلوب، ولا سيما في أعوام الجدب، إذ كانت السماء تحبس عنّا قطرها لبضع سنين. ومن هنا حضرتني فكرة أن أحفر طوايا أستعين بها على السقيا؛ فزاهر وعسقلاني والجِعْرَانَةُ: وما كانت تحيط مكة من آبار، لم تعد تجدي نفعًا لسقاية الحاج لبعد الشقّة، وطول المسافة، وقلة العدة والعدد».

«عندما كنت يافعًا، أيقظني والدي مرةً مع الفجر. ولم أدر لِمَ بدا الأمر لي عجيبًا، مع أننا اعتدنا على الإبكار. كأنّ غرّة الفجر ستتمخض عن أمرٍ ما.

أجل، لقد صمّم والدي وعقد العزم على استنباط بئر في الحرم. إنّ حفر البئر ليس أمرًا جديدًا، لكنّ الذي أثار فيّ العجب العجاب، أنّ والدي بنفسه سيباشر الحفر والاستنباط، سألته عن السبب والدليل. سرد لي حكاية قديمة، تعود إلى ٢٤٤٠ سنة، عصر جدنا إسماعيل عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

سبق أن حكى لي قصة هاجر وموافاتها مكة مع رضيعها إسماعيل إذ كانت مكة فلاةً جرداء... ملساء، غير ذات زرع ولا عشب. أتاها إبراهيم بامرأته هاجر وابنه إسماعيل من فلسطين بعد أن أشارت عليه سارة وألحّت أن يتركهما فيها، ثم يبادر إليها بالرجوع. لمّا اشتدت على إسماعيل وطأة العطش وحارت هاجر في أمرها، انفجر ينبوع تحت كعب إسماعيل، وهو ينبش بها الأرض ويسحقها.

انبجس الماء في ذلك الموضع، فعكفت عليه الطير والوحوش رويدًا رويدًا، واهتدت إليه جرهم وبعض القبائل البدوية؛ لتلقي فيه


العصا، وتربّع... ثم من جرهم هذه تزوج إسماعيل.

إثر إسماعيل، جاء دور ابنه ثابت، ليقوم بأمر السدانة وخدمة الحجيج. وإذ وافته المنيّة، تولّت قبيلة جرهم الأمر، واحدًا إثر الآخر إلّا أنّهم طغوا لما استغنوا، وعاثوا في الأرض فسادًا:

أكلوا أموال الكعبة، وظلموا من دخلها من غير أهلها، ونهبوهم. استمرت الحال على هذا المنوال ٣٣٠ سنة، حتى طغى سيلُ العرم في اليمن، فتشردت خزاعة منها، ثم نزحت إلى مكة؛ حيث تمالأت على أهلها، واقتتلت جرهمًا. استعانت خزاعة بكنانة، فآذنوا بحرب، ثم هاجموا مكة، فكانت لخزاعة الغلبة[١].

منذ ذلك الحين، ولأمد بعيد، صار النزاع سجالًا على أمر السدانة وخدمة الحجيج بين خزاعة وجرهم، ثم استحال ذلك إلى غل وحَنَق، إلى قتال وعداء. غلبت خزاعة على جرهم بما عبّأت من الرجال، ثم أخرجتها من مكة ظلمًا وعدوانًا.

كان أبي يقول: بعد لأي، غلب خزاعةَ الغرور، فظلمت الحجيج بما فرضت عليهم من جائرالأحكام؛ فعلى الرجال نزع الثياب، والطواف بما تعيّنه خزاعة من الدثار، وعلى النساء الطواف، عاريات.

ومن بدع الأحكام، ألّا تتم الرفادة إلّا على يد خزاعة. وبهذا الظلم احتوت القبيلة الكنوز، وجمّعت الأموال، ويومًا بعد يوم، قويت واستغنت بعد أن دخل عليها الخصب والثراء.

---

(١) راجع: **تاريخ الأمم والملوك**، ٢/ ٢٥٧. [المعرّبة]



كان ذلك دأب خزاعة وديدنها لسنين وأعوام، حتى ثار جدّنا الرابع قصي بن كلاب[١] يقتصّ منها لما عاثته من الظلم والفساد، فهزمها، ثم عن مكة أجلاها.

كان أبي ينقل عن أبيه أنّه: لمّا استظهر جدّنا على خزاعة، واستردّ مكة، لم يظفر بزمزم. استقصى الأمر، فعلم أن القبيلة هذه حين تيقّنت الهزيمة، طمّت البئر بما تبقى من أموال الكعبة، فانطمست معالمها».

ولّى الأب وابنه وجههما شطر الحرم: أخذ عبد المطلب بيده مسحاةً ثم استبق ابنه بعريض الخطوات، فتخلّف عنه الحارث بخطوتين أو ثلاث. أمّا المارّة، ففي ذلك الفجرالصديع، كانوا يُكبرونَ أمر سريّ قريش، وينكرونه عليه مستفهمين:

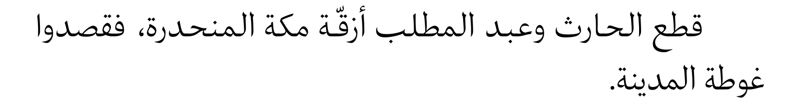
- ماذا حلّ بشريف قريش ودهاه؛ ليحمل المسحاة بنفسه ويحمّل صبيه ودرته الثمينة مكتلًا[٢]، أين غلمانه، ما منعه أن يستغني بهم، ويوكل إليهم هذا العمل الخسيس!؟

كَلَّ اللسانُ واحتبس لوجاهة عبد المطلب ومكانته، فارعوى المارة عن الاستفهام والاستفسار.

---

(١) انظر في نسب قصى بن كلاب: **الاستيعاب فى معرفة الأصحاب**، ١/ ٢٥؛ **الأنساب**، ص ١٢؛ و**جمهرة أنساب العرب**، ص ١٤؛ و**السيرة النبوية**، ١ / ١٠٤. [المعرّبة]

(٢) المِكْتَل والمِكْتلة: الزَّبيل الذي يُحمَل فيه التمر أو العنب إِلى الجَرين، وقيل: المِكْتَل شبه الزَّبيل يسع خمسة عشر صاعًا؛ **لسان العرب**، مادة «كتل». [المعرّبة]



قطع الحارث وعبد المطلب أزقّة مكة المنحدرة، فقصدوا غوطة المدينة.

كانت السوق فيما سبق تقع عند بوابة بني هاشم، والكعبة آنذاك شاهقة، شامخة، مهابة، ملفوفة بمخمل يماني، أخضر اللون، تحيط بها سهول منبسطة تمتدّ على مدى بضعة الآف ذراع، مسوّرة بأروقة.

أرض الحرم ترابية رخوة، رقيقة، قد امتزجت برمل أحمر قانٍ. غصّ المكان إلّا الحجر والمقام بأصنام القبائل العربية وبطونها: فهناك ثلاثمئة وستّون صنمًا. في كل يوم يَشفع واحدٌ منها للناس عند اللّه، عند رب الكعبة؛ ليقرّبهم إليه زلفى.

هنالك، حيث كانا واقفين، ألقى الأب وابنه التحية على الكعبة، وما أن وطأ عبد المطلب أرض الحرم، حتى راح صدره يخفق، وسويداء قلبه يرتعش. اجتاحه الهلع والريب، وهو يتشبث بمشاعر الشوق والخوف والرجاء في آن واحد.

«في مكان بين الفرث والدم»!

«عبارته هذه واضحة، ولا تنطبق إلّا على منحر الحرم: في مكان يقرب من مقام هاجر بين إساف ونائلة[١].

---

(١) قال ابن إسحاق (٨٥ - ١٥٠ أو ١٥٣هـ): «إنّ إسافًا ونائلة كانا رجلاً وامرأةً من جرهم، يدعيان إساف بن بغي، ونائلة بنت ديك [...] في الكعبة، فمسخهما الله عز وجل حجرين». والله أعلم. [الراوئي]
السيرة النبوية، ١/ ٦٩. [المعرّبة]

ترى في أيّ بقعة من المنحر، وفي أيّ موضع منه؟ فالمساحة الملطّخة بالفرث والدم شاسعة واسعة، لا يمكن أن تحتفر...!

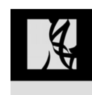
آه... والغراب الأعصم... ها قد وعيت المقصود من قول الطائف: «حيث ينقر الغراب الأعصم» ولكن أين ذاك الغراب؟... كيف بي لو لم يأتِ... ترى ماذا أفعل؟ هل يجوز أن يكون ما حلمت به كذبًا؟ لا. أبدًا... لا يجوز؛ فقد تكرر أربع مرات و...».

- أبي، الغراب... الأعصم...!

شخص عبد المطلب بصره إلى سماء الحرم، متعجبًا، ونظر إلى حيث كان الحارث يشير، فشاهد غرابًا بارحًا يطير نحو الكعبة من الجهة الغربية للفناء. انحبست أنفاس الأب وابنه في الصدر، وبلغ قلب عبد المطلب أقصى خفقانه.

حلّق الغراب في الفناء، ثم جثم على حافة سطح أحد الأروقة المحيطة به. نفض رأسه، ثم طار ليحلّ على هامة صنم بين الكعبة والرواق. أدار الرأس مرةً أخرى يسرةً ويمنة، ثم طار ثانيةً، وفي هذه المرة تريّث غير قليل عند هامة إساف، ومنه انتحى إلى الصنم المقابل، أي نائلة، الصنم الأنثى. مكث قليلًا، حرّك الرأس ثم أسفّ على المنحر وهبط. كان يتهادى في مشيه، متثاقلًا كالحامل، انتظر مليًا ثم التفت إلى ما حوله، بعدها بدأ ينقر وينقر...

صرخ الحارث من الدهشة والفرح، فكمّ عبد المطلب فاه في الحال، وسحبه قليلًا إلى الوراء. لكنّ الصرخة أثارت الغراب الهامد من جثوته، فطار. يبدو أنّه لم يبعث إلّا لينهض بمهمته تلك، فلما انتهت، انصرف عن المكان إلى غير رجعة، كأن لم يكن شيئًا





مذكورًا.

وثب عبد المطلب مسرعًا نحو المنحر، حيث بدت للعيان جملًا، نقرات الغراب العميقة تلك.

في هشّة وبشّة وثناء، حطّ الحارث المكتل عن كاهله، ووضع المسحاة إلى جانب، كما حلَّ عبد المطلب عمامته الخضراء، وخلع عباءته الململية، الرقيقة، الزهرية، وفكّ النطاق الحريري عن الخصر. جمع كل ما خلع ونزع عند قاعدة إساف، ثم أخرج المعول من المكتل، وباعد بين الرجلين، وبسمل مستعينًا برب الكعبة، ثم هوى بالمعول، ليضرب ضربته الأولى في موضع النقرات...

«فاض خبرنا، فصرنا حديث مكة وأشرافها منذ باشرنا العمل. في كل يوم يجتمع الناس من حولنا، ويتناقلون أخبارنا، ويتداولون أمرنا، وهم في حيرة من عملنا. بعضهم يرى أنّ أبي يريد كنزًا، وينوي اكتشافه، وآخر يتملكه العجب؛ لأنّنا تولّينا بأنفسنا أمر الحفر دون غلماننا... وأحيانًا يدفع بعضهم حبّ الاستطلاع، فيلحّون عليّ بالاستفسار؛ ليعرفوا غاية أبي ونواياه، فلا أردّ عليهم بجواب.

وذات مرة، بينما كان أبي يحفر البئر، وأنا أنزح التراب بالمكتل، انثالت علينا سادات قريش من كل حَدَب وصوب، فضقت بهم خوفًا، وملئت منهم رعبًا. احتشد القوم حول ما حفر أبي، وصاحوا به:

- عبد المطلب! أيا عبد المطلب، ألا تسمع ندائي؟».

كان عبد المطلب على عمق ثلاثين ذراعًا فوّهة الجبّ، فلمّا أحس بظلالٍ تطلّ على رأسه، وشعر بالجلبة، اضطر إلى أن ينفض يديه من العمل، ويرفع بهامته:

- أجل، أسمع.

- طابت أوقاتك يا عبد المطلب، لقد أنفقت جهدًا كبيرًا،



فلقيت من عملك هذا نصبًا، ألا تريد أن ترفق بنفسك، وتهوّن عليها، فتقيل هنيهةً وتستريح!؟

- يهون عليّ في الحبيب، الإعياء والنصب، بل يحلو ويطيب.

- حسنًا، حسنًا، لقد أقبل كبار القوم عليك ليتحدّثوا إليك في بعض الشأن.

- مرحبًا. فِيمَ الإرقال والإسراع؟ الشمس قاربت الغروب، والليل يتقدم، وعملي على وشك الانتهاء. سأنفضّ إليكم بعدُ وأكون معكم ما وسعكم الوقت. هلّم يا حارث!

شقّ الحارث طريقه بين الحشد حتى بلغ شفا الحفرة. ثم أطرق رأسه ملبيًا: نعم يا أبتِ!

- ليمدْ عامر بساطًا أوسع عند الكعبة، مُره بذلك إذ جاء ليجمع آنية الغداء وخوانه.

أمعن عبد المطلب في الحفر من دون أن يعير سمعًا لردّ الحارث. فلمّا رأوا منه الجدّ، لم يسلكوا إلى الإصرار سبيلًا، وخلّوا بينه وبين الحفر.

ما إن غربت الشمس حتى أخذ أشراف مكة وبطونها مكانهم من فناء الحرم، واستند آخرون إلى قواعد الأصنام.

- منذ أيام ينبش عبد المطلب في أرض الحرم من دون أن يستشير أحدنا أو يتحّرى رأينا؛ فلنا أيضًا حقوق، على أنه سادن الكعبة، وسيّد قريش.

- في اليوم الأول، عند الأصيل، زجرته مؤكدًا أن ما يفعله هو نيلٌ من الآلهة، لكنّ لسانه سكت عن الجواب، ولم يردّ عليّ بمقال.

- وأنا أيضًا، فعلت ذلك، لكنه رفض وقال: إنّ زمزم اتخذت من الحرم موضعًا قبل إساف ونائلة، ولم يكن في الأمر من غضاضة على الآلهة.

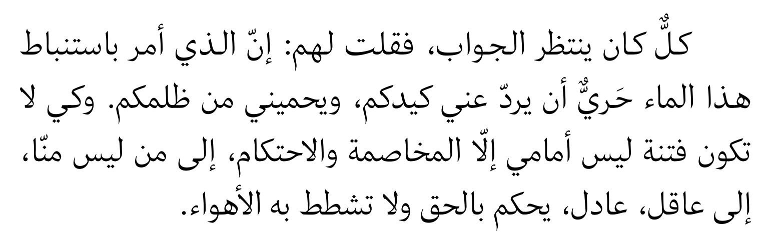
- مع ذلك، ما كان له أن يقوم بالأمرمن دون أن يأخذ بما يرضينا، وإلا فِلمَ يجتمع القوم في نادينا؟

«بعد أن نفضتُ اليد من عملي ذاك اليوم، التحقت بالقوم، وقد كانوا ينتظرونني عند جدار الكعبة، متربعين على ما افترشه الغلام من وسيع البساط.

تصارح القوم كالمعتاد، وأعلنوا على رؤوس الأشهاد، بعيدًا عن اللبس والكتمان: إنها بئر أبينا إسماعيل، وإنّ لنا فيها حقًا، فأشركنا معك!

قلت لهم: البئر وماؤها ليست لي وحدي، وأنا كشفت طيّها بأمرٍ هبط إليّ من السماء، وقد خُصِصتُ بالحفر دونكم، ثم إنّ السقاية كانت فينا كابرًا عن كابر. لكنهم أصرّوا على أن ينالوا شرف المشاركة في الحفر، وألحّوا عليّ في ذلك.

اعتصر فؤادي غيظًا، وتفطّر ألمًا ممّا رأيته من الحسد، وسمعته من الأعذار. قد حصحص لي مرّات أنهم لا يرعون حقي، ولا يأخذون بنصحي في البأساء والضراء، على أني في الظاهر عليهم سريّ، ولهم وليّ. إنّهم لا يستضعفوني إلّا لأني أبو واحد.



كلٌّ كان ينتظر الجواب، فقلت لهم: إنّ الذي أمر باستنباط هذا الماء حَريٌّ أن يردّ عني كيدكم، ويحميني من ظلمكم. وكي لا تكون فتنة ليس أمامي إلّا المخاصمة والاحتكام، إلى من ليس منّا، إلى عاقل، عادل، يحكم بالحق ولا تشطط به الأهواء.

ثم اعتزلتهم منصرفًا، كاسف البال، أنتظر ما يعتزمون».

اجتمع القوم هنيهة يتشاورون، ويديرون الأمر بينهم، ثم أعلن أكبرهم سنًا، هاشم بن المغيرة، شريف «سهم» عمّا انتهوا إليه من العزم والتصميم: لنحتكم إلى كاهنة سعد بن هذيم، وليبعث كل بطن إلى معان بالشام رسولًا منهم يصطحب عبد المطلب ونفرًا من أهله...[١]

ما هي إلّا ثلاثة أيام حتى انطلق الجمع بما يعينهم على قطع الطريق من الزاد والماء.

---

(١) انظر في الاحتكام إلى الكاهنة وحوادث الطريق: **السيرة النبوية**، ١/ ١٤٤. [المعرّبة]



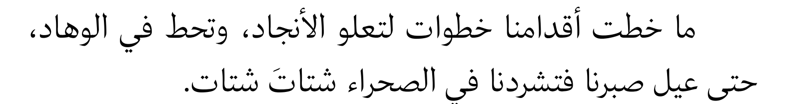
«فصلت العير عن مكة قبل خمسة عشر يومًا. ومنذ أيام ستة تسير في حيرة وذهول؛ فالهوجاء اشتدت بها وعاقت عليها الطريق، فما كادت تهتدي السبيل، وتاهت في بيداء ممتدة أحاطت بها من كل قطر وجانب.

بعد ثلاثة أيام من التقشف، نفذ الماء. في الليلة الرابعة وبعد يوم عصيب، أدخلنا قطعة خشب في حلقوم جملين من جمالنا ليتقيئا ماءً نستعين به على العطش. وفي اليوم التالي أيضًا شربنا ماءً استخرجناه من جوف جملين آخرين، فإذا الجمال في اليوم الخامس قحلت بواطنها وأجدبت أجوافها.

في صبيحة اليوم الخامس من الحيرة، حرنت[١] أكبر الإبل سنًا، وجُنّت الأُخر جنونها من شدة الظمأ والسغب، فجمحت نافرةً، تأبى الانقياد. وفي اليوم السادس، لمّا جزعتِ الإبل وضاقت عليها الأرض بما رحبت، لم نر بدًّا من إطلاق سراحها. تركناها وأذعنا لوعثاء الطريق نترنّح فيها مرهقين منهكين.

---

(١) حرنت الدابة: وقفت حين طُلِبَ جريها ورجعت القهقرى؛ **المعجم الوسيط**، مادة «حرن». [المعرّبة]



ما خطت أقدامنا خطوات لتعلو الأنجاد، وتحط في الوهاد، حتى عيل صبرنا فتشردنا في الصحراء شتاتَ شتات.

بعض الركب يرى أنّ الطريق شطّ بنا، فتوغّلنا مبعدين في أعماق الصحراء، حتّى أيسنا من كل رَوْح، وقنطنا من كل وجهة. الطريق إلى الشام - كما هو واضح - يمر من البحر الأحمر، وطريقنا هذا يمّر من يثرب، وعلى جانبه الأيسر بيداء شاسعة، بعيدة الأغوار، خاب من قطعها، وهلك من سلكها؛ فلا عاصم ولا منجا اليوم منها».

- أربعون رجلًا... من خيرة رجال قريش...! يا لها من تجارة كاسدة! ما أسرع الملتقى بالموت، وما أسهل مصرعنا. كيف لا، وقد ألقينا بأيدينا إلى التهلكة!

سنهلك، ولا توارينا يد الأهل في التراب، فتمرّ الأيام والأيام، ويعصي عليهم العثور على الرفات.

آه... ما أصعب على المرء أن يموت بهذه الحال، وما أقبح أن تنهش الوحش من جسده في الصحراء، أو يصبح نهبًا لسباع الأرض والأجواء.

- أقلّ عليك الخطب يا رجل، وارفق بنفسك ولا تسرف في لومها؛ فمن كان يتوقع هذا المصير؟ الماضي فات، والمستقبل في ذمة المستقبل وقد كتب اليوم علينا أن نعالج الموت صرعى في اغتراب وافتراق.

أجل، أنا أيضًا أقول إنّ الموت محتوم، مكتوب علينا في هذه الفلاة الجرداء، الملساء، فلنأوِ إلى جَدَث تطمئن فيه الأنفاس!

- والآن، ماذا ترى يا عبد المطلب؟

- الأمر سهل يسير، كلٌّ يحتفر حفرته، ويتربّص المنون، فإن سبق الآخرين إلى الموت، واراه أصحابه. وبهذا لا يذهب منكم ضيعة إلّا رجلٌ واحد، به تمتد الحياة إلى أقصى الأجل.

اقتراح لا بأس به، يتناسب مع حال الركب، وما انتابه من الحيرة الثقيلة، القاتمة، ويصرفه بعض الشيء عن ذاك الطريق القاسي المرهق الخائب، وتلك الرمضاء القاتلة، الهالكة. هو عمل غير مجدٍ، ولا طائل تحته، إلّا أنه يبعث الأمل في الروح الزاهقة البائسة، ويدفع في الجسد المنحط، المنهك، الطاقة والنشاط.

- فلنحفر قبورنا بما فينا من رمق وحشاشة...

«راح القلب يسكت عن الخفقان لما أحاطته الخيبة، وبلغ اليأس أقصاه. هنالك أخذنا نحن سادةُ قريش نلقي على أنفسنا سرًا وجهرًا اللوم والعتاب. ترى، كيف طوّعت لي نفسي أن أخلّف السكن، والأهل والديار، وأودّع ظل المدينة الظليل، وأصيلها الوديع، والحرم والماء الزلال، والشرب الهنيء، وألوان الطعام، وصنوف التجارة وتحقيق الأرباح؟ لِمَ، لِمَ بعد إصرارٍ باطل، شدّ الركب الرحال؛ ليقطع الطريق، في عذاب وعناء إلى حيث العدم والهلاك؟!

آه، ما أبعد الإنسان عن الاعتبار؛ فهو لا يزدجر، والعبرة لا تأتيه إلّا بعد فوات الآوان! ليت الإنسان يولد مرتين...!».

«الجميع يعرف أنني لا أهابُ الموتَ أبدًا، لكنّ الميتة هذه ليست مُنيتي ولم تكن فيها رغبتي، وما كان يبعث فيّ الهم والقلق



آنذاك أنني وجدت نفسي ضحيّةً لجهل الآخرين.

من حيث لا أدري تذكّرتُ ذاك الشبح، وجالت كلماته في خاطري: تُرى لمَ كان يصرّ على حفر زمزم. هل كان يريد لي هذه النهاية المشؤومة!؟.

لمّا فكرّت مليًّا، وانقشعت عني سحائب الأوهـام، قلت متمتمًا: كلّا، إنّ ربّ الكعبة أعظم شأنًا، وأوسع علمًا من أن يقدّر هذه المشيئة لعبده المطيع.

تناهت إلـيّ من الأعـماق همسة: أيا عبد المطلب، لِمَ الغفلة؟ قُم، قُم! فقفزت في وثبة وقلت للصُحبة: انهضوا يا معشر الأصحاب، وانفضوا اليد من الحفر والحفيرة. ميتة كهذه لا تليق بالإنسان! فلنجدّ جدّنا ما دامت فينا بقية من قوة، وفضل من نشاط، ولنقف في وجه المصير المحتوم، فلا نستسلم للموت صاغرين.

انهضوا نتسلق سفوح الآكام؛ فالموت في الطرقات خيرٌ من تحيّن الهلكات، كما تتحيّنها العجائزالقابعات في الديار».

في تلك اللحظات الحرجة، إذ أعجز الإرهـاق الدماغ، كان الركب على أهبة الاستعداد؛ ليسلموا أمرهم طوعًا إلى رجل كعبد المطلب. فما إن يتفوّه بكلمة، حتى يذعنوا إليه منقادين.

تحرّك عبد المطلب في الطليعة، واحتـذاه القـوم على الهضبات، بمرهق الخطوات:

«الأرجل بسيقانها تغوص في الرمال، والأجسام بثقلها تُثني الركاب مرّات بعد مرّات، فيتدحرج الرجال على الأرض بعض

الأحيان.

فوق رؤوسنا بسكينة واطمئنان، تسفّ النسور - رفاق طريقنا - تحلّق بنهم، بل أحيانًا بصبر وانتظار وتصرصر صفيرًا يصمّ الآذان.

جسومنا تنصهر في عين الشمس الحمئة ورؤوسنا تدوخ في دوّار، والمعدة والأمعاء والأحشاء تلقي ما فيها وتتخلّى. أمّا العيون فتكلّ وتَعشى. صمت ثقيل، رهيب، أطبق كل مكان، فلا يتناهى إلى الأسماع إلّا عميق الشهقات، وتهدّج النسور في ارتعاش.

لحظات بطيئة... ثقيلة...

آه، أين أنتِ يا مكة، يا وادي السلام والأمان، أين أنتِ يا دهاق الكؤوس ونمير المياه، أين أنت يا وديع الظلال، أين أنت يا حياة، يا حياة...؟!»

بلغ الركب شعفة من الشعاف.

«ما هذا... جبل!؟».

جبل تبيّنته العيون، وإن كانت كليلةً، حسيرةً، غائرة. فلاحت لها من بعيد، قمم ثلاث، متسلسلة، تبشّرها بالخلاص من الضياع ومن دوامة البيداء الداهية.

انحدرتْ من القمة سهول معهودة منبسطة، صلصال، لكنها تنفح بعبير حنون: تطفح بشذا الحياة؛ بأريج البشر: نبتات أم غيلان[١].

---

(١) شجر له شوك معوجّ، وهو من أعظم العضاه شوكًا وأصلبه عودًا وأجوده صمغًا؛ **معجم البلدان**، ٤/ ٣٨. [المعرّبة]



«الطريق اللاحب كشف عن بعض ملامحه، والتربة أخذت تتغير ألوانها بين الصفرة والحمرة، والغبرة والدكنة؛ فجاشت في قلوبنا الآمال العراض، وتجددّت فينا الحياة، فها نحن على بقاع حنونٍ للحبيب، وتلك هي قممها المأنوسة».

الغمة انكشفت، والموت انسلخ؛ فدبّت في النفوس الحياة، ونالت قسطًا من النشاط، من دون أن ترتشف الشفاه قطرةً من الماء، أو تلوك الأفواه مضغةً من الطعام.

يا لفسحة الأمل من معجزة!

ضجَّ القوم بالغبطة، بل استخفّهم الطرب فخرجوا عن الأطوار واستعادوا مرح الصغار وبراءة الطفولة، ونسوا ما كانوا عليه من العُجب والعُنجهية، والتصعّر والتبختر. طاشوا كالمجانين والصبيان، يتقافزون، ويتعانقون، ويغصّون كالأطفال بالقهقهة والضحكات، أو ينفجرون بلا وجل في صرخات وعِيطات. فبينا هم على هذه الحال، انثالوا على شريف مكة، الوجيه عند رب الكعبة؛ ليُغرقوه باللثم والقبلات.

- عذرًا يا عبد المطلب وعفوًا؛ فما أصابنا ما أصابنا إلّا استنكافًا واستكبارًا عليك وعلى مشيئة اللّه. وها نحن نرجع أدراجنا، وننطلق إلى ديارنا؛ حمدًا وشكرًا على جديد حياتنا. لك زمزم يا بن هاشم، خذها فما يدريك، لعل - بمحمود مقامك وبركة يدك - تنفتح على مكة سابغ النعم، ووفير الخيرات!



الهواء الساخن الخانق كان يثقل على أحشاء الجبّ، ويلفحه بلفحات لاسعة، وهبّات أخف وطأةً من السموم في خارجه؛ فضاق على عبد المطلب الخناق؛ إذ امتنعت رئته على الهواء، وتقلّصت لتأبى التنفس المعتاد. فترددّت أنفاسه على عجل في انكماش واختصار وانقطاع. إلّا أنّ روح عبد المطلب أخذت تخفّ محلّقةً في الفضاء، كلما اشتد على جسمه العذاب والعناء؛ فقد اطمأنت إلى رضوان من رب الكعبة، ورأت السبيل إليه في تجّشم المشقات. ثم إنّ تلك الأحلام زادته يقينًا، إذ ألحت عليه وتكرّرت مرّات ومرّات، وتضاعف إيمانه، بعد أن تداركته المعجزة، فأنقذته من تلك البيداء والهلاك...

«مرت أيام على قفول الركب من سفره المضني، وجسمي لا يزال يعتريه الضعف ويهدّه الوهن، ويرنّحه الإرهاق، وعلى ذلك كنت أحسن حالًا من صحبي الذين أجهدهم النصب، وبرّح بهم التعب؛ فلازموا الفراش مرضى، لا يفارقونه. كنت منغّص العيش، معنّى، أهمّني وأضناني اكتشاف السيوف والدروع والغزلان الذهبية في موضع البئر[1]، ثم اضطراري إلى الانقطاع عن الحفر بسبب

---

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٤٦. [المعرّبة]

مناهضة القوم وممانعتهم إيّاي.

قبل أن أصطر على شدّ الرحال، كان قد بلغ بي الحفر الذراع الثلاثين، حيث تلقى أنفي رائحة الرطوبة والنداوة، فباشرني اليقين أنني اقتربت من ضالّتي، وصرت منها قاب قوسين أو أدنى، فهاجني الشوق، وساقتني الرغبة لأشمّر عن الساق، فأدبّ في الحفر من دون أن أُعيرَ أذنًا لزوجي، وإصرارها على إخلادي إلى الراحة، ولو ليوم واحد».

رغم ما كان يعانيه عبد المطلب من الإعياء، ثابر على العمل وجدّ كادحًا في الحفر، مردّدًا بصوت عريض، ابتهالاتٍ، طالما ترنّم بها في ماضي أيامه، مستعينًا بها على دبيب الرخوة فيه، وتغلغل الفتور إليه. الحارث كذلك، كان يتمتم معه همسًا، أبياته هذه، بينما كان مستظلًا عند الحفيرة بحصيرة صغيرة:

لا هـمَّ قـد لـبيّـتُ مَـنْ دعَـانـي	**وجئتُ سَعْيَ المسُرِع العَجْلان**
ثَـبْـتَ اليقين صـادق الإيـمـان	**يتبعني الـحـارثُ غـيـرَ وان**
جــذلانَ لـم يحفل بما يُعاني	**لا هُـمَّ فلتصدُق لنا الأمـانـي**
مـا لـي بـمـا لـم تـرضـه يـدان	..................................[1]

لَكأن صوت الحارث خرير السواقي يبعثه على النشوة، ويهوّن عليه لفحات الشمس ولظاها.

انتصف النهار، فخلت أروقة الحرم رويدًا رويدًا، ولُمّت أطراف قباب السادة، الحصيرية منها والقماشية.

---

(١) **على هامش السيرة**، ١/ ٢٢. [المعرّبة]



«شعرت آنفًا من ضربات المعول وإيقاعها أنّ الأرض لم تَعُدْ صلبةً صلدةً وفجأةً أحسست أن الطين اللازب يتحول عند الحفر إلى رمال رخوة هشّة. ولكي يطمئن قلبي، جثمت على الأرض أتلمّس حفنة من التراب. فاستقرّ فيّ اليقين أنني لم أتنكب عن جادة الصواب؛ فالأرض رملية، والغاية قريبة غير بعيدة».

عبد المطلب نشط في الحفر، مقوّمًا ضربات المعول، وابنه الحارث من تلقاء نفسه، وبلا إيعاز من أبيه، كان يفرغ المكتل ثم يعيده إلى الحفيرة.

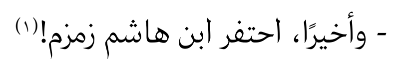
بغتةً ارتدت ضربة، كأن المعول اصطدم بجلمود صخر، فقارب عبد المطلب بين لين ضرباته، ثم اشتد بها سرعة. فإذا بصفوان يبرز أمامه، بدا مصقولًا... ثم الخلاء، وأصوات الرمال الهارة في جرف الماء، بل الخرير الخلاب.

الأيام بعنائها وطولها انتهت، والبركة على مكة قد حلّت، وهموم سقاية الحجيج سنويًا انقشعت، وتلك الرؤى المتكررة، الصادقة تحقّقت... صفاء، وحياة وماء...!

- اللّه أكبر!

ارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ به المسجد، وبلغ أقصى الحرم، وتعالى إلى عنان السماء، فبهت مَنْ دبَّ وهبَّ بالخروج، فحطّ على الأرض ما بيده من الأثقال، وهرع القوم سراعًا إلى المنحر، يسبقهم الحارث.

- ها هي زمزم!



- وأخيرًا، احتفر ابن هاشم زمزم![1]

اضطرب بعضهم وهاج وماج، فأقبلوا إلى السوق والطرقات، يزفّون إلى الناس نبأ العثور على زمزم ثانيةً، بعد أجيال أربع من الضياع...

---

(١) تم حفر زمزم - وفق إحدى الروايات - سنة ٥٤٠م. [الروائي]

«لهذه الحادثة قصة، تعود إلى عقود سلفت، إذ شمّرتُ عن الساق كي أحفر زمزم؛ فتألّب عليّ سادة تسعة بطون من قريش، وبلغ الأمر بنا ما بلغ من رحلة الموت تلك.

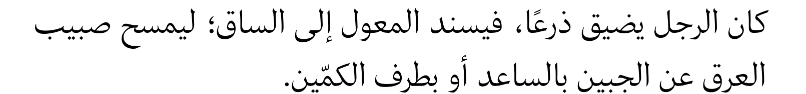
لمّا نجونا من الفلاة الجرداء، وارعوى الركب عن غيهم، واعتذروا إليّ، زعمت أنهم سيخلّون بيني وبين الحفر.

في الأيام الأولى من عودتنا إلى مكة، سارت الأمور على ما يرام، مع أنني كنت أصطلي عذابًا بغموم الأيام التي ذهبت هَدَرًا؛ لتمادي القوم في العناد واللجاج. بل ما زلت أعتقد أن القوم لم يتطاولوا عليّ إلّا لقلة الولد، والناصر والمعين.

استمرت بنا الحال على هذا المنوال حتى أميط عن الكنز أكوام التراب...».

همّ عبد المطلب بحفر باطن الأرض، ماضيًا في رجزه، وقد هدّه الإرهاق، وضعضع منه الأركان.

ألحّت الحرارة على الأرض، فقهرت عبد المطلب، وغمّست سرباله بالعرق. حبّات العرق أيضًا أخذت تنضح من معين جبهته؛ لتتغلغل في سدّ الحاجبين، وتنحدر إلى العينين. بين حين وآخر،



كان الرجل يضيق ذرعًا، فيسند المعول إلى الساق؛ ليمسح صبيب العرق عن الجبين بالساعد أو بطرف الكمّين.

- لا هُمّ فلتصدُق لنا الأماني

ما لي... يدان...

- صلِ، صل، ص ...!!

توقفت يدا عبد المطلب عن الحركة، إذ التقطت عيناه شواظًا أوراه نصل المعول، وهو يصطدم بشيءٍ نحاسي.

«ماذا عساه أن يكون؟!»

- ابني، حارث، أدل الزنبيل!

أدلى الحارث المكتل، فعبّ فيه عبد المطلب التراب، ثم أطلق سبيله نحو الفوهة. والآن قد حصحص له الأمر، فتبيّن أن قطعةً فلزيةً قاتمةً شقّت طريقها في التراب لتلتقي بالمعول.

صقل عبد المطلب القطعة وجلاها بضرباته اللينة، المتفاقمة السرعة. ثم اخذت الأرض في يسرٍ ويسار للحفر تنقاد.

لاحت للعين، درع عتيقة فولاذية، مع عدد من مسامير عفتها الليالي والأيام، عريضة الرأس، مربعة.

امتدّت إلى قلب عبد المطلب أمواج الجذل الهادئة، فتراءى له في ذلك أيضًا برهان صدقه. واندفعت في عضديه القوة، فصاح، والفرح قد استبد به: هلّم يا حارث أدل الزنبيل!

عرف الحارث من لحن القول، أن أمرًا ما قد وقع، فقام على فرح وعجل يلبّي ما أمر.

ارتفع المكتل محتضنًا درعًا مع حفنة من قاني التراب، فانفجر الحارث صارخًا من أقصى الحلق صرخةً بلغت مسامع من تربّص به منذ الفجر ممّن كان يُلفّق الأساطير عن رحلة عبد المطلب إلى الشام مع نفر من سادة بطون قريش.

تحلّق القوم بهاماتهم حول الفوهة، وطاروا إلى الحارث، لمّا تلألأت لأبصارهم الدرع.

- درع عتيق! يا لمَعدنه، موفور، سالم، انظر إليه، لم يصدأ على مدى السنين والأيام.

- أجل، ما ألينه وأملسه، لا بدّ من أنه من خالص الفولاذ، وإلا لكان الصدأ يعتريه والاندراس.

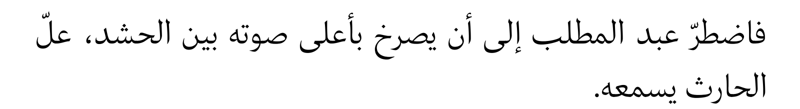
- باليقين أقطع أنه من تلاد بني خزاعة في مكة، وأظن ظنًا أنه كنز ظفر به ابن هاشم.

- يا حارث، أرسل الزنبيل!

- حسنًا، يا أبتِ!

درع، ست أسياف قلعية من فولاذ الشام، وغزال ذهبي، وآخر مثله. ها هم القوم يجتمعون حول الحفيرة ويلمّون بها محتشدين.

بطرفة عين، ذاع الخبر في مكة، فتقاطر إلى الحرم وموضع الحفرة، أشراف البطون من قريش، ومن لفّ لفهّم من رجال المدينة؛



فاضطرّ عبد المطلب إلى أن يصرخ بأعلى صوته بين الحشد، علّ الحارث يسمعه.

أخذت الأيدي تتخاطف السيوف الحديدية، والغزلان الذهبية الثقيلة، حتى أوشك أن يستفحل النزاع بينهم. ثم خمدت رغبتهم للاستطلاع على الكنز، فراحوا يتداولون أمره. اتجهوا جميعًا نحو عبد المطلب، وألقوا عليه القول، فاضطر مرةً أخرى إلى أن ينفض يديه من العمل، وينفضّ إليهم خارج الحفرة.

قال هشام بن المغيرة بَحنَق جاهد في كظمه: يا بن هاشم، سبق لك منّا العهد على أن تكون زمزم خالصة لك من دوننا، وألا نشركك فيها وها نحن الآن نعاودك العهد، إلّا أن الكنز هذا شيء آخر. عليك أن تقسّمه بين بطون قريش العشر.

قال عبد المطلب، وهو واقف على كثيب من التراب المنزوح: منذ سنين كانت زمزم في الحرم، مطمورة، مخبوءة، وأنتم في غفلة عنها، لا يُعنى أحدكم بحفرها، فلمّا شمّرتُ عن الساق، كلٌّ ادّعى أنه كفيل بها. واليوم كذلك تريدون أن تستأثروا بالكنز المكشوف عندها. أنسيتم دأب العرب وعادتهم: الكنز لمن وجده في باطن الأرض.

- إنما زمزم لقريش، والكنز المكشوف كذلك...

- لا سبيل لك علينا؛ فإننا...

- رويدًا، رويدًا، ما زلتُ...

- لن نتخلى عن موقفنا...!

- أجل، لا بد من أن تقسّم الكنز!

وفي هذه اللحظة، وصل حرب بن أمية - من أبناء عبد مناف، وأقرباء عبد المطلب - ثم أقبل يشقّ طريقه بين الحشد. اتجه نحو عبد المطلب ووقف عنده، ثم رفع صوته عاليًا: إنما هو لبني عبد مناف؛ فقد احتفر أحدهم وظفر، وما ينبغي لقريش أن تغلبنا على خير ساقته إلينا الآلهة.

أثار كلام حرب حفيظة القوم فهاجوا وماجوا، واحتدمت بينهم الخصومة، فهمَّ عبد المطلب - بلا جدوى - أن يُسكت سخط من صمّ أذنيه عمّا لم يرقه من الحديث، فصار بينهم هو المعزول عن السمع، والممتنع عن الكلام.

كلا، لم يكن عبد المطلب ممن يبتغي عرض الدنيا وزبرجها، ولم يك عاكفًا على حطامها وزينتها، وإنما رفض الخنوع؛ لأنه كان يأبى الظلم والزور، فهو طيلة حياته قد ربأ بنفسه عن ذرة ضيم تركبه العار والهوان.

اشتدّت به قسوة الوحشة والغربة، وتصّدع قلبه حزنًا وأسفًا؛ فهو يدري أنّ القوم لم يتجاسروا عليه بل لم يتصدوا له إلّا لقلة العدد والناصر والمعين.

أجل، طالما تآزر على عبد المطلب سادة قريش وتظاهروا عليه وإن تبيّن لهم حقيقة كلامه، بل طالما أرادوا أن يحمّلوه باطلهم. إذ لم يكن صاحب الرشيد من الولد، فمثله كمثل قائد مغوار بلا جند وأعـوان، يتحفز له كل متكبر ليتخطفه، أو يناطحه، فيصرع مطروحًا على الأرض، مجندلًا.



يا ليته كان يملك من الذكور عشرة. يا ليته، فلو كان يملك...!

اصطنع القوم الأناة، وخضعوا بالنعرات والصيحات، فتحوّلت منهم الفوضى إلى تمتمة، ثم همسة وركزة، لمّا رأوا عبد المطلب صامتًا، مطرقًا، وقورًا، مهابًا على كل حال، مع فقدان العون، وغياب النصير.

كان عبد المطلب سيّد قريش، ومدبّر أمرها فلا تستطيع المدينة دونه حيلة، وليس عليها إلّا أن تلقي إليه السمع، أو تنظر فيما يريد.

- والآن، ماذا ترى يا عبد المطلب؟

- يا هشام، أتيتك بفصل من القول. وبما أنني عقدت العزم على الحفر، ولا أريد أن يتقطع الأمر بينكم، فإنني أقترح ضرب القداح.

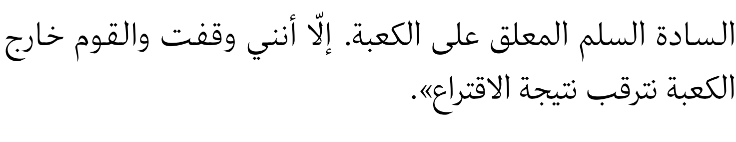
- ضرب القداح!؟

- بين مَن وما؟

- الحق أن نجعل للكعبة النصيب الأوفى من الكنز، ونضرب القداح بينها وبيننا.

«تركنا العمل ذاك اليوم عن غير رغبة، فأمرني أبي أن أودع غلامنا عامر آلات الحفر، ليعود بها إلى الدار.

غسلنا اليد والوجه، ولبسنا الملابس، ثم انطلقنا وسادة قريش نحو الكعبة. برز من ناحيةٍ صاحب القداح، ثم ارتقى والدي ونفر من



السادة السلم المعلق على الكعبة. إلّا أنني وقفت والقوم خارج الكعبة نترقب نتيجة الاقتراع».

«أخذ صاحب القداح ثلاثة قداح صفر وسود وبيض، ووضعها في وعاء القرعة الاسطواني ثم بدأ يقلّبها. القدح الأصفر للكعبة، والأسود لي، والأبيض لقريش.

ضُرب القداح على الأسياف والدروع، فخرج لي، ثم ضرب على الغزلان الذهبية فخرج للكعبة. أمّا حصتي من الأسياف والدروع، فقدمّتها هبة للكعبة.

قلت للقوم: ينبغي أن يكون للكعبة باب يتناسب وشأنها، فلندفع الدروع لمن يشتريها، ونصنع بثمنها وذهب الغزالين بابًا ذهبيًا لائقًا بها.

بعد حين، أذاب الصاغة الذهب، وصاغوا الباب الجديد، ثم حليت بالسيوف مصراعيه»[١].

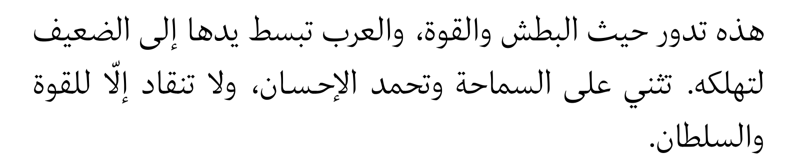
يقال إن عبد المطلب كان أول من حلى باب الكعبة بالذهب، ولم يسبقه إلى ذلك أحد.

«فتحت لُهى زوجي لَهى أهل مكة وقريش[٢]، ورفعت من شرف محله ومنزلته عندهم، من دون أن تحلّ هباته عقدةً من عقد معاناته. أنا ابنة البادية، وعلى علم بطباع العرب وأخلاقهم: دنيانا

---

(١) **السيرة النبوية ومعجزاته**، ص ١٧١؛ **الكامل في التاريخ**، ١/ ١٤. [المعرّبة]

(٢) اللُهى جمع اللُهوة: العطيّة، واللَهى جمع اللَّهاة، اللحمة في أقصى الفم. [المعرّبة]



هذه تدور حيث البطش والقوة، والعرب تبسط يدها إلى الضعيف لتهلكه. تثني على السماحة وتحمد الإحسان، ولا تنقاد إلّا للقوة والسلطان.

تُعزّ عبد المطلب إذا أطعم جياعها، وكسا عراتها، وآثر الآخرين على نفسه، بينما تذله إذا استقام على حقّه، وثبت دونه صلدًا صلبًا».

«في اليوم التالي، لمّا عاودت الحفر، لازمني حزن قاتم، وطغت عليّ كآبة عنيفة. فقست الغموم على قلبي، وضيّقت الخناق على حلقي».

لولا أن القوم ينكرون في الرجل البكاء، لعاد عبد المطلب الاستعبار، فأسلس للعبرة والزفرة القياد، ولأسال من العين سيل الدموع الغزار، فتخرَّ له سدود الحلم والكبرياء، خاويةً على عروشها، منهارة.

ها هو الآن يعيش العزلة، منفردًا بالحفرة، بمعزل عن القريب والغريب. تحيّرت في مآقيه دمعة، فترك المعول جانبًا، وجثم على النقع، ثم مدّ بيديه نحو السماء، فقال بصوت بحّ من وطأة الغصة وشدة العبرة: اللّهم أنت الشاهد على شيبة[١]، أنه لم يمش على أرضك مختالًا فخورًا، وأنت العالم بجوارحه؛ فإنها لم تقوَ إلّا على خدمتك وأنت أدرى بهؤلاء القوم؛ فإنهم بطباعهم لا يذعنون إلّا

(١) كان عبد المطلب يسمى شيبة لأنه ولد وفي رأسه شيبة وكانت ظاهرة في ذؤابته. انظر: **تاريخ الطبري**، ٢/ ٢٤٦؛ **السيرة النبوية**، ١/ ١٤٦؛ **سبل الهدى**، ١/ ٢٦٢؛ **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، ٢/ ٢٠٤. [المعرّبة]

لسلطان القوة والهيبة.

يا رب الكعبة، انظر إلى عبدك نظرةً رحيمة، وارحم قلبه المكلوم وباله المكسوف! لك عليّ لئن ولد لي عشرة من الذكور ثم بلغوا أشدهم لأنحرن لك أفضلهم.

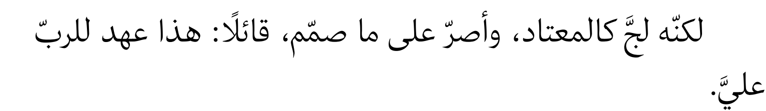
هانت عليه الشدائد، فانشرح صدره وهفت روحه. فمسح بظاهر اليد ما انفلتت من الدموع المنهمرة إلى خديه. فقام من مكانه؛ ليقبض على المعول ويواصل الحفر.

- بني، لقد حانَ الوفاءُ بالنذر، لا بدّ من أن يُضّحى أحدكم اليوم! ارجعوا الآن إلى الأهل والديار، وودّعوا الأمهات والأخوات، ثم اغتسلوا، وارتدوا الحُلل وفاخر الثياب، وتطّيبوا بالعطور والمسك وماء الأزهار؛ فإننا سننطلق بعد حين إلى الكعبة؛ لنتربص المصير.

«نحن أهل مكة، منذ عقود، نسمع بعض الحديث عمّا عقده عبد المطلب على نفسه من النذر، من دون أن يحمل أحدنا ما سمع على محمل الجدّ. أمعقول أن يعقد شريف من أشراف العرب العزم على التضحية بخيرة ولده.

أجل، لقد كنا بعض الحين، نرى من ضاق به ضنك الحال، يئد من إملاق، أو خوفَ الأسر والعار، ويواري في التراب البنات، لا الأبناء؛ فالولد عند العرب هو الغنى والحسب، هو العون والنصرة والسند للوالد عند العجز، هو الصائن للأهل والمال والشرف. فهل يصدّق أن تستخف السفاهة بأحد فينهض بمثل تلك التضحية؟».

«لمّا بلغني النبأ، أقبلتُ على عبد المطلب نائحةً زاجرة: ما هذا الأمر الفظيع الذي عزمتَ عليه!؟



لكنّه لجَّ كالمعتاد، وأصرّ على ما صمّم، قائلًا: هذا عهد للربّ عليَّ.

قلت: إنك عاهدت اللّه بعد ولادة ابني الحارث، فلا أظنّ أن عهدك يشمله!

تريّث مليًّا، كأنه استغرق في أفكاره، ثم قال: لم أغفل عن الحارث، وأنا أنذر النذر في قرارة نفسي.

هيهات من عبد المطلب نقض العهد لا سيما العهد، مع رب الكعبة، هيهات...».

لذلك كله، أضربت مكة بقضها وقضيضها عن العمل، لمّا بلغها النبأ، وأخذت في بهت وحيرة تترصّد الأمر وتترقّب.

تجمّعت أفواج من تخلّف في المدينة، ليخوضوا الحديث عن الفداء، ويتجاذبوا فيه أطراف الكلام. أمّا زوجات عبد المطلب فإنهن عيين عن إقناعه، فاتخذن إليه الوسيلة بين سادات القبائل ورجالها، عسى أن يقوموا دون أولادهن، ويحولوا بينهم وبين ريب المنون. هيهات... مستحيل...؛ فالقنوط جاثم على القلوب، لا يكاد يفارقها. ولا قبل لأحد بآباء العرب؛ فهم يتملّكون الأبناء كما يتملكون المال والعقار، ولهم فيهم حق الحياة والممات. وما لأحد من قوة يثبِّط بها سيّد مكة عن عزمه على الفداء ببنيه الذين لا يسبقونه بالقول، وهم بأمره يعملون.

الشمس على مهل طلعت، والضحى ارتفع، وحان حين الفداء، وآن أوانه، فإذا صراخ طفل زنجي، حافي القدمين، يشق الأجواء، فتخشع له أصوات المحتشدين عند عتبة بني هاشم.

مسح البُني رشحات أنفه بكّم سرباله السمل، الموشى بشيات عريضة زرقاء، فاتحة اللون، وأخرى وردية باهتة، ثم صرخ كفراخ الغربان، ناعقًا: جاءوا...!

دارت الرؤوس نحو الباب الشرقي:

قطع عبد المطلب طريقه بين عجاج القوم المتصاعد، وبرز ببردة وعمامة ململية ونطاق حريري أسود، يسبق أولاده: الحارث، أبا لهب، عقبة [حمزة][١]، زبير، عبد مناف، عبد اللّه، عباس، غيداق، قثم، ضرار[٢]، الذين جاءوا من بعده متطّهرين، يفوحون بالمسك والعبير، متدثّرين بأنيق الحلل، إلّا أنهم كانوا قلقين، وقد حوّطتهم كالشذر نساء عبد المطلب: سمراء، فاطمة، أم جميل، نتيلة وبناته: صفية، عاتكة، برة، هيمة[٣]. أغلبهن حافيات... ثائرات...

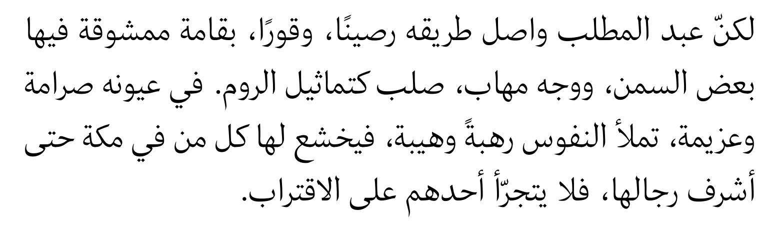
الأمهات حُدب الظهر، ضارعات، منبهتات. والأخوات يضطربن كالحميص، لا يقرّ لهنّ قرار، يتراكضن يسرة ويمنة: يتمسّكن بأحضان عبد المطلب متوسّلات إليه، أو يتعلّقن بأعناق الإخوة الشباب، يقبّلن الوجوه منهم والهامات. بعض يمعن النظر فيمن يحفّ بهنّ أو يولّين شطر الحرم وجوههنّ، يستصرخن مستغيثات.

---

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٠٨. [المعرّبة]

(٢) اختلفت الروايات في تسمية أبناء عبد المطلب، فبعضها أشارت إلى عبد الكعبة وعبدو وحجل، إلّا أنها اتفقت على الأسماء التالية: الحارث، عبد مناف (أبو طالب)، العباس، أبو لهب، عبد الله، وأخيرًا حمزة. [الروائي]

(٣) أو «أميمة» كما جاء في بعض الروايات. [الروائي]. **السيرة النبوية**، ١/ ١٠٨. [المعربة]



لكنّ عبد المطلب واصل طريقه رصينًا، وقورًا، بقامة ممشوقة فيها بعض السمن، ووجه مهاب، صلب كتماثيل الروم. في عيونه صرامة وعزيمة، تملأ النفوس رهبةً وهيبة، فيخشع لها كل من في مكة حتى أشرف رجالها، فلا يتجرّأ أحدهم على الاقتراب.

بدا أبناء عبد المطلب أربط جأشًا، وأقلّ لوعةً، ثم ازدادوا اطمئنانًا وثباتًا، لمّا تيقّنوا أن خيرة فتيان عبد المطلب وآثرهم عنده هو الضحيّة. وكذلك الأمهات والأخوات استشعرن السكينة، وأحسسن براحة البال؛ فالخيار المتوقع هو عبد اللّه، أصغر الأولاد سنًّا وأصبحهم وجهًا. إذن ما من خوف مقلق إلّا إذا أخطأتهم – لا سمح اللّه – إجالة الأقداح، فتخرج على أحدهم من دون الأبناء. وهذا هو سرّ جزع الأخوات ووالدة عبد اللّه.

كان عبد اللّه زين شباب مكة، عرف منذ صغره بسيماه، وإشراقة جبينه، فقد سطعت في ناصيته الوضاءة غرة ناصعة، ميّزته عن إخوته وأترابه، فإذا فدح القوم الجدب، اندفعوا إلى عبد المطلب ملحّين عليه بالخروج معهم إلى بطاح مكة للابتهال والاستسقاء، فيخرج هو إليهم في الطليعة، آخذًا بيد عبد اللّه متضرّعًا، به متشفّعًا عند رب السماء. ولست أدري - لمّا كان عبد المطلب يقلب الفكر في العهد بالوفاءِ - كم أنفق من الأيام في تتبّع سيرة وُلده وتقصّي طباعهم، وهل استهوى لبّه وخلب عقله إلّا عبد اللّه. وليت شعري كم ليلةً تخيّل فيها مشهد فدائه، فاخضلت عيناه، دامعةً من البكاء. وكم من أيام احتضن ابنه يشمّه ويقبّله ويحنو عليه في لطف وحنان. وكم ساعة أطال المكث معه، فوجد في جواره لذةً ملكت قلبه وملأت بصره!؟ فها هو اليوم قد صار





أحرص على قرة عينه ودرّته العصماء بعد كل ما آثره به من الحدب والحنان.

مضى عبد اللّه قدمًا مع أبيه في سكون وسكينة وهو يسعى حثيثًا ليهوّن الخطب على والدته وأخواته ويربط على قلوبهن. وفي جانب آخر، كان أخوه عبد مناف، يباعد الأم ويدفعها عن عبد اللّه، ويحاول أن يسرّي عنها القلق ويقدّم لها العزاء.

دخل عبد المطلب الكعبة، يتبعه أولاده فأوصد الباب دونهم، بينما ظلّ حشد كبير من الناس ونساء عبد المطلب وفتياته يتكلّفون الانتظار في الفناء.

«الكعبة - كما هي اليوم - كانت مستطيلة الشكل، مكسوةً بمخمل أسود يماني. جدرانها من الحجر، وعرشها من الطين والخشب.

بابها يقع في نهاية الجدار الشرقي، أو ما عرف بالركن الشامي[1]. كانت عتبتها في سويّة الأرض - كما يقول بعض من تقدّم به العمر - فلمّا تولّت قريش سدانتها، رفعتها عن الأرض كي لا يسهل إليها الدخول، أو لتدحر من لا ترغب فيه فيتدحرج من سلّمها.

خلعنا النعل، وتركناه عند السلّم الخشبي، استنانًا بسنّة الوليد بن المغيرة، ثم ارتقى بنا الدرج إلى مصراعي الباب، الذي بأمرٍ أبي ذهّب، وبعتيق السيوف زيّن. وفي جوف البيت، هبطت بنا بعض السلالم على قاعدة الكعبة.

رُفِعَ سقفها من الداخل على ستة أعمدة ممدودة، مترادفة على الجانبين. على العمود الأول منها، نحتت صورة زاهية مطلية بماء الذهب لمريم بنت عمران وهي محتضنة عيسى بينما كان

---

(١) **المعارف**، ص ٥٦٠. [المعرّبة]



عليها مسحة العربيّات.

وعلى العمود الثاني، صورة لإبراهيم خليل اللّه، يبدو فيها عجوزًا هرمًا، منهمكًا في استقسام القداح.

ازدانت بقية الأعمدة والجدران أيضًا بصور إسماعيل وبعض الأنبياء أو ملائكة تمثّلت للعين بشرًا أولي جناح.

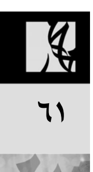
على الجانب الأيسر من الباب حفرة عميقة عمق الآبار، تنهال إليها هدايا الناس للكعبة. عليها هبل، الصنم السامق الجسيم قائم، مرصّع بعقيق يمني أرجواني. بينما يده اليسرى مكسورة، وقد جبرت بيد مصوغة من ذهب. ثم، هناك، إزاء هبل سلم خشبي، يمتد إلى بطنه.

أمّا السقف فقد ازيّن بمصابيح مهداة إلى الكعبة. وعلى الجدار الغربي علّق قرنان، يقال إنهما للكبش الذي نزل به جبريل إلى إبراهيم ليفتدي به إسماعيل.

وعلى الجدار الجنوبي حلقات حديدية، يستمسك بها لائذًا عائذًا من يخاف ظلمًا وهضمًا، فلا يخشى بذلك بخسًا ولا رهقا. لِمَ لا؟ فلاجئ الكعبة في أمن وأمان، ولا قوة لأحد على الاستفزاز ولا جرأة له على الاعتداء.

دخلنا الكعبة جميعًا، فالتفت إليّ أبي قائلًا: يا حارث، أوصد الباب وقفْ وراءه، ولا تسمح لأحد بالدخول حتى يتم الاقتراع.

أطعت الأمر، فوقفت فوق السلم الحجري مسندًا إلى الباب ظهري، ثم أوعز أبي إلى صاحب القداح في التهيؤ والاستعداد».



مع أن صاحب القداح كان أدرى بالأمر، لكنه سأل حسب العادة، بين مَن وما سيضرب القداح، وعَلامَ؟

ردّ عليه عبد المطلب قائلًا: بين أولادي العشرة؛ ليتبيّن من هو ضحية الوفاء بالعهد.

قدّم عبد المطلب إلى صاحب القداح صرة، قد غصّت بالمسكوكات قائلًا: هذي مئة درهم، ولك أيضًا من الأجر جزورٌ يأتي به الغلام بعد رعي الأغنام.

طوى صاحب القداح يديه على النقود فأودعها طرف نطاقه المزركش، ثم دار حول حفرة الهدايا دورةً، اتجه بعدها نحو صُفةٍ أمام هبل. حيث كان الوعاء الفضي، المعدّ للاستقسام. أجال فيه يده ثم انحنى على كنانة جلدية، جسادية اللون كانت معلقةً على الجانب الأيمن من الصفة، فنزعها عن مسمارها، وأخرج منها الأقداح الخشبية.

شتان ما بين استقسام العرب[1] وما يجري اليوم؛ فأقداحهم السبعة المعهودة (العقل، نعم، لا، منكم، ملصق، من غيركم، المياه)[2] لم تعد تجدي نفعًا.

قام صاحب القداح من زاوية بقلم ودواة، وكتب على عشرة من الأزلام أسماء الأبناء، ثم جعلها في الوعاء وقلّبها، بينما كان

---

(١) لمزيد من الاطلاع على سنن الجاهلية في الاستقسام راجع: **كتاب المحبر**، ص ٣٣٢.

(٢) **جمهرة أنساب العرب**، ص ٤٩٣؛ **والكامل**، ٦/٢.

قباؤه الأطلسي المذهب يتموج لمعانًا وبريقا تحت وهج مشاعل الأعمدة، وأردانه الفضفاضة الواسعة في ظل النور الشاحب الغريب كانت تبدو مغارات حالكة، بأعماق بعيدة بعيدة، لا تمتد إليها الأبصار.

فرغ صاحب القداح من الإجالة، فردّ الغطاء إلى الوعاء. فانبرى عبد المطلب يتضرع، رافعًا يديه إلى السماء. أخذ يبتهل إلى اللّه بصوت غير خافت على الأولاد، قائلًا: اللّهم يا مالك يا حميد، أنت إلهي، وأنت البارئ والمعيد، تقبض وتبسط، لك كل قديم وجديد. اللّهم أرنا مشيئتك في هذه الأقداح!

رفع صاحب السهام عقيرته عند هبل، داعيًا بصوت مترنّم، حاول أن يضفي عليه قداسةً وغرابةً ثم نغمةً وإيقاع: يا آلهتنا، يا هبل العظيم، يا من تشفع لنا عند الربّ الأجلّ الأعظم - ربّ الأرباب - هذا عبد المطلب بن هاشم، سيّد قريش، يريد أن ينحر أحد أولاده عند الكعبة، فاسأل الرب، يخرج له الحقّ، في هذه الأقداح، ويهديه سواء السبيل. ثم أطبق عينيه الناعمتين الذكيتين، وهو يردّد: هبل، لات، مناة، عزى، أيها الرب الأعظم أجلّ من كل جليل، وأرفع من كل رفيع...! ثم أدار ببضع دوراتٍ الجدارَ الخارجي للوعاء، وقد كان مماثلًا للجدار الجوفي، بل ربما كان أوسع منه.

صوتٌ ما قطع حركة الوعاء، فقرّ له القرار ولازم مكانه، ثم كشف صاحب القداح من قاعدته، غطاء فتحتها الصغير الخفيف، وأمسك بيسراه عودًا نحيلًا رفيعًا، وضرب بها على متن الوعاء ضربة رنّانة، فانزلق من الفتحة سهم.

انحبست في الصدور الأنفاس، وضاق على عبد المطلب الخناق، تحت وطأة الهواء الخانق، المثقل بدخان الشموع والمشاعل، وعطور الطائف، وروائح صمغ الهند، وعلك الروم. أمّا هبل فقد كان شامخًا بلا حسٍ ولا روح، يرمق المشهد بعيون جحضة، ولحية، بل زغب خفيف، وعلى طرفيه يدان يعوزهما التناسق والانسجام؛ فواحدة من حجر، وأخرى من ذهب.

- يا عبد المطلب، على عبد اللّه... عبد اللّه، وقع اختيار الآلهة!

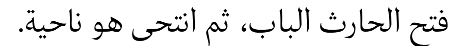
- تمتم عبد المطلب بصوت خافت، لم يكد يسمع: هذا ما كنت أتوقّعه!

دار القوم جميعًا برؤوسهم نحو عبد اللّه، واتجه عبد مناف إلى أخيه يضمّه إلى صدره وهو يسفح غزير العبرات.

أما عبد المطلب فقد أحسّ أنه انهدّ، وخرّ في الخلاء والفضاء، ولكنه سرعان ما تمالك نفسه وسطا على إحساسه المستشري بكل ما كان يملك من الإرادة وقوة اليقين.

«قد حقق ربّ الكعبة مُنيتي، فوهبني على بعيد الانتظار تسعة أولاد، وها قد حان حين الوفاء بالعهد».

انطلق عبد المطلب صوب الباب؛ لم يكن هناك داعٍ للبقاء في جوف الكعبة، ثم اقتفاه عبد اللّه. ومضى وراءه أبو لهب مترهّلًا، يحرّك الجنبين بعد أن نزع جسمه المكتنز لحمًا وشحمًا من إحدى الأساطين، المستند إليها.



فتح الحارث الباب، ثم انتحى هو ناحية.

من فرجة الباب، برز عبد المطلب، يتبعه الحارث والأبناء، واضعين على الدرج الخشبي الأقدام.

فسحت الجموع لهم الطريق، فوطأ سيّد قريش وبنوه رمال الحرم في سكوت مطبق، ثم لبسوا النعال.

إليهم حدّقت الأحداق، مستفهمةً، من دون أن ينبس أحدٌ بالسؤال خوفَ سماع ما يتوقعه من مروّع الأنباء، فاتصلت العيون بوجوه الفتيان، تتلمّس في سيماها الجواب، علّها تتكشّف من انتقته الآلهة للفداء. خيّم على المكان وجوم ثقيل، قطع - حتى على فاطمة - العويل والبكاء.

نحو المنحر - الموازي لبئر زمزم - اتجه عبد المطلب، ومن بعده الأولاد، حتى إذا بلغوا المذبح الملوّث بالعلق، توقف عبد المطلب، فتحلّقت حوله الحشود المنسلّة، يموج بعضها في بعض. استدعى عبد المطلب ابنه عبد اللّه، بينما كان يجدّ جدّه في ألّا تلتقي منهما النظرات؛ فيَهِن أو ينهار.

ما إن نادى عبد المطلب اسمه، حتّى تصعّدت الآهات، وتعالت الزفرات من القوم، رجالًا ونساء:

- هو في ريعان الشباب، لم يمتّع من الحياة إلّا أربعة وعشرين ربيعًا!

- عبد اللّه خيرة أولاد عبد المطلب، وأحبهم إليه!

- الآلهة ذوّاقة!

قال شيخ هرم، أحدب الظهر، بصوت مرتعش، يقطّعه الهياج: علينا أن لا نسلّمه للفداء!

ثم وثبت فاطمة صوب عبد اللّه، وتعلقت به ثائرةً... ضارعة...

«صرختُ قائلةً: لن أسمح لك أبدًا بذلك، يا عبد المطلب، سأمنعه بحياتي... لأموتنّ دونه...!».

وهنت من فاطمة الركبتان، فأغمي عليها في أحضان فتاها عبد اللّه.

«أنا وضراتي كنّا - حقًا - نتوددّ إليه ونلقي عليه المحبة؛ ففيه من الوسامة وحسن السيرة ما تهوي إليه القلوب وتهفو الأفئدة. وعلى ذلك، أحسست في قرارة نفسي بالسكينة وراحة البال؛ فقد نفرت عن ابني الحارث عُقاب المنية. وعليه لم يعد يحوم ويحلّق. كذلك كان شأن ضراتي.

هرعتُ إلى فاطمة مسرعة، ثم أخذت برأسها إلى فخذي، أهدهده، وطلبت لها الماء، ثم نزعت من الأذن قرطي، ووضعته تحت لسانها ليربط جأشُها».

«كنتُ غارقًا في أفكاري، فإذا بالقوم هاج وماج؛ فخفت ثورتهم واضطرابهم خاصةً أن المغيرة بن عبد اللّه المخزومي - من أخوال عبد اللّه - كان بينهم.

تداركت الفتنة، فصرخت بصوت عريض، امتدّ إلى صماخ الجميع، ملتفتًا إلى أبنائي: لا تأذنوا لأحد بالاقتراب حتى يتم الفداء!

أحاطني الأولاد، وطافوا بي وبأخيهم، فرجع الشهود أدراجهم

بضع خطوات؛ فاتسعت الدائرة المحيطة بنا شيئًا ما».

احتضن عبد اللّه إخوته، مودّعًا إيّاهم، واحدًا واحدًا، وقد اغرورقت عيون عشرتهم بالدموع، إلّا أنهم سرعان ما حبسوها قبل أن تأخذ طريقها إلى الانهمار؛ إذ لمحوا في وجه أبيهم بوادر الهيبة والثبات.

نادى عبد المطلب ابنه بصوت جهوري، صحل، ففضّ عبد اللّه على عجل الوداع، ومضى نحوه في قلق، وهو يسعى أن يأتمر أمره، مؤثرًا طاعته على رغبته في الحياة والبقاء. فما يدريك لعل التاريخ يعيد نفسه فيفتدى في أقصى اللحظات كما افتُدِيَ إسماعيل في سالف القرون والسنوات؟

فليستقم على ما حلَّ به، وليطع ربّ الكعبة، وينقاد لأبيه؛ فإن جعل له اللّه من أمره مخرجًا، فأفسح في عمره، وأطال أيّامه، فقد بلي بلاء حسنًا، وإنْ قدّر له أن يغتاله الحمام - وليس له من بدّ - فأولى له أن يتلقاه في عزة... وصلابة.

ترى ما هذا الشعور الغامض الذي ينتابه...؟ لِمَ - مع كل ما كان يمتلك من تلك الآمال العراض، والحيوية والنشاط - لا يتلمّس في صدره ذرة رعب من الردى والهلاك؛ فالموت قريب قريب، وقد صار منه قاب قوسين أو أدنى!؟ أليس في هذا أيضًا آية...؟

أومأ عبد المطلب برأسه إلى غلامه عامر، واللوعة في عينيه، فأقبل عليه الغلام، ووضع عن كتفه المكتل، وحطّه على الأرض بين يدي مولاه، فأخرج منه عبد المطلب قطعة حبل، ثم تقدّم إليه عبد اللّه من دون أن يتفوه بكلمة، وقد ألصق يديه بعضها ببعض.

أداره عبد المطلب برفق وكتّفه، ثم نزع عمامته وخلع عباءته وأودعها عامرًا، وخرج بعبد اللّه الذلول المنقاد نحو المذبح.

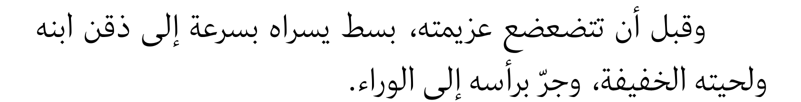
خلع عبد المطلب هناك كوفيته وعقاله، وسلمهما لعامر الذي استهل هو أيضًا بكاءه في هدوء وصمت. تناثرت على منكب عبد اللّه وجبهته الناصعة كالبدر، ضفائره الفاحمة، المذيّلة بجميل التجاعيد؛ فاشتدت لمنظره من النساء الحسرات فاصطرخن، واصّعّدت منهن الصيحات إلى كبد السماء. وخرّت أخوات عبد اللّه للأذقان مرمّلات بالتراب. وهناك... من لم تطق الموقف فأدارت الوجه ناحبةً باكية، تتوارى بين الحشود المتفرّجة.

لم يبال عبد المطلب بما كان يدور ويجري، فأشار إلى عبد اللّه بالبنان ليجثم على الركبتين عند المذبح.

حَطَّ عبد اللّه عذاره على المذبح، فركّز عبد المطلب إحدى الركبتين عليه وعلّق الأخرى من دون أن يجثو تمامًا، ثم شهر خنجره الشامي ذا الحدّ الفولاذي من نطاق خاصرته.

تحت أشعة الشمس، تموّجت شفرته العريضة، ثم انعكس بريقها اللامع في أحداق عبد اللّه، فرفّ بأشفاره الهدباء، وأطبق هنيهة عينيه الحوراء التي كانت تحاكي عيون الظباء.

نظر عبد المطلب خُلسةً ، ثم شخص برأسه نحو السماء، مناجيًا: يا رب الكعبة، ها أنا ودرّتي العصماء، قرّة عيني، عبد اللّه. لقد استجبتَ دعائي وقد حان وفائي، أفرغ عليّ وعلى والدته الصبر، وهب له جناتك؛ فقد سلم وجهه كل التسليم، وانقاد لك ولأمر أبيه هذا الانقياد.



وقبل أن تتضعضع عزيمته، بسط يسراه بسرعة إلى ذقن ابنه ولحيته الخفيفة، وجرّ برأسه إلى الوراء.

ها هم الشهود قد عيل صبرهم لمّا تبيّن لهم جيد الشاب، وبياض طلاه...

لم يكد يدني الشفرة من منحره، حتى انبسطت إليه يد قوية، فقبضت على رسغه، ودفعته عن عنقه. أدار عبد المطلب رأسه، وهو يتشبّث في خضمّ أحاسيسه المتضاربة، فوقع بصره على المغيرة بن عبد اللّه المخزومي.

قال المغيرة في خشونة ولين: لقد جرت عادة العرب منذ قديم الأيام أن تفدي الضحية بالمال وفاءً بالعهد. فلم لا تجري عليها؟ ردّ عبد المطلب كارهًا، غير مقتنعٍ: أنا لست ممن يتبع الهوى، فينقض ما عاهد عليه الآلهة.

قام من بين القوم شيخ عجوز فانٍ، يصيح: يا لبدعةِ شؤم تُحدثها بين العرب، يا بن هاشم! الولد سعة في الرزق، ومبعث القوة والسلطان. بتوافر الرجال ومنعتهم، تتباهى قريش وتتبجح. فلئن فعلت، فإن الرجل لا يزال يأتي بابنه حتى يذبحه، فما بقاء الناس على هذا، واللّه لا تذبحه حتى تعذر فيه!

«قال عكرمة بن عامر من سادة بطون قريش: لقد كنت مرجوًا فينا من قبلُ، راجح الرأي، محنكًا، واليوم أرى أن ميثاقك مع الآلهة أخذ يمدّك في الغي، ويبعثك على العتو والعناد...! أنى عرفت أن الآلهة لا تقبل عِدلًا، ولا تقنع بفدية؟ أليس من دأب العرب دفع الدية إلى أهلها!؟ أربّك أشدّ قسوةً منّا نحن البشر وأقل صفحًا!؟

قال خال عبد اللّه: أجل، يا عبد المطلب، قسمًا برب الكعبة الذي أنت به آمن، هذا كلام معقول موزون، فإن كان فداؤه بمالٍ يُدفع للكعبة، فإننا جميعًا نفديه بالمال.

تلكأ عبد المطلب، وقال في تردّد وارتباك: لكن...

لم يمهله المغيرة، وعاجله بالقول: لا تتردد. دعنا. وهل ضربت اليوم موعدًا للوفاء بالعهد... كلا، أنا لا أظن ذلك أبدًا. أعرض عن هذا يا عبد المطلب بضعة أيام، عسى أن يحدث بعد ذلك في الأمر شيء.

فقام رجل يصرخ: فلنحتكم إلى الكهان؛ إنهم لا ينحازون جنفًا، ولا يميلون مع الأهواء شططًا.

وآخر قال: سجاح، عرّافة يثرب خير من ينهض بالأمر!».

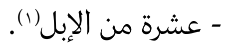
أمسك عبد المطلب عن الكلام؛ فما له من سبيل إلى الرفض، أو التماس المعاذير، فهلَّ الجمع المتفرج مستبشرين... مبتهجين، وتخاصر الشباب مغنين، يدبكون حول المنحر راقصين. النساء زغردن، والأطفال أخذوا يسرحون ويمرحون في حبور وسرور...

«لمّا انفضّ الفداء، طفتُ سبعًا حول الكعبة، حامدًا، مسبّحًا. وأشرت على أبنائي وغلماني ألّا يضنّوا بالجزور على أحد حتى السباع وطيور السماء، فلتبتهج معنا الدنيا، ولتبتسم الأحياء، ولنحمد معًا ربّ الكعبة والدار.

عدنا بالأمس من يثرب بعد أن ذهبنا إليها مع نفر من القوم نحتكم إلى عرّافتها في فداء عبد اللّه.

طالت الرحلة نحو عشرين ليلة، عرّجت خلالها على ديار الأخوال. في بادئ الأمر، طلبت سجاح أن نرجع عنها ذاك اليوم حتى يأتيها تابعها، فتسأله. ائتمرنا بأمرها، عُدنا ثم غدونا إليها في اليوم التالي».

سجاح العجوز بعيونها العسلية الغائرة، المتقدة ذكاءً وفراسة، حطّت توراتها إلى جانب وأعدّت أدوات الرمل والاسطرلاب وصفيحتها النحاسية المدورة، المقسمة أربعة أقسام، ثم سألت: كم الدية فيكم؟



- عشرة من الإبل[١].

- اضرب عليها وعلى صاحبك بالقداح. فإن خرجت عليه، فزد من الإبل عشرةً، ثم اضرب بالقداح ثانية!

- وإن خرج عليه مرةً أخرى...؟

- زد عشرًا، ثم عشرةً حتى يخرج على الإبل[٢].

- لكن...!

- لا تتردّد، واعلم أنك ستنال رضا الآلهة.

«خرجنا حتى قدمنا مكة، فلمّا أجمعنا على الأمر، ضربنا القداح حتّى بلغت الإبل مئة، فخرج عليها.

ساورني الشك، فأمرت بمعاودة الضرب للمرة الثالثة، فلما خرج عليه، باشرني اليقين أن رضا ربّ الكعبة قد انتهى.

وفي اليوم الآتي سقت إلى المنحر من الإبل مئة، فنحرتها عنه».

وثب على الجزور كل من كان يتربص النحر منذ الفجر. فرمقهم عبد المطلب بنظراته الأخيرة، وقد ارتفعت منهم العقيرة، وهم يسلخونها مقطعّين إربًا إربًا: كانت السواطير والفؤوس والخناجر تتهاوى وتتطاير، والأكياس والزنابيل تعبّ على فرط من العجل،

---

(١) حول الفداء ونذر عبد المطلب راجع: **البداية والنهاية**، ٢/ ٢٤٨. [المعرّبة]

(٢) **دلائل النبوة**، ١/ ١٠٠؛ **البداية والنهاية**، ٢/ ٢٤٨. [المعرّبة]

لتلتحق برواحل القوم والجوالق، أو تستقر على مناكب الرجال، أو تعلو رؤوس الصغار والنساء. كل ذلك أخذ سبيله نحو خارج الحرم.

«فلنذهب يا ولدي» قالها عبد المطلب، وهو يشدّ على يد فتاه برضا وحرارة وحنان. بادله عبد اللّه الشدّ، فربط على يد أبيه في حب ووداد، وانصرف معه صابرًا مستسلمًا.

التفت عبد المطلب إلى ابنه، وهما يخفان من الحرم بغبطة وبهجة، فقال في هزل وجدّ: لقد كلّفتنا غاليًا، ألا ترى ذلك!؟

بدت على عبد اللّه بوادر الأسف والندم، فقال: يعزّ عليّ يا أبتاه شقاؤك من أجلي، لقد غاليت في الفداء، وطبت نفسًا عن عريض المال؛ فمئة من الأبل حصيلة أتعاب خمسين عامًا!

جدّ عبد المطلب هذه المرة وقال: بجلالة الذي نفس أبيك بقبضته، لئن كان القدح يخرج على كل ما أملك، لكنت أبذله على الرحب والسعة في سبيلك. لا بأس يا ولدي؛ فالواهب قد استلب ما أعطى ووهب. فيكم البركة يا أولادي، فأنتم رأس مالي. لم يكن يقلقني إلّا نقض العهد، أو الغش في الوفاء بالنذر.

من نافلة القول ما نطق به عبد المطلب آنفًا ؛ فمكة وعبد اللّه على يقين من إيمانه وثباته واستقامته على العهد. إذ إن عبد المطلب طيلة حياته المشرقة لم يأب التضحية والفداء بأنفس النفائس في سبيل الآخرة والوفاء بالعهد.

لم يشأ عبد المطلب أن يعكّر صفو تلك اللحظات وعذوبتها بمرّ الأحاديث وحالك الذكريات وكل ما يدفع إلى الضجر والملل. فبادر إلى ابنه بالقول: ولدي الماضي مضى، وأبوك الآن لا يكنّ إلّا

البشاشة والسرور، ولا يستشعر إلّا الحمد والثناء. فلا تفكّر إلّا بقادم الأيام وحلاوتها، فكّر في آمنة وزواجك منها... فقد سبق أن بعثتُ ساعي الخير إلى وهب. وهو الآن وزوجه بُرّة مع كبار بني زهرة في انتظارنا. سيجهّز إخوتك بعد النحر لوليمة العرس شعب هاشم.

اندفع الدم في صفحته الطرية، فربت عبد المطلب على كاهله، فارتسمت على وجه عبد اللّه ابتسامة عذبة عريضة.

«توسّلتُ إلى عبد اللّه أن يؤجّل رحلته التجارية إلى الشام، وينصرف عنها وقتًا ما. قلت له: تعصرني عليك الهواجس، ولا تطاوعني نفسي في رحلتك. ابتسم في وجهي، وقال: لا تقلقي، ولا تجعلي للخوف عليك سبيلًا؛ فقد ألفت قريش منذ سحيق الأعوام رحلة الصيف والشتاء، تستدّر بها غزير الأرباح، ووفير الخير... وإلا ماتت بعد لأي من جوع وإملاق.

- إذن تمهّل بعض الوقت؛ فزواجنا لم يمّر عليه إلّا شهور!

- وعليّ كذلك يشقّ البين والفراق. لكن ما باليد حيلة؛ فليس على الإنسان إلّا الكدح. هذه بوادي مكة قاحلة، تشكو الجدب، بل تضنّ على أهلها حتى بسنبلة... هي جرداء، غير ذات زرع، يستحيل بها الرعي، إذن لا بدّ من التجارة حتى لا تقسو علينا الحياة.

معه الحق فيما راح إليه؛ فجدّه هاشم أيضًا عرف ذلك إذ سنّ الرحلتين، رحلة اليمن والشام، في الشتاء والصيف. وها هي رحلة الصيف لو تخلف عنها عبد اللّه لاضطر تكلف الانتظار ريثما تنطلق قافلة الشتاء. ناهيك أنها فرصة ذهبية سانحة لا يفوّتها التجار، فالعروض الشامية كانت نافقةً آنذاك.





أقنعني عبد اللّه وأفحمني إذ قال: يراودني الأمل، ويهفو بي الشوق لأنال جوارك ساعة الولادة، وهذا لا يتحقق لو التحقت بركب الشتاء. ثم أمرني بالصبر والسكينة وأوصاني برباطة الجأش والدعاء لأوبة قريبة، محمّلة بالأرباح وعريض الأموال... لم يكن عليّ إلّا القبول والسكوت».

منذ سويعات انثالت المدينة إلّا بعضها نحو الخارج، تترّقب العير تحت وطأة الشمس الشرسة بأخرة من أيام القيظ.

اضطربت مكة هائجةً... مائجة بعد أن حمل إليها ذاك الفارس المرهق الأشعث بشائر القدوم، فأعدّت النساء الدور بكل جَلَبة وسرور، وغسّلن الصغار في سرعة وعجل، وألبسنهم ناصع الحلل، ثم اتخذن لأنفسهن زينةً فاخر الثياب وعجّلن في الذهاب إلى الفراش، ثم استيقظن والفجر مسرعات... راكبات أو راجلات، يحملن بين أيديهن الصغار، فتوّجهن بهم نحو ظاهر المدينة في لهفة إلى لقاء الأخوة والأزواج، معهن جمع غفير من الرجال، ممن جاء يستقبل عروضه التجارية، وهو يقدّر الأرباح ويحسب لها الحسبان.

من الناس من جلس على صفّة مفروشة ببساط من الشعر أو الوبر، مستظلا بسقيفة شفيفة، ومنهم من حمل مظلّة منسوجة بزاهي الأقمشة، تتخللها أعواد من خشب. وبينهم يتقافز الصبية ويتطايرون إلى الفضاء بعالي الصياح، دون أن يعيروا الشمس ولفحاتها بالًا. كانوا يخاتلون لداتهم بين مجاهل الصخور، ثم يطلبونهم من حيث لا يشعرون.

أخذ بعض الفتية مكانه على المشارف، حيث انبطحت



السهول الجرز القفار بملامح شاحبة ورسم بالٍ لطريق لاحب.

بين فينة وأخرى كان بعض الراصدين يسعى في استباق الآخرين إلى استشراف البطحاء، أو إلقاء نظرة فاحصة على الطريق ليكون هو البشير باقتراب العير.

في طليعة السراة، كان عبد المطلب في انتظارٍ مع ابنيه «الحارث وعبد مناف» ومن ورائهم فاطمة وآمنة وأمها برة وسمراء، ثم هالة - ابنة خالة آمنة التي تزوّج منها عبد المطلب، إذ عقد ابنه القران - ومعهن عدد آخر من نساء قريش، مشدودات البصر إلى الأمام.

النساء جميعًا كنّ خائضات في الحديث إلّا آمنة الغارقة في صمت ووجوم، بعين شاخصة رامقة وأخرى مستبشرة.

تعالت الهتافات بغتةً من الفتية المترصدين بالمشارف: ها هو العير قد وصل... وصل...!

القوم اضطرب، الجالس منهم قفز. وثب...، والواقف مدّ العنق ليجتلي المشهد. الصبية توقّفوا عن اللعب لينهمروا إلى الأمام. وآمنة وعبد المطلب أخذ القلب منهما يخفق في الصدر ثم يخفق.

بعض اعتلى المشارف ليشهد قفول العير بأمّ العين.

بلغ مرأى القوم عِثير[1] الركب المتعجج، فساروا نحوه على

---

(١) العثير: غبار الأقدام. التراب والعجاج تمور به الريح مورًا وتطيّره. [المعرّبة]

رسل، رجال ونساء وصغار.

لاح الجمل الحادي شيئًا فشيئًا بجرسه الضخم، المتميّز به بين صحبه من الجمال، وعلى جرانه وهامته متنوع الأجراس، حمر، صفر، سود، خضر، بيض. ثم هناك من بعيد، تناهى إلى المسامع جلبة القافلة، ونواح الجلجلة الحزين الحنين...

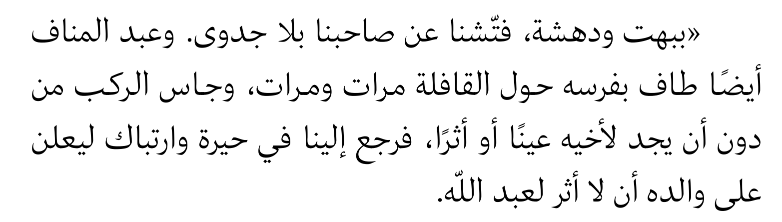
«وأخيرًا - وللّه الحمد - قد طوى طويل الانتظار، أجله».

القافلة كانت تسير وئيدًا وئيدًا؛ فما من شيء يبعث مراكبها المكدودة على النشاط والإرقال حتى شوقها اللاهف إلى نهاية المطاف: برزانة ما خطت خطوات، رفيقة عريضة. وفي كل خطوة كانت أثقالها تتأرجح على الظهر أو تهتز كالمهد هزات. تعالت من بعض العير وحاديهم أصوات زجر متباينة، متقطعة أو ممدودة، قصيرة، رفيعة، فتختلط بجلجلة الأجراس الصغيرة ونغماتها الآسرة، فيرهف لذلك كله إحساس المستقبلين.

احتشد المستقبلون حول القافلة؛ فخففت الإبل السرعة حتى توقّفت عن السير في رفق ولين. ثم أخذ تيار الناس والركب يموج، بعضه في بعض، كلٌّ يتفقّد صاحبه، وبعض يعانق الآخر. تداخلت الأشياء في مشهد بديع، وتشابكت الأصوات واحتكت الملابس، القشيبة بالبالية، الأنيقة العبقة بالخشنة المغبرة. هناك... وجوه ناصبة لفحتها الشمس، وصبية تعلقوا بالآباء أو استقروا في أحضانهم، وهم يتودّدون إليهم متحببين بملقهم الطفولي.

انبهمت الأصوات بين سؤال وعتاب، وضحك وبكاء، بين ودّ وحب ولثمة...





«ببهت ودهشة، فتّشنا عن صاحبنا بلا جدوى. وعبد المناف أيضًا طاف بفرسه حول القافلة مرات ومرات، وجاس الركب من دون أن يجد لأخيه عينًا أو أثرًا، فرجع إلينا في حيرة وارتباك ليعلن على والده أن لا أثر لعبد اللّه.

ما إن سمعتُ بالنبأ حتى عيّطتُ عيطةً، بل شقشقة منّي هدرت ثم قرّت، ارتميت إثرها في أحضان أمي.

- متأكد؟ سأله عبد المطلب، وهو على يقين أن لا محل للسؤال؛ فهل يمكن أن يكون عبد اللّه بين الركب ويتكلّف الأناة ولا يندفع إلى أهله، إلى والديه، إخوته، وزوجه...!؟

تدارك هشام - وهو من غلمان عبد المطلب في ركب الشام - الموقف، إذ هرول إلينا قبل أن يُوعز عبد المطلب بأمر جديد، فألقى علينا التحية، ثم قال: سيّدي، هوّن عليك، لا تقلق، مولاي عبد اللّه تخلّف عن الركب ولبث في يثرب عند أخواله.

عاجله عبد المطلب بالسؤال: كيف، لِمَ، لِمَ... لِمَ لم يرجع؟

- لدى العودة ظهرت على صفحته علل فتّت في عضده، ورفعت من حماه ونحن على مشارف يثرب؛ فاضطرّ إلى البقاء. ذهبتُ به إلى طبيب يهودي بالمدينة فوصف لمولاي الدواء، وأمره بالخلود إلى الراحة. فلا بأس عليه الآن، هو عند بني قيله في ديار أخواله. أمرني أن أخبرك وزوجه أن سيعود إلى مكة ريثما يستردّ الصحة والعافية.

- ومتى كان ذلك؟

- قبل عشر ليالٍ يا سيدّي».

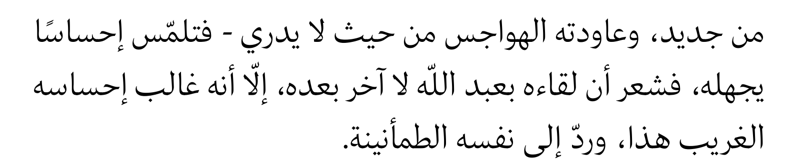
ظهرت على الوجوه أمارات الجزع والذهول، واشتدت بآمنة وعبد المطلب اللوعة والاضطراب. لكن فاطمة لم تأخذ بنفسها في الخيال كل مذهب على أنها أم، ولوع بولدها، ومع أنّ النبأ قد نال منها أيضًا؛ إذ لا بأس على شاب مثله من وعكة، ثم ليس المرض بغريب على مكة؛ فهواؤها الملّوث يحمّل أهلها الأوبئة، ولا سيما في الصيف، إذن أنّى لعبد المطلب وآمنة القلق، فالوعكة بذاتها لا يمكن أن تبعث على الهلع!؟ لا بد من أن هذا النبأ هيّج فيهما هواجس ما تلقّيا من ذاك الهاتف الباطني إبّان الرحلة. فأثارت فيهما الفَرَقَ والهلع.

«عاودتني - من حيث لا أشعر - ذكرى وفاة والدي؛ فهو أيضًا رحل إلى الشام، ومرض على قارعة الطريق، ثم مات. ترى أمصير عبد اللّه أيضًا...؟».

«مخاوف إبّان الرحلة بلبلت بالي، فهل من صلة بين مرضه وقلقي المقلق، وغريب وسواسي؟ أهذا هو مرض وفاته!؟».

تمثلت أمام عبد المطلب غموم الماضي، وغريب خاطر كان يصّر عليه أن يحتفظ بصورة لابنه تملأ قلبه وعينيه. وتذكر ذاك الهاتف الملحّ ينذره برحيله الأبدي...

ما فتئ عبد المطلب - حتى يوم الفداء - يظنّ أن ابنه عبد اللّه هو الضحية التي ينبغي أن يفديها بنفسه، فأثار فيه هذا الظن شعورًا غامضًا، بل مرعبًا، لم يتخلص منه إلّا بعد مفاداته بالإبل. ولمّا أغرى ابنه بالسفر وشدّ الرحال إلى الشام، انتابته المخاوف



من جديد، وعاودته الهواجس من حيث لا يدري - فتلمّس إحساسًا يجهله، فشعر أن لقاءه بعبد اللّه لا آخر بعده، إلّا أنه غالب إحساسه الغريب هذا، وردّ إلى نفسه الطمأنينة.

أمن الحق أن يمنع ابنه من تجارة مربحة؛ فمن دأب قريش التطواف في أقطار الأرض، وقد خرج عبد المطلب نفسه يبتغي الفضل في رحلات الشتاء والصيف، فكيف يحول دونه لأسباب غير مقنعة. لكن ها هو الآن قد اكتشف للوعته داعيًا، ولاضطرابه أساسًا.

أيمتّ إلى الرحلة بصلةٍ، ذاك القلق القديم والهاجس المفجع؟ أتتسنى له رؤية عبد اللّه ثانيةً...؟

لم تنكر آمنة ما تلقته من الهاتف القلبي، بل شاطرت عبد المطلب الإحساس بفسحة أملٍ أوسع؛ إذ لم تكن مثله بعيدة العهد باللوعة والاضطراب ولم تر للقلق داعيًا؛ فعبد اللّه في عزّ الشباب، غضّ، نضر، هيهات أن يهدّه السقم والأوصاب، ثم إن عليها أن تدافع القلق فلا تتضعضع أو تنهار، بل تنفق العناية بنفسها في سبيل ما ضمّته في الأحشاء... فلذة كبدها، جنينها الذي أخذت تتحسسه أنا بعد آن.

«هدّأتُ من روعي، وطمأنت نفسي أن سيعود عبد اللّه موفورًا... سالمًا». صمّمتْ ألا تبلبل بالها، بل تفكّر بمستقبل واعد، إذ يعود إليها عبد اللّه من رحلته فتمرّضه، وتزيل عنه وعثاء الطريق وعناء السقم، وتنفح حبيبها بالحيوية والنشاط.

التفتتْ بعدُ إلى عبد المطلب، وهي تكاتم - كعادتها -





الاضطراب، فسألته: أبتاه، ماذا نفعل؟

- لا تقلقي، سأوفد فجر غدٍ الحارثَ إلى يثرب بمرقال ليحمل إلينا عبد اللّه. وأظن أن قد برأ من المرض حتى ذاك الحين، هوّني عليك، فهذي هي سنة الحياة، مرضٌ مرةً وتعب أخرى ونصب وآلام... فلنكن شاكرين؛ إذ المرض قد داهمه داخل يثرب، لا في طريق العودة!.

«بعد أن ندبني والدي، سرت إلى يثرب بالمرقال، سيرًا حثيثًا، فاختزلت الطريقَ ليالٍ ثلاث، ثم وصلتها بعد خمس، والناقة قد تعرّقت عرق المدى وتحسّر عنها اللحم، فاضطررت أن أقف بها ريثما تستريح، خوفًا عليها من التلف والهلاك، وأنا على عجل واضطراب.

عرّجت هناك على حي بني قيله وقلعة بني النجار، وافتقدت عبد اللّه عند أكبر أخوال والدي، فلم أجد له أثرًا، ولا عينًا. لم يكن في داره سوى زوجه العجوز، دعتني إلى مخدعها لأستريح، جلست عندها، والقلق يساورني، والحيرة تداهمني».

قامت العجوز إلى إحدى الغرفات في خفّة غريبة على أمثالها تدعو بسبب كبر سنّها إلى الاستغراب، وأتت بحصيرة خوص لتبسطها في الشرفة، وتنصب عليها نمارق جلد، محشوة بالوبر. قالت، وهي تتوكأ على إحداها: اقعد يا ولدي لآتي إليك بشراب.

- شكرًا، يا زوج الخال، ما بي عطش.

أجال الحارث ببصره في الغرفة، مرتابًا متردّدًا، فسأل: ما لي لا أرى عبد اللّه، يبدو أنه غادر الدار بعد أن صاحبته السلامة





والعافية!

أجهشت العجوز فجأة بالعويل والبكاء...

فوثب الحارث من مكانه يصيح:

- ماذا حلَّ بعبد اللّه!؟

على عمود خشبي، انهارت العجوز بعودها ذاك المترهل، وهي تصرخ: مات عبد اللّه، يا ولدي، مات...

أخذ الحارث كتفيها مستنكرًا، ثم حملق في وجهها قائلًا: ماذا تقولين. عبد ال... عبد ال... مات... رحل... رحل!؟

- أجل، أجل، يا ولدي، قبل يومين، استدعينا له الطبيب اليهودي، لكن... دون جدوى، دون فائدة.

وأسفًا على ريحانة عبد المطلب... وأسفًا على برعمه المتفتت!! نعم، يا ولدي قد مات... قد مات عبد ال...! مات... مات.

يا لطول الشوق المضطرم، ولهفة العيون إليه!

الإرهاصات تموج، والكون في انتظار، وكل ما في الوجود من الأرض والزمان لا يقرّ له قرار. الحياة خاملة... هامدة. كلٌ في قلق وعناء، ذاك العزيز البارّ، وهذا الذليل المهان. الدنيا استحالت مزرعةً مجدبةً، رمضاء... ملتهبةً، عفاها الرماد. صلصالها الضامئ يجأر إلى السماء، متضرعًا، مبتهلًا، يتحرّق شوقًا إلى قطرات الرحمة ونداها، عسى أن تنبعث فيها من جديد الروح والحياة.

امتلأ كل صوب وحدب بأسباب الفساد، واستفحل التهتّك والتحلّل حتى في بطاح أمّ القرى ومدينة اللّه. صبح العابثين كان يتنفس في جنح الظلام الماجن، فترجّ أحياء مكة، مكة إبراهيم وإسماعيل بصارخ الأصوات، المدغدغة للشهوات، وتتراقص بنغماتٍ تتصاعد من الطنابير والدفوف والبرابط في مجالس اللّهو والطرب والغناء. وفي جوف الليل يجتاح السكارى الطرقات في مدينة الأمان، مدينة اللّه، بعريض الصياح والعربدة وبذيء الشتائم والسباب.

لم تكن الأصباح في مكة بأمثل من لياليها؛ فقد كانت تتوزع المدينة قصور وأكواخ. فئة قليلة تستأثر بمواهب مكة وثرواتها - مكة

مثابة التجارة في الجزيرة ومطمح التجار - وأخرى كثيرة تصارع الفقر وتعاني الحرمان؛ فتئد بناتها خشية عار... خشية إملاق.

في هذه الظروف العصيبة، كان البؤساء قد عقدوا الأمل على أمثال عبد المطلب؛ فهم النعمة وسبيل الخلاص، ومثله ملاذ المتحيرين، ومأوى المساكين. إلّا أنّ الظروف كانت حرجةً للغاية، ولا يمكن أن تستتب الأمور بجهود هذا وذاك، أو بمحاولات ينهض بها عبد المطلب وأمثاله، على أن الرجل كان صائنًا لنفسه، عظيمًا، قويًا؛ فالوجوه ناصبة، عليها غبرة، ترهقها قترة، وقد تقطعت بأصحابها السبل، يساورهم الخوف والرجاء، فيقلّبون الوجه في السماء، ثم يخفضون بالبصر الحائر إلى الأرض، يترقّبون المبعوث المنقذ، وذاك النداء السماوي. تُرى... متى... أين سيكون ذاك!؟

«كان عبد المطلب ومن معه على ملّة إبراهيم حنيفًا، لكن آخرين غيرهم كانوا يشركون باللّه، ويعبدون الأوثان. أما أنا وعدد قليل من أهل مكة، فكنا على ملّة عيسى المسيح.

في موسم الحج، إذ يتدفق الناس من كل فجّ عميق على مكة وأسواقها، كنا نحتشد في عكاظ[١] لنلقي السمع إلى القساوسة

---

(١) عكاظ: عكظ الرجل صاحبه إذا فاخره وغلبه بالمفاخرة، فسميت عكاظ بذلك. وعكاظ: اسم سوق من أسواق العرب في الجاهلية، وكانت قبائل العرب تجتمع بعكاظ في كل سنة ويتفاخرون فيها ويحضرها شعراؤهم ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرّقون، كانت العرب تقيم بسوق عكاظ شهر شوّال ثم تنتقل إلى سوق مجنّة فتقيم فيه عشرين يومًا من ذي القعدة ثم تنتقل إلى سوق ذي المجاز فتقيم فيه إلى أيام الحج، انظر: **معجم البلدان،** ٤/ ١٤٢.

والرهبان.

ذات يوم، قبيل عام الفيل، في عكاظ هذه، التقيت براهب واقف على صفّة، وقد التفّ حوله لفيف من الناس. كان كهلًا، مربوع القامة، أمرد، قد أسبل جدائل طويلةً، يتكلم العربية بلكنة رومية - شامية. في ملامحه ولحن قوله ما كان يشدّني إليه. التحقت بمن تحلّق حوله لأصغي إليه. كان بحرارة خاصة يقول: يا أيها الناس، إنني على علم بما جاء في اثنين وسبعين كتابًا سماويًا، ورد في كثير منها علامات خاتم الرسل.

ولقد كتب في الزبور: اللّهم، ابعث من يقيم السُنة، ويعلم الناس أن عيسى - سلام اللّه عليه - بشرٌ، وليس بإله من دون اللّه.

وفي الإنجيل، قال عيسى للحواريين: أنا أذهب، وسيأتيكم الفارقليط[١] مع روح الحق الذي لا يتكلم من تلقاء نفسه، ولكنه يكلمكم مما يسمع[٢].

يشهد لي الفارقليط كما شهدتُ له، ويوبّخ العالم على الخطيئة. ويحيي دين اللّه، ويجتلي الأسرار، ويكشف الغموض، ويفسّرها. أنا جئتكم بالأمثال، وهو يأتيكم بالتأويل.

قام رجل من بين القوم، سائلًا: وماذا عن التوراة، هل أخبرتْ عن صفته؟

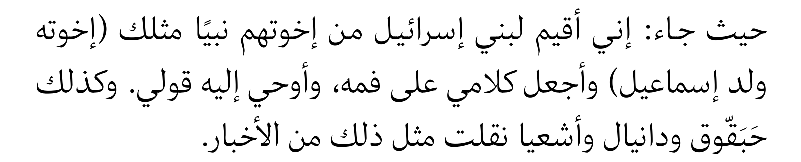
ردّ الراهب: أجل، يا رجل، إنه موصوف في السفر الخامس

---

(١) **كتاب الفتوح**، ٢/ ٣٢٦.

(٢) **بحار الأنوار**، ١٥/ ٢١٧.





حيث جاء: إني أقيم لبني إسرائيل من إخوتهم نبيًا مثلك (إخوته ولد إسماعيل) وأجعل كلامي على فمه، وأوحي إليه قولي. وكذلك حَبَقّوق ودانيال وأشعيا نقلت مثل ذلك من الأخبار.

- يا مؤمن، وماذا عن علاماته وصفاته!؟

- يقال إنه من أرض تهامة، يعرف بين قومه العرب بأحمد، ويدعى كذلك محمدًا وياسين، ومثلهما من الأسماء. أنجل العينين، أدعج، مقرون الحاجبين، بين كتفيه شامة أو خاتم كلون الخزّ الأدكن. هو أحب خلق اللّه إليه.

وفي كتاب دانيال: أنه لم تنزل الملائكة على نبي قط لحظة الولادة إلّا على عيسى وأحمد.

في ليلة ميلاده، تزدان الجنة بسعتها، ثم يناديها منادٍ: بشراك اليوم، اهتزي واطربي؛ فإن نبي أوليائك قد ولد، فتبتسم الجنة ضاحكةً، بل لا تفارقها البسمة حتى تقوم الساعة».

«ذات يوم أسرَّ إلي زوجي، سراقة بن جُعشم - من تجار مكة - حديثًا استكتمني إياه، قائلًا: في رحلتنا هذه إلى الشام، التقيت براهب يعتزل الناس في شعاف الجبال، عاكفًا على عبادة اللّه ولمّا استقرّ بنا الركب في السفح، عزمت وثلاث من الرفقة أن نلتقي به ليقصّ علينا بعض الحكايات. وإذ تكشّف للراهب بغيتنا، تساءل: من أين أنتم؟

- مكة.

- سيبعث منكم رسول يهدي الناس سواء السبيل، فهلّموا

إليه منقادين إن صدع بالرسالة.

- وما اسمه؟

- محمد.

تَركنا الراهب فعاد إلى محرابه.

ليلتها، عقدنا العزم جميعًا أن نسمّي وليدنا - إن رُزِقناه - محمدًا، عسى أن يكون المبعوث من نسلنا نحن».

«في فترة حمله، أتاني آتٍ في المنام، فقال: إنك قد حملتِ بسيّد هذه الأمة، فإذا وضعتِه، قولي: أعيذه بالواحد من شرّ كلّ حاسد، وسمّيه محمدًا».

«بينا أنا نائم في الحجر، رأيت في المنام أن شجرةً قد نبتت مني، فنال رأسها السماء، وضربت بأعناقها المشارق والمغارب، ورأيت نورًا منها يزهر، خرّ له العرب والعجم سجّدًا، ثم رأيت رهطًا من قريشٍ يريدون قطعها، فإذا دنوا منها، منعهم شاب وسيم وقور. لمّا رفعت يدي لأتناول ثمرةً منها، صاح بي الشاب: مهلًا، ليس لك منها نصيب، فقلت: لمن النصيب، والشجرة مني!؟

قال: النصيب لهؤلاء الذين قد تعلّقوا بها. فانتبهت مذعورًا!

خرجت، فرآني كاهن، وأنا فزع، متغير اللون، فسألني، متعجبًا: ما شأن سيّد العرب، متغيّر اللون؟

قصصت عليه رؤياي، فتغيّر لونه وامتقع، ثم قال: لئن صدقت ليخرجنّ من صلبك ولد يملك الشرق والغرب، وينبّأ في



الناس فيدخلون في دينه.

تسرّى عنّي الغم، ثم تصوّرت أنه سيكون من نسل ولدي أبي طالب».

«رأيت ليلةً في المنام أنني وضعته، فإذا مخاضي الخفيف يثير فيمن حولي من النساء الدهش والعجب، فأخذن يتساءلن: كيف لا يتملك آمنة الطلق والوجع مثلما يتملك الأخريات!؟ عندها استيقظت...

وفي ليلة ثانية، كأن آتيًا أتاني، وهتف بي: قد حملتِ بخير الأنام، فإذا وضعتِه، فسمّيه محمدًا، ثم عليك بالكتمان!

فزعت من النوم، ولمّا يتخلّ عني الهاتف».

«لم تشعر سيدتي بالحمل، ولم يصبها ما يصيب النساء من الثقل وأوجاع الظهر، وضيق النفس والوحام. بين ليلة وضحاها تغيّر وضعها: تألّقت عيناها نورًا، وانطوت أشجانها التي لم تكد تفارقها بعد أن فقدت زوجها».

«في منتصف ربيع الأول[1]، وفي هزيع من الليل، كنت في الغرفة وحيدةً. الغرفة كانت في الزاوية القصوى على اليسار من الفناء، وأنت داخل الدار. فجأني المخاض، وسمعت جلبةً وكلامًا لا يشبه كلام الآدميين.

ساورني قلق ورعب شديد، فإذا طائر أبيض يدخل عليّ، وينشر جناحه حولي، ويمسح به فؤادي؛ فذهب عني الروع. وبينما كنت كذلك، دخل عليّ نسوة ثلاث كالنخل طوال، كأنّ الشمس تطلع من وجوههن. يفوح منهن رائحة المسك والعنبر، عليهن ملابس زاهية، فاخرة، ليس لها مثيل. مدّت إليّ إحداهن كوبَ بلّور، يطفح بخمرة بيضاء، سائغة كشراب الجنة. ما إن شربته حتى أضاءني، بل علاني نور ساطع، وضياء لامع.

---

(١) ورد في **أصول الكافي** من مصادر الشيعة الأربع بعد القرآن ونهج البلاغة: ولد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ أيام التشريق (الثاني عشر أو الثالث أو الرابع عشر)، بينما يرى عدد آخر من علماء الشيعة أن ولادته كانت في السابع عشر من ربيع الأول. ويذهب علماء أهل السنة والجماعة إلى أن ميلاده صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَآلِهِ كان في الثاني عشر من هذا الشهر. [الروائي]. **أصول الكافي**، ٢/ ٣٢٣. [المعرّبة]

في تلك الحال الغريبة، بين النوم واليقظة، أحسست أنهن أخذن بي إلى الفراش لأتمددّ فيه، ثم هنأنني بالوليد.

ظننت أنهن من الهاشميات، ثم تبدّى لي أنهن حوريات، بل تمثلن لي مريم بنت عمران، أو آسية زوج فرعون، أو هاجر أم إسماعيل...».

«قال لي حسّان بن ثابت: لمّا كنت غلامًا يفعة، ابن سبع سنين، رأيت ليلةً في يثرب يهوديًا، يرتقي شرفةً ويصيح بأعلى صوته: هبّوا يا يهود؛ فقد بزغ نجم أحمد[١].

سبق أن أخبرنا يهود يثرب أن نبيًا سيظهر بين ظهرانينا نحن العرب في هذه المدينة. وكانوا يقولون: إنكم أول من يؤمن به ويؤويه، وبذلك فضلّتم على العرب جميعًا».

«كنت طويل السرى في الصحراء. وفي ليلة ميلاده خرجت من الطائف في حاجة، فرأيت النجوم تتألق في قوة، لم أرَ لها مثيلًا. كأن السماء دنت من الأرض، بل أطبقت عليها. وكأن الكون كله قد تلحّف بحرير من نور سماوي. وهمسات غريبة ملأت الكون والفضاء، بما فيه من الصخر والحجر، الشوك والقذى...».

«إبّان ميلاده، كنت في تجارة ببلاد فارس، فسمعت أن إيوان كسرى ارتجّ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وتناقلت الأنباء أن قد خمدت نيران المجوسية بعد ألف عام. هال ذلك كسرى، فبعث

---

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٥٩. [المعرّبة]

من فوره رسولًا إلى اليمن ليستعبر كهنتها العرب الرؤيا[١].

كان على أرض اليمامة آنذاك كاهنان عظيمان، ربيعة بن مازن، عُرف بسطيح لخلقه ونشأته، ووشق بن باهلة اليماني. كان سطيح أعلم من وشق إلّا أن في تكوينه ما يثير العجب؛ فلاكت الألسنة قصصه، وتداولت حكاياته؛ خلقه اللّه قطعة لحم بلا عظم سوى جمجمة رأسه فلم يُر إلّا ملقى على ظهره، ولا يتحرك منه غير عينيه ولسانه. وإذا أرادوا أن يحملوه إلى موضع، كان يطوى كما تطوى الثياب، ثم ينشر على زنبيل أو حصيرة. لم يكن ينام الليل إلّا لمامًا بل كان يتشاغل في تصفّح السماء... وإذا استعصى على الملوك والأمراء أمرٌ، استدعوه ليتكهن المستقبل، ينبئهم بالأسرار ويكشف لهم غوامض الأخبار. فرأى أمراء اليمن أن يستفتوه في الرؤيا، إلّا أن سطحيًا كان حينئذٍ في الشام، فأوفدوا إليه من يتصل به في سرعة ليقصّ عليه المنام ويستعبره.

بادر سطيح إلى الموفد بالتعبير قبل أن يقصّ عليه الرؤيا؛ إذ كان عالمًا بمكنون الأسرار فقال: إني أرى أمرًا جليلًا وخطبًا عجيبًا، يملك من الأكاسرة بعدد الشرفات المنهارة، وتكسد سوق المجوسية، إذا كثرت في البقاع التلاوة»[٢].

---

(١) **الأخبار الطوال**، ص ٥٤. [المعرّبة]

(٢) **الإصابة فى تمييز الصحابة**، ٦/ ٤١١؛ **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، ٤/ ٦٠٦. [المعرّبة]

مضت سبع ليالٍ على وضعه، فأولم عبد المطلب - على عادة العرب - وليمةً عظيمةً، نحر خلالها الإبل، وذبح الأغنام، ودعا إلى المأدبة أهله والسراة. وكذلك كان من دأبهم أن يُعلن اسم الوليد في المأدبة وعلى رؤوس الأشهاد ليطّلع الجميع بعد ذويه وأهله على تسميته.

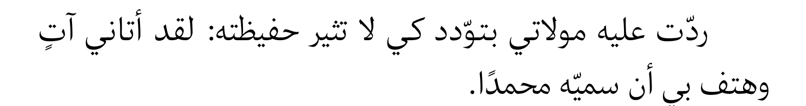
«ولد محمد عند الفجر، فأمرتني مولاتي بقولها: يا بركة، إذهبي إلى عبد المطلب وبشّريه!

وجدت سيّدي في الحرم يطوف الكعبة، فلمّا بشرته، أكرمني بمسكوكة ذهبية، ثم انطلق إلى دار مولاتي يسعى.

رفع الطفل من المهد بشوق ولهفة، واحتضنه ثم أخذ يشمّه ويقبّله، ذارفًا عليه العبرة، وهو يقول: حمدًا لك يا ربَّ الكعبة؛ فقد وهبت ابني عبد اللّه من يرثه. ربِّ ما ألطف هذا الطفل وما أحبَّه!

ثم أوعز إلى مولاتي أن سميّه قثمًا.

لم يكن سبب هذا الاختيار بخافٍ علينا؛ فعبد المطلب كان يستشعر دومًا عظيم فقده لابنه قثم الذي مات عن ستة أعوام، فأراد بتسميته أن يحيى ذكراه.



ردّت عليه مولاتي بتوّدد كي لا تثير حفيظته: لقد أتاني آتٍ وهتف بي أن سميّه محمدًا.

حمل عبد المطلب الوليد على ساعده، ثم رنا إليه لحظات، بعطف وحنان وضمّه إلى صدره وقال: عسى أن يُبعث بقية عبد اللّه - بالاسم هذا - مقامًا محمودًا!».

ها قد آن الأوان، بعد سبعة أيام، ليعرض الطفل على الناس ويعلن عن اسمه. أمر عبد المطلب بركة أن تحمل إليه الولد بعد أن انفض الناس من تناول الطعام، ثم طاف به على القوم، وعرضه عليهم، فألقوا عليه نظراتٍ ملؤها الحب والوئام.

قام شيخ سائلًا: ماذا سميته يا عبد المطلب؟

- محمد.

- كيف سميته محمدًا، ولم يكن له من قبل سميًا!؟

همّ عبد المطلب ليفشو السّر ويقصّ رؤيا كنته، آمنة، لكن سرعان ما تراجع، فقد كان عليه الكتمان. ففكّر هنيهة ثم قال: سميته محمدًا ليحمد اللّه في السماء، ويحمد خلقه في الأرض[١].

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ٢١٠.

«عرفت قبيلتنا بين العرب بالفصاحة والشجاعة؛ فكان سراة قريش إلينا يرسلون صغارهم، وفي ذلك حظٌّ لنا من المال.

في السنة تلك حبست السماء عنّا قطرها؛ فألقت عشيرتنا رحلها عند حي من أحياء الطائف - حيث مرابعها السنوية ومصايفها - وفي كل فجر، كان القطيع ينثال على مراتع القبيلة، لكنه يعود في الليل عجافًا ناضبًا، خمص البطون يعلوه الزبد. حرن بعض المواشي ومات، فنحرنا الباقي خوف الهلاك. كان عامًا قاسيًا عُصر فيه الناس، واصفرت الجوالق من الحبوب والحنطة والشعير، ولم تكد تنصب المراجل والقدور، وشارف على الموت المرضى، الصغار منهم والشيوخ، وذبلت ثلة أخرى هزالًا نحولًا.

كان ابني ضمرة رضيعًا، وليس في ثدييَّ ما يسمنه أو يغنيه من جوع، فقدمتُ به مكة في نسوة، يرافقنا زوجي الحارث».

«ركبت حليمة مع ضمرة حمارةً بيضاء، وأنا امتطيت ظهر شارف[1] من النياق ثم قصدنا مكة، نلتمس الرضعاء من أبناء

(١) الشارف من النوق: المسنة. [المعرّبة]



الشرفاء[١].

قد مسَّ حليمة الضرّ والنحول بعد أن اشتدت عليها القحط والجدب. هزلت أتانها، فبدت منها العظام رأي العيان، وارتعدت حمارتها الناهكة رعدتها الراجفة؛ فأخذت تترنّح يمنةً ويسرة، وتتعرج متعثّرة، تكاد إثرها تخر على الأرض للجران.

أنى نكلؤ رضيعًا من أبناء الموسرين ونرعاه، ونحن على ضيق الحال، وشدة العوز إلى رفد الآخرين!؟ لم يكن همّنا آنذاك إلّا أن نتبلّغ بما يسدّ الرمق.

أخذت أنسام الربيع العليلة تهبّ مع المساء الهابط، فبتنا الليل على قارعة الطريق، قضيناها ليلاء ثقيلة، بعيدةً ما بين الطرفين؛ إذ كان ضمرة يصرخ في غير انقطاع، ويبكي في غير هدوء لشدة ما مسّه من ألم الجوع، وثدي حليمة الضامر لا يبضّ بما يبلّ ريقه.

كان ضمرة منذ يومين مؤرّق الليل، قلق النهار، لا ينقطع له نحيب، فرقّ لجزعه قلب حليمة والرفقة من النساء، واخضلت الأحداق من العبرات.

كان النوم يخاصم عيوننا حتى الفجر، وضمرة لا ينفك يصرخ ويصيح فحلقتُ حوله، وطفت بحليمة، وأنا في أنة وحيرة، أكفكف الدمع وأصعّد الزفرة.

---

(١) **المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك**، ٢/ ٢٦١؛ **وأسد الغابة**، ٦/ ٦٧ - ٦٨. [المعرّبة]

لمّا انطلقنا مع الفجر، غطَّ ضمرة بحجر أمّه في النوم، إلّا أن أتان حليمة جمحت من الجوع، فلم تفتأ تتخلف عن الركب؛ إذ لم تقوَ على النهوض بعد البرك، ولا على السير بعد القيام.

وأخيرًا حثّ الركبُ الخطى، وتركنا وراءه».

«في طريق العودة من الحرم إلى الدار، لفت بصري نفر من نساء البادية مجتمعات عند مدخل بني هاشم في السوق. أخبرني التجار أنهن من بني سعد بن بكر بن هوازن، يلتمسن الرضعاء، فتبادر إلى ذهني، حفيدي الرضيع، محمد.

كان الربيع على أعتاب الرحيل، وأوشكتْ بقاع مكة أن تضطرم من شدة القيظ، فتتدهور أجواؤها، ثم إن تنشئة محمد بين بني سعد سيكون أجلد لجسمه ومبعث قوة له ومصدر منعة لمستقبل أيامه.

أقبلتُ على النسوة متسائلًا: من منكن تتكفل حفيدي اليتيم؟

أطبقن جميعًا الجفون، ثم قالت إحداهن: ماذا عسى أن يصنع اليتيم، والمعروف لا يرجى إلّا من الآباء!؟

ثم برزت إليّ امرأة ممشوقة، سمراء، عليها أسمال بالية، في محياها أثر الطهر والكرامة. لكنها كانت كمن رمته يد الدهر، فذلّ بعد زمانٍ من العزّ، كانت لينة العريكة، دمثة الأخلاق، يموج في عينيها المشرقتين الشفقة والحنان، راكبة حمارة قمراء، وبين يديها طفل صغير.

لمّا دنت مني، خاطبتها هي أيضًا كما خاطبت أترابها، فردّت

عليّ ردهن ثم أضافت: يا سيدِ، كفاني عيشي البائس، وما أنا عليه من الضنك والعوز!».

«شاء القدرُ أن أتكفّله، فيتضح جليًا أننا كنّا على خطأ.

بعد ساعة من زوال الشمس عن كبد السماء، بلغنا مكة على ظهر الأتان العجفاء، فوجدنا جلّ صواحبنا من نساء القبيلة قد أخذن رضيعًا، فنلن بذلك البرّ.

ما إن مضت ساعة، وامتدّ الظل، حتى احتضنت كلٌّ رضيعها، بيد أنني رجعتُ صفر اليدين، أجرّ ورائي أذيال اليأس والخيبة.

وإذ أزمعت نساء القبيلة على العودة، التفتُ إلى زوجي، قائلةً: يا أبا ضمرة، عار علينا ومنقصة أن نرجع دونهن بغير رضيع، ألا يثير ذلك في القوم العجب العجاب، فيظنون فيّ الظنون، ويقولون: ما بال حليمة عادت بخفي حنين!؟

قال: هو كذلك، لكن هل في اليد حيلة؟

سألته: ألا نعود إلى ذاك اليتيم!؟

ردّ الحارث، متعاطفًا: على كل حال، لا أرى بأسًا في ذلك!

نقبنا عن دار الرضيع بين الدور، حتى وجدناه. فوضعت ضمرة في صندوق خشبي وأودعته محمل البعير، وسلّمت الرسن إلى بعلي، ثم طرقت الباب وأنا مترددة، أقدّم رجلًا، وأؤخر أخرى.

فتحت البابَ جارية ضخمة، فعرضتُ عليها بغيتي ثم انسحبت إلى الداخل فرجعتْ إليّ بعد هنيهة لتأذن لي بالدخول.

دخلتُ، فرأيت الموضع نظيفًا... أنيقًا».

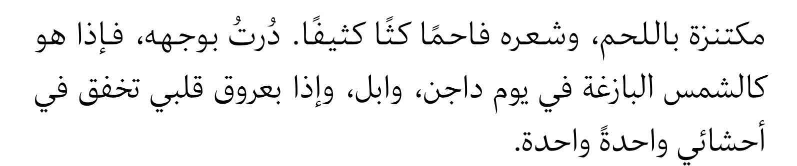
لم يورث عبد اللّه زوجه آمنة دارًا كبيرةً واسعة. كان يبلغ المكان من الطول أربعةً وعشرين ذراعًا، ومن العرض اثني عشر. فناؤه مفروش بحجر مسطح، أسود ورمادي اللون، وكأن جدرانه قد طليت بالجص حديثًا. أمام المدخل غرفتان في اتجاه الكعبة، على اليمين غرفة كبيرة تعلوها قبة مستديرة، وعلى اليسار حجرة صغيرة رفعت على أعمدة من الخشب. الشبابيك خشبية، مطلّة على الفناء. للغرفة الكبيرة نوافذ ثلاث وللصغيرة نافذتان، كلٌّ في مصراعين أخضر اللون كسعف النخيل.

ارتقت حليمة سلّمين حجريين منخفضين، ثم دخلت الغرفة الصغيرة. كان داخلها أجمل من خارجه: فُرِش ببساطين من بسط العرب، عليهما نقوش بارزة، وتصاميم زاهية، أصفر، أحمر، أسود. والجدران مجصصة.

في زاوية من الغرفة، مهد من الجلد، جسادي اللون، قد رزّ في الحائط بمسمارين، يهتز بهدوء، مصرصرًا، تدلّت عليه مظلة وردية، كأنها مروحة، تتراوح يمنةً ويسرة على الرضيع النائم.

استقبلتها امرأة ممشوقة، عليها ابتسامة كانت حسنة الهندام، طلق الجبين، بخدود تبدو بارزة، وشفاه خفيفة دقيقة، وبشرة شفافة مشرقة. وعيون شهلاء نجلاء حنون، عشعش فيها حزن وكآبة عميقة.

«ردّت علي تحيتي ثم جلستُ، فقدّمت إليّ الجارية قدحًا من بارد الشراب. دعتني بعدُ إلى الرضيع النائم في المهد على صدره، بثياب أنصع من اللبن. بدت لي صفحته. كانت خدوده



مكتنزة باللحم، وشعره فاحمًا كثًا كثيفًا. دُرتُ بوجهه، فإذا هو كالشمس البازغة في يوم داجن، وابل، وإذا بعروق قلبي تخفق في أحشائي واحدةً واحدة.

قد تخددت أساريره على الوسادة في نعومة واحمرّت. كانت بشرته ناصعةً مشرقةً، وضّاحةً، مشربةً حمرة، وشفاهه كشفاه أمه لطيفة، دقيقة.

تمنيّت أن أضمّه إلى صدري وأقبّله، لكن نفسي لم تطاوعني لأوقظه.

جعلتُ يدي على صدره؛ فارتسمت على وجهه ابتسامة حلوة، ثم فتح عينه النجلاء، فسطع من أحداقه الفاتنة نور كبرق يخرج من بين السحاب. نظرته ملأت فؤادي حرارةً... حنانًا... وحبًّا. تعالت منه الضحكات والقهقهات لما التفت إلى حالي هذه، فأخذ يلوح إليّ بيديه ورجليه الصغيرتين.

قبلّتُ ما بين عينيه، ثم تساءلتُ: ممن كان يرتضع؟

أجابت المرأة بلهجة آسرة: أرضعته أنا في الأسبوع الأول، ثم أخذ يرتضع من ثويبة، مولاة عمّه أبي لهب.

(أخبرتني فيما بعد بركة - مولاة آمنة - أن ثويبة هذه كانت ترضع حمزة عمّ النبي أيضًا، فأنكرت عليها أم جميل عملها ومنعتها).

أخذته من المهد، فضممته إلى صدري».

«انطلقنا إلى السوق بما أغدق علينا جدّ الرضيع من الدراهم والدنانير، ثم قرّرنا عصرًا أن نعود إلى مضاربنا مع نسوة القبيلة».

يمرّ الطريق بين مكة والطائف عبر بطاح وبضعة منعطفات، ثم يلتقي بشعاف وسلسلة من الجبال، يتحول بعد في الروابي إلى منعرجات حصباء لا يمكن تسلقها إلّا بشقّ الأنفس والأرواح.

الطريق الملتوي هذا - يا للعجب - طوته حمارة حليمة طيًّا على أنها هي والدواب لم تعتلف بما يغنيها من جوع. أثار ذلك دهشة الصواحب، فتعالت منهن الأصوات حتى بلغت كبد السماء، فهتفت إحداهن: ويلكِ يا حليمة، أليست هذه أتانك الناهكة التي لم تكد تقوى على السير!؟

وصاحت أخرى: يا بنت أبي ذؤيب، تمهّلي، أربعي علينا!

«والأغرب من ذلك، عشية ذلك اليوم، إذ بتنا في بعض الطريق، وقد ساورتنا هواجس ليلة تنغّصها آهات اليتيم وأنّاته وجوع ضمرة وصرخاته. ما هي إلّا ساعة حتى أجهش ضمرة بالبكاء فألقمته ثديي تعلّةً، بل خداعًا، عسى أن يهدأ، لكن - يا للدهشة - درّ صدري درًّا غزيرًا غصّ به ضمرة.

انطلقت في عجب وحيرة لأخبر الحارث، فإذا هو يسبقني بالهتاف: حليمة، معجزة... معجزة، ضرع الناقة ممتلئ... حافل!

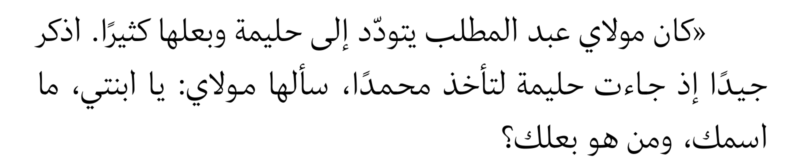
لم أكد أصدقه؛ فحمل إليّ قدحًا طافحًا من اللبن العاجي اللون، شربته فصدقته وآمنت بما ادّعى».

«سبق أن أخبرتُ حليمة أنني ضقت ذرعًا بفراق حفيدي، وكذلك كان شأن آمنة، فهي التي تصدّعت بعد موت عبد اللّه كمدًا وحزنًا، ولم ينقطع لها نحيب ولكنها الآن امتلأت اطمئنانًا وثباتًا مما سمعته عن ابنها في المنام، وانهار جبل أشجانها بميلاده، فصارت كجليد لامس نارًا، فذاب دفعةً واحدةً وانصهر، إلّا أن وطأة الحنين، وتباريح الشوق اشتدت عليها شيئًا فشيئًا بعد أن أودعت الرضيع إلى حليمة.

ولمّا تناهى الخبر إلى مسامع المرضعة، عاهدت نفسها - لفترة ما - أن تحمل محمدًا إلى مكة، كل شهر مرة».

«دفعتُ الرضيع إلى حليمة غير كارهة؛ فقبيلة سعد عرفت بين العرب بالشجاعة والفصاحة وجمال اللغة وسلامة النطق وبلاغة البيان، ثم إن جوّ البادية على جفافه وحّر نهاره أصح وأنقى.

بما أن مكة - كما يعرف - أرض منبطحة، تحيطها ربوات منخفضة، فإنها - إذا قهرتها الحرارة بلظاها - شكت وباءً وتلوثًا خطرًا على الصغار والرضعاء، ثم إن النشأة في رحاب البادية أصلح لنموّ الأطفال، وتفتّح مداركهم، وأحسن أثرًا في شجاعتهم. لكن أين كل ذلك من حديث شوقي وحنيني...».



«كان مولاي عبد المطلب يتودّد إلى حليمة وبعلها كثيرًا. اذكر جيدًا إذ جاءت حليمة لتأخذ محمدًا، سألها مولاي: يا ابنتي، ما اسمك، ومن هو بعلك؟

أجابت: أنا حليمة السعدية ابنة أبي ذؤيب، وزوجي الحارث بن عبد العزى بن رفاعة السعدي.

ابتسم مولاي، وقال بأريحية ودماثة: من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن الشجاعة!؟ ثم أضاف: خلّتان حسنتان: سعد وحلم، فأل مبارك[١]. أرجو أن يحظى رضيعنا بين يديك بجميل الخصال!

وفيما بعد، سمعنا بعض النسوة بمكة تقول: إن حليمة من أسرة شريفة عريقة، وقد عرفت هي أيضًا بين قومها بالحكمة والعفاف والفصاحة».

«طالما أرضعتُ من أبناء الشرفاء بمكة، وكم كنت أمنح الصغار المودة، إلّا أن لهذا الرضيع عندي موقعًا خاصًا؛ فمنذ التقت منا النظرات، وابتسم في وجهي، داهمني - من حيث لا أشعر - حبّه، وتعلّق به قلبي. ولمّا لمست البركة ونالني منه اليمن، زدت شغفًا إلى شغفي. كان حنوي عليه حنوًا عظيمًا فساورني القلق على ضمرة، وخفت أن أتغافل عن رعايته وأقصّر في الحنان عليه.

ما كلفتُ به أنا فحسبُ، بل شغف به زوجي الحارث، وكثير من النسوة في القبيلة حتى صغارهن. أمّا ابنتي خذامة أو الشيماء - كما غلب ذلك على اسمها - فقد كانت آنئذ في ربيعها الثامن،

---

(١) **السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون**، ١/ ١٤٧. [المعرّبة]



هامت به وعشقته، وصارت خير عون لي في الحدب عليه والقيام بشؤونه».

«لقد كان يشقّ على الوالدة أن تقوم بأعمال الدار وحدها، فتطبخ وتغسل وتحلب وتغزل وتحوك السجاد، وتكنس وترعى الطفلين معًا وترضعهما في آن واحد. كان أخونا القرشي هادئًا، فآثرتُ رعايته والاهتمام به، فكنت آخذه من أمي عن طيب نفس».

«لم أتكلف عناءً، ولم أتلق مشقة في تربيته، كما تلقيتها في تربية أولادي. شبَّ شبابًا لم يشبه بقية الغلمان؛ فسرّ ذلك أمه وجدّه سرورًا عظيمًا.

لقد كان - منذ فترة الرضاعة - على طهر لم يسبق له مثيل، ولم ير له بعدُ نظير. وعلى أننا كنا نعنى به حق العناية، لكن شتان ما بينه وبين أمثاله من الرضعاء: لم تنفك تفوح رائحة ذكية من جسمه، فإذا ضممتهُ إلى صدري أخذت أشمّه هنيهةً كي تنتعش روحي.

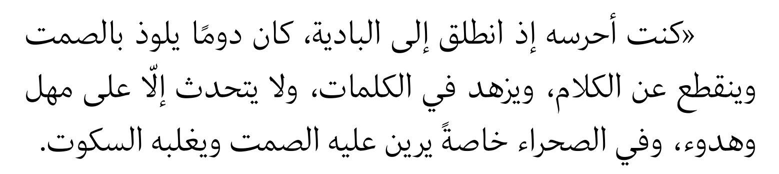
كان دومًا على طهر ونقاء، فلمّا اشتد عوده، لم يصبح على رمص وغمص[١] كما كان كثير من الصبيان يصبحون.

لم أنس ما قالته لي يومًا الشيماء: كأنّ أخي القرشي يقوم من نومه مغسول الوجه، صقيلًا!

كان الأطفال يتخالسون الفطور إلّا محمدًا، فلم يكن ليبسط يده إلى طعام أحدهم أبدًا».

---

(١) الرمص والغمص: وسخ أبيض في مجرى الدمع من العينين. [المعرّبة]



«كنت أحرسه إذ انطلق إلى البادية، كان دومًا يلوذ بالصمت وينقطع عن الكلام، ويزهد في الكلمات، ولا يتحدث إلّا على مهل وهدوء، وفي الصحراء خاصةً يرين عليه الصمت ويغلبه السكوت.

يلعب معنا، ثم يتحول إلى زاوية معتزلًا. فيمدّ البصر إلى البعيد، إلى السماء. ولمّا كنا نبيت خارج المضارب بالحيّ، كان يطيل النظر إلى السماء، إلى القمر والنجوم، حتى يغالبه النوم والرقاد.

وفي الصحراء، ذهب ذات مرة ليتسلق الجبل وحده، من دون أن يحيط الآخرين به علمًا، فظن ضمرة أنه قد ضاع، فأقبل على الحّي، مسرعًا ليقصّ عليهم ما جرى وحدث.

انطلقت أمي نحو المرتع من فورها، فرأته جالسًا على شاهق، وقد حدّق في السماء. أقبلت عليه وضمّته إلى صدرها، وقبّلت بين حاجبيه، فعادت به إلى المضارب من دون أن توبّخه أو تؤنبه».

«لم يكن يطيب لي أن نردّ محمدًا إلى أمه. فطالما تداولنا الحديث - أنا وحليمة - عمّا أفاض علينا محمد من اليمن والبركة؛ فمنذ قدومه، أخصب عيشنا، فرقّ وطاب وازدادت الإبل، ودرّت الأنعام، وانقشعت عن فساطيطنا... مضاربنا غيوم الضنك والشقاء، وشعشعت علينا شمس السعادة والهناء.

لكن ما باليد حيلة؛ فليس كل ما يتمنى المرء يدركه، ولا الفلك يدور بما يتمناه!».

«كان الحارث يعرف حق المعرفة أنني أشد منه رغبةً في إبقاء محمد... لكن يا للأسف يبدو أن حظّنا من الرضيع ليس أوفر مما سعدنا به!

ولمّا كان في الرابعة، حملتهُ إلى أمه بعد أن جَهّزته: غسّلته ودهّنته وكحّلته ثم ألبسته سربالًا ناصعًا وحذاء جلد ذا سيور. وإذا أردت أن أعود به من مكة، أشارت عليّ آمنة أن أتركه عندها، ولا أحمله بعدُ. انبهتُ مستغربةً وامتقع وجهي واغرورقت عيناي؛ فلم أر بدًّا إلّا أن أتذرّع بذريعة الوباء الساري في مكة آنذاك، فداخل آمنة الذعر والخوف؛ ولم تعد تلّح على رغبتها، وتصرّ...



عدت بمحمّد إلى خيامنا في غبطة وسرور، ثم بقي بين ظهرانينا بعض الوقت حتى جرى له ما جرى من عجيب الحوادث وغريبها؛ فتملّكني الرعب والقلق».

«قبل أن يستوي ضمرة على الساق؛ فيدبّ ويدرج، كنا - أنا وأختي أنيسة - نتناوب الخروج إلى المرعى بما كان عندنا من الماعز والشاء. وأحيانًا كثيرةً كان ضمرة في رفقتنا. فإذا انهمكت أمي بشؤون الدار، تركت أخانا القرشي بين الصغار.

ما كان محمد يقف مع الصبيان في لعب، بل كان يتفرّج عليهم، أو ربما كان يبحث عنّا أنا وأنيسة وضمرة بينهم، فلا يجد لنا أثرًا.

وذات مساء رجعنا إلى الحيّ، فانخرطنا معه في اللعب، فالتفت إلى أمي، قائلًا: أماه، لِمَ لا أرى إخوتي بالنهار؟

ردّت عليه والدتي بالقول: بأبي أنت وأمي، لأنهم يرعون الغنم آنذاك.

قال محمد: ولِمَ لا أخرج معهم؟

أجابته: كي لا تحترق بلهيب الشمس، يا ورق الورد؟

عبس محمد بلطف، وقال: ألا يحترق أخوتي بلهيبها!؟

ضمّته أمي إلى صدرها وقبّلت منه الوجنتين.

ومنذ ذلك الحين، إذ كان يحين دوري للخروج إلى المرعى، كانت أمي تعدّه وتدهّنه؛ لينطلق معي إلى الصحراء مفعمًا بالسرور

والارتياح، حتى إذا حلّ الغروب، رجع معنا طلق الوجه، منبسط الأسارير.

وفي مرة من المرات، رجعتُ إلى الحيّ في شأن ما، وخلّفت وراءي محمدًا وأنيسة وحدهما في الصحراء. وإذا أردت العودة، أقبلت أنيسة - وقد كانت في الثامنة - فزعةً، ملهوفةً، تصرخ: أماه... أماه أدركي أخي القرشي... أدركيه... قتل... قتل...

سمعت حليمة الصراخ فخرجت مسرعةً... مضطربة الكيان، وهي تصيح: متى... أين... وفيم كنتم...!؟

انعقد لسان أنيسة، واحتبس، فجرّعُتها شربة ماء، والدموع تنهمر من عيني... فلمّا سكن جأشها قليلًا، قالت:

كنا جلوسًا. في الصحراء. تحت نبتة. فإذا رجلان ضخمان لا مثيل لهما، برزا ببيض الثياب، فانطلقا بأخينا القرشي نحو ربوة، دون أن ينبسا بكلمة، وأنا أنظر إليهما واجمةً مبهوتة، فرأيت من بعيد أن أحدهما بطح محمدًا للقفا، وأتى الثاني بسكينة، فشقّ بها صدره، واستخرج قلبه، وأخرج منه مضغة، ثم قذف بها، فغسّل الآخر القلب في طست مليء بشيءٍ ما، أبيض - كأنه ثلج كما يسمّى - ثم ردّه إلى حيث كان. ولمّا ثاب إليّ الوعي، وليت وجهي نحو الحي، مصطرخةً... مستغيثة...».

«كنت قد رجعت لتوّي من الطائف، إذ سمعت عويلًا ونواحًا يتعالى من خبائنا وفساطيطنا. فمضيت مهرولًا... مرتبكًا، فرأيت حليمة قد شقّت الجيب، ونثرت الشعر، وخدّشت الوجه، فأسالت منه الدماء، وكانت على رأسها تحتُّ التراب، وتعدو في الصحراء



صارخة: واولـداه... واقرة عيناه... واثمرة فـؤاداه... وامحمداه... ارحـم المسكينة، أمـك... أين أنت يا ولـدي... تعال إلـيّ... لم لا أراك... تعال... ابرز إليّ... رُد عليّ يا حبيبي الصغير لِمَ لِمَ لا تردّ... لِمَ...!! فخرجت النسوة إثرها نحو البّر، ضارعات... نائحات...».

«وصلنا إلى المرعى، فإذا محمد هناك، رابط الجأش، يمسح بيديه على ظهر جَـدي أبيض، محملقًا فينا. طرت إليـه مبهوتةً وانكببت عليه، أضمّه وأقبّله، فكشفت عن بطنه وصـدره، فلم أرَ فيهما أثـرًا للدم! التفت إلى أنيسة، ساخطةً: كيف كذبت على أخيك؟

آلت يمينًا أنها لم تكذب قط»[١].

«حملت محمدًا على كتفي، ورجعت به إلى الحّي، حيث احتشد القوم يتداولون أمره ويتساءلون عن النبأ الغريب. قصصنا عليهم القصة، فقال طاعن منهم في السن: قد أصاب الغلام طائف من الجن، وسيمسّه لَمَمٌ أو جنون، اذهبوا به إلى كاهن حتى ينظر فيه ويداويه. أدلى الآخرون أيضًا دلاءهم وأيّدوا ما ذهب إليه العجوز. فانطلق لسان حفيد عبد المطلب ولهج بالحديث في لين،

---

(١) ارتاب نفر من علماء الشيعة في صحة الحادثة. لكن معظم تواريخ الشيعة والسنة قد نقلتها. أورد أحد المؤرخين أن بعض الصحابة استفسر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَآلِهِ عن أسرارها، فردّ عليه قائلًا: «الرجلان المدّثران بالبياض هما جبرائيل وميكائيل، والطست كان مليئًا بثلج الرحمة، وقد غسّلا به فؤادي، والمضغة السوداء التي قذفا بها، هي منفذ الشيطان، منها يتغلغل إلى قلوب الناس دوني، فأنا لم أكفر قط، ولم أكن أبدًا نهبًا للظنون والفتن والشبهات». [الروائى]



يا هذا، ما بي شيء مما تذكرون، إني لأرى نفسي سليمة، ليس بي قَلَبة[١] أو داء مما تظنون.

قلت لهم: أنا أولى منكم بالشفقة عليه؛ فأنا منه بمنزلة أبيه، لا خوف عليه، ألا ترونه رشيد العقل، سليم الجسم، يتحدث إليكم بموزون الحديث!؟ لكن أكثرهم أجمع على رأي العجوز؛ فاضطرّ بنا الأمر أن ننطلق به أنا وحليمة وعدد من كبار القوم إلى سوق عكاظ».

عكاظ سوق من أسواق العرب، وموسم من مواسمهم بشبه الجزيرة العربية، ومجمع قبائلها في شهر ذي القعدة. من أكثر الأسواق رواجًا، يؤمّها من أراد حجّ البيت، ثم منها يتّجه إلى سوق ذي المجاز، ويقصد مكة بعدُ ليحضر الموسم.

لعكاظ - ناهيك عن مكانتها التجارية المرموقة - موقع خلّاب وسط وادٍ رحب يُدعى الابتداء، على مشارف قرية صغيرة، يتخلّلها نهر جارٍ، محفوفة بأشجار من نخيل. أجواؤها لطيفة، يطيب لها العرب نفسًا.

على عكاظ، ينثال من شتى بقاع الجزيرة وأحيانًا من الشام وفارس، الباعة والتجّار محمّلين إليها عروضهم للبيع أو المقايضة. هذا، وإن عكاظ لم تكن سوقًا تجاريةً فحسبُ، بل كانت سوقًا نافقةً للخطابة، والمطارحات الشعرية والمفاخرات الأدبية، وبذلك صار موقعها الأدبي لا يقل شأنًا عن مكانتها التجارية. في كل حدب منها وصوب حلقات ومجالس، يدور فيها ما يناسب شداتها

---

(١) القَلَبة: الداء الذي يتقلّب منه صاحبه على فراشه. [المعرّبة]



بمختلف الأصناف والطبقات: بعض يحلّق حول النسّابة ليستمع إلى أحاديثهم في مفاخر الأسلاف والأجداد. وبعض آخر يلتفّ في حلقات متداخلة حول قبة النابغة الزاهية الجميلة؛ ليلقي السمع إلى آخرما نضحت به قرائح الشعراء من العرب، ويعير الأذن لما يصدره في شعرهم من الأحكام. وبعض كان يفد إلى هذه السوق؛ ليلتقي بالعرّافة، فيتكهنوا لهم ولولدهم المستقبل وتالي الأيام.

«التقينا في عكاظ بكاهنٍ من هذيل، فانٍ، امتدت به الحياة طويلًا؛ فاشتعل فيه الشيب. أرسل جدائل ولحيةً طويلة، وأرخى السبال الكثة؛ فانطمر الثغر فيها وغاب عن الأنظار، واستظلت عيناه بحواجبه المفلفلة المرخاة.

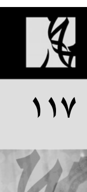
قصّ عليه أحد الرفقة ما جرى، فأشاح الحاجب عن البصر، وحملق في وجه محمد بعينيه الصغيرتين الرماديتين، ثم قال متأملًا: هو ليس من ولدكم!؟

- هو ذاك. قلته مؤيدًا.

وثب من مكانه وثبةً كانت غريبةً على أمثاله من العجزة وتشبث بتلابيب محمد، وجرّه إليه، ثم رفع عقيرته: اقتلوا هذا الغلام، واقتلوني معه! فباللات والعزى، لئن تركتموه وأدرك، لَيذلنّ دينكم وليسفهنّ ملتكم، وملة آبائكم، وليخالفنّ أمركم، وليأتينّكم بدين، لم تسمعوا بمثله قط!(١)

ظلّ محمد هادئًا، مطمئنًا، بينما جثم على صدري هلع عظيم

(١) **السيرة الحلبية**، ١/ ١٥٦. [المعرّبة]



وتملّكني الخوف من أن يهدر العجوز دم الغلام الغريب. وقبل أن أجيل الذهن في حيلة، انتفضتْ حليمة من مكانها لتنتزع محمدًا من مخالب ذاك الضبع الهرم، فصرخت في وجهه: يا أرعن، يا عجوز، كأنك خرفتَ من الهرم، ما هذا الذي تصنعه بهذا الصبي، وما هذا الهراء الذي تنطق به!؟ لأنت أعته الناس وأجن. لو علمتُ أن هذا يكون من قولك، لما أتيتك به. إنّا غير قاتليه أبدًا، فاطلب لنفسك من يقتلك إن اشتقت أنت للموت وتريد الخلاص من نكد العيش الطويل!

وبطرفة عين، غابت حليمة مع محمد وانسلّت عن عكاظ، وتوارت به عن الأنظار. صارا كقطرة ماء غاضت في التراب».

«رغم كلّ ما جرى وحدث، ما طاوعتنا نفوسنا لنلحق محمدًا بأمه قبل الأوان. وإذا حان وقت الأوبة، غسّلته وعطّرته، وجهّزته للقاء.

وفي بعض الطريق - على بعد فراسخ من مكة - نزلنا عن مراكبنا لنستريح، ونرفّه عن الجسم شيئًا ما. كان هناك نفرٌ من النصارى[١]، قد أوقدوا للطبخ نارًا، ما إن استقرت منهم على محمد النظر، حتى سألوني عنه، ثم بدا لي أنهم يكيدون به كيدًا وقد سوّلت لهم أنفسهم اختطافه، إذ رأوني وإياه على انفراد. فبينما أسندت ظهري إلى بعيري المنبطح، سمعتهم يتهامسون: فلنذهبن به إلى ملك الحبشة لننال سنيّ الجوائز.

---

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٦٧. [المعرّبة]

اصطكت ركبتاي من هول ما سمعت، فانتهزت الفرصة للإفلات، ركّبت محمدًا على ظهر البعير، وأمعنت في السير نحو مكة. ثم لا أدري ماذا حلَّ بهم من بعدي.

وصلنا مشارف مكة، والبلدة مكتظة بجموع الناس في موسم الحج. نزلنا عن المركب؛ لنعبّ شربة ماء، ونمنح الجسم قسطًا من الراحة، ونزيل عنه وعثاء الطريق. وعلى حين غفلة ضيّعت محمدًا لسبب لا أعرفه. التمست أثره يسرةً ويمنةً من دون جدوى. أخذ منّي الرعب كل مأخذ، واستبّد بي القلق: «ألا ترين ما حلّ بكِ يا حليمة، غفلة لحظة ألقتك في التهلكة، فها هم الأحباش قد نالوا بغيتهم!». رفعتُ صوتي بالعويل: «ألا يا معشر قريش، يا أهل مكة، الغلام الغلام، ها قد خُطِفَ حفيد كبيركم» وأجهشت بالبكاء والنحيب...».

«في طريق عودتنا إلى مكة، جلستُ وعمرو بن زيد في موضع من وادي تهامة، تحت نبتة أم غيلان، فرأينا غلامًا واقفًا على انفراد، ينظر المارة من الناس. تقدّمنا إليه، كان في سيماه أثر النباهة، وعلو الشان. لم يبدُ علينا الصبي غريبًا. مسحت على رأسه في عطف وحنان، وسألته: من أنت، يا ولدي؟ أغضى حياءً، وقال في لين: أنا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب بن هاشم. تراءى لي أنه قد أضلّ الطريق، فحملته بين يدي، وعدت به إلى المدينة».

«في جانب من الحرم، كنتُ أنا ونفر من قريش جالسين على حصيرة خوص، مستظلين بسقيفة، نتجاذب بيننا أطراف الحديث فإذا منادٍ عند باب بني هاشم يلقي علينا نبأ ضياع محمد.



أرسلت على الفور غلامي عامر ليتحسس حفيدي، ثم لذت أنا بالكعبة مفرّق الحال، متعلّقًا بستارها اليماني، داعيًا إلى اللّه في ضراعة. فلم أزل أستغيث وأستصرخ، حتى بشّرني أحدهم أن ورقة بن نوفل قد وجده، وها هو يحمله إليّ. ما إن رأيته، حتّى ضممته إلى صدري محتضنًا، وأخذته على عاتقي، أطوف به سبعًا، حامدًا رب الكعبة، شاكرًا... مسبّحًا».

«لم تصل حليمة في الوقت المعتاد، وتأخرت عن المجيء سبعة أيام، فعاتبتُها على ذلك، قائلةً: لِمَ تأخرت يا حليمة؟ يا لَحَرصك على احتضانه!

أجابتني في حسرة وأسى: لكنني سأخسره!

قلت: ما شأنك!؟

أشارت حليمة إلى مبعث قلقها.

قلت: أصدُقيني الحديث، أخشيتِ عليه من الشيطان؟

قالت: لا أدري، لكنني قلقة عليه!

قلت: كلا، واللّه ما للشيطان عليه من سبيل! إن لولدي هذا شأنًا، لا يمكن البوح به حتى يأتي حينه.

كان ذلك آخر عهد حليمة بمحمد، فقد التحق بي بعدُ وهو ابن خمس سنين...».

«قد شُغف محمدٌ بجدّه حبًّا، فكان يرافقه كلما راح إلى الحرم مع الأصيل، لكن عليه الآن أن يفارقه؛ فعبد المطلب يريد أن يخرج مع سراة قريش إلى سيف بن ذي يزن، في وفد التهنئة، بعد أن ظفر على الحبشة ودحر جندهم عن بلاده. وسيف بن ذي يزن هذا، سليل ملوك اليمن، استنجد بكسرى على الأحباش، فاستعاد الملك والسلطان.

كان محمد شديد التعلّق بي أيضًا، كما أنه أحبّ حليمة وأبناءها، ولم يكد ينسى البادية التي ألفها واعتاد عليها طيلة خمس سنوات فأخذ يضيق ذرعًا بالحضر.

كانت تباريح الحنين تهون على محمد في جنب جدّه، وإذا غاب عنه، أخذت روحه ترفرف شوقًا إلى أبيه، فيصرّ على زيارته، ويكرّر الإلحاح.

سألني ذات مرة: أماه، أين قبر والدي؟ أجبته: في دار النابغة بيثرب.

قال: ألا تحملينني إليه!؟

أنا أيضًا كنت أهفو إلى لقاء عبد اللّه. فلمّا رأيت ذلك من

محمد، عزمت على الرحلة إلى يثرب بولدي وبركة، علّ محمدًا يتعرف إلى أخواله والصبيان وأركن أنا إلى مثوى زوجي الشاب.

انتظرنا ريثما تنطلق قافلة إلى يثرب لننضمّ إليها، فإذا أذّن المؤذن بالرحيل، مضينا إلى الكعبة طائفين ثم تزودنا للطريق.

لم تَلُح لنا سواد يثرب إلّا في فجر اليوم العاشر».

«قد زارت مولاتي يثرب مرةً أو مرتين؛ فلها في هذه المدينة من تمتّ إليه بصلة القربى، بيد أن محمدًا لم يزرها من قبل.

الجو ربيعي، والحرارة لمّا تشتدّ. إلّا أن غمامةً - والأمر عجيب - كانت تظلل محمدًا طوال الطريق، حيث لا ظلة ولا ظلال!».

كان محمد مع أمه في الهودج إذ تعالت الزغاريد، فرفع الستار ومدّ رأسه ليطلع على ما يدور حوله: رأى الركب قد استخفّهم الفرح والحبور وتطايرت بينهم كلمات التهنئة والسرور.

أدار محمد رأسه يمنةً ويسرة، باحثًا عمّا يهيّجهم، فوقع بصره على بركة اليافعة، وقد كانت تساير الهودج على ظهر ناقتها الفاحمة. فلمّا رأت نظراته المستفسرة، قالَت: ها نحن اقتربنا من يثرب؛ فقد لاح سوادها.

ألقى محمد نظرةً على الأمام وشخص بصره إلى البعيد حيث احتضن منفرج الجبل واحةً غضّةً خضراء، كأنها واسطة عقد زمرّدية تلمع على جيد السهول. وهناك... في أقصى المدينة أكمة منيعة كالجدار، تحول دون ما يأتي وراءها من جرد البطاح، وإن كانت دانيةً قريبة المنال.

بيّنت آمنة لمحمد أن السلسلة الجبلية على اليمين، هي سُعير، وعلى اليسار أحد والواحة التي تتسع انبساطًا، فتتصل بجبال السيلة؛ هي يثرب.

سألها، وقد أعجب بالغضارة الخلابة: لا بدّ من أن الخضرة تلك هي نخيل يثرب؟

- أجل، يا ولدي، تلك هي نخيلها وبساتينها؛ فيثرب أغزر ماءً من مكة وأبرد.

ما إن استمرت أدراج الركب، حتى أحست الإبل أيضًا - بفراستها - أن الرحلة الشاقة قد شارفت على الانتهاء وأن وقت الخلود إلى الراحة قد حان وآن، فهدرت مرحةً، وباعدت الخطى، ودفعتها على ذلك انحدارة في طريقها؛ فحثت بها على الإرقال.

ثم لاحت بين النخيل مدرها وعواليها المقبّبة، وتناهى إلى الأسماع صياح الديكة. نعم، ها هي يثرب بأزقتها الفسيحة الترابية، وها هو الركب بدأ يخطو وئيدًا في مهبّ النفحات الربيعية الهادئة.

أرخى القفل القياد، وأسلس العنان، وراح ينتشي طيب الرياح في مرح وسرور، دون أن يلقي بالًا للأعاصير، ويخشى شحة الماء ووطأة الحرّ والإعياء.

ولّى العير وجهه نحو السوق، وقد تناغمت أقدام رجاله مع وقع الحوافر وسنابك الجمال. كان يداعبهم أمل الإقامة في يثرب الحنون بين أجوائها اللطيفة، فيداخلهم شعور بالدعة والارتياح بعد رحلة مرهقة طالت عشرة أيام. لم يكد يصل الركب يثرب حتى تأثّر بالأجواء الجديدة وخصال أهلها، فلانت منهم أيضًا الخلق ورقّت





الطباع.

«وصلنا مع القافلة قلعة بني النجار بحي بني قيلة.

بنو النجار قوم شرف ومنعة، لهم حصن رصين شامخ، بأسوار شاهقة. أعظم دار بها، دار شريفهم، النابغة.

كان الرجل قد تقدّمت به السن، طويل القامة، أبيض الوجه، عليه مسحة المروءة والسعادة بادية. أقبل علينا هو وزوجاته أم سماك وأم أميمة، ورحّبوا بنا جميل الترحيب. ثم انثال على داره، القوم زرافات ووحدانًا، يريدون مولاتي ومحمدًا.

لمّا تم اللقاء بأهل المدينة، منحنا الجسم قسطًا من الراحة، بعد أن استودعناه الماءَ ليُزيح عنه ما لزق به من الهباء والغبار. ثم اتجهنا إلى دار النابغة، تلك المقبرة القريبة من القلعة».

على شفا البلدة، تحت ظلال مزرعة ونخيلات، لازمت دار النابغة مكانها، كئيبة لتحتضن مثوى عبد اللّه الغريب، الوحيد بين أعلافها البرية؛ السوسن وشقائق النعمان.

في تلك الساعة من النهار، كان بعضٌ منهمكًا بالعمل في المزرعة والبستان، وآخر قد خرج إلى السوق؛ فخيّم على المكان صمت رهيب لا يخترقه إلّا زقزقة العصافير وبلابل النخيل بين آن وآن.

لم تأذن آمنة لأحد بمرافقتها إلّا ابن خال محمد، صبي في مقتبل العمر خرج معها ليدلّها على الطريق.

الوحشة كانت غريبةً، والسكوت قاتمًا، وآمنة بدأت تشعر أنّ

الزمن قد توقّف عن الحركة والاضطراب.

«نم يا عبد اللّه، نم آمنًا من كل همّ وغمّ، نم يا عبد اللّه، ناعم البال، نم ما وسعتك الأبدية بغمراتها... لقد سرّت عنك المحنة، فقرَّ بالك وطاب، فاليوم لا يمكن للزوابع أن تعكّر سكينتك ولا يمكن لها أن تهيّج محيطها الشاسع. لا خوف عليك ولا حزن؛ فقد استغنيت بالموت، وهو لك كافٍ كاف.

نَم، هادئ البال، فما من أحد تراوده نفسه فداءك، وما من مرض أو وصب لك بالمرصاد.

يا للموت من مُجلٍّ... ومذلّ!».

ترى... كيف بلغ السعي بآمنة إلى قبر حبيبها، طارت إليه أم هرولت...؟ لا تدري... لم تكن إلّا لحظات حتى جثمت على الركبتين، وقد أخذت في ثراه تنشب اليدين.

«أهذا أنت يا عبد اللّه، قد قيّدتك الأغلال في التراب، وطوّقت منك اليدين والرجلين!

أين الحيوية والشباب، أين الفتوة والعنفوان. وا أسفًا على عودك الفاتن، كيف بادر إلى مؤانسة التراب!».

عاودتها من حيث لا تشعر ذكريات الماضي، وألمت بها خواطر ليلة الزفاف، آه، يا لسعادتها! فقد ذهبت بزين الشباب وأكرمهم طباعًا، ذهبت بمن تمنته فتيات مكة. ذهبت بتلك الغرة التي خلبت عقل فاطمة الخثعمية[١]، فطابت لجبهته المشرقة عن

---

(١) يقال إن فاطمة بنت مرّ الخثعمية هذه كانت ضخمة الثراء، تعيش في مكة =

ثرائها العريض نفسًا.

آمنة كذلك كانت ترى نفسها أحق الفتيات له زوجًا! فهي أوسمهن وجهًا وأطهرهن قلبًا. وعلى هذا كان أملها البعيد أن تقترن به وإن لم تصرّح بذلك.

منافسة عجيبة! في عبد اللّه يتنافس ما يناهز المئتين من فتيات مكة. وكلٌّ على أهبة الاستعداد لبذل الغالي والنفيس في سبيله. بعض ذاع صيتهن ببراعة الجمال، منهن فاطمة الخثعمية تلك الفتاة التي لم يعرف لها في العقل وحصافة الرأي مثيل، ناهيك عمّا ملكته من المال الضخم، وما رفلت فيه من خفض العيش وبذخ الحياة. كل ذلك يكفي لإغراء الرجال وانبهارهم، يكفي ليصرعوا وتطير منهم الألباب، فيأتوا بابها مذعنين، ويلقوا لها عن يد صاغرين.

ترى، هل لآمنة أن تحلم بالقِران؟ فهي لا تملك وفير المال، ثم إنها ليست كبعضهن تبرز للرجال من دون رادع من الحياء والعفاف، وهي لم تراود عبد اللّه عن نفسه لحصانتها، لإبائها، لأنفتها...

تمثّلت أمام آمنة عذارى مكة ودموعهن، وتلك النظرات منهن الحَسِرات، ليلة زفافها إلى عبد اللّه.

=مترفةً ناعمة، عرضت نفسها لعبد الله، وهو في طريقه مع أبيه إلى بني زهرة، ويقال إنها قرأت نور النبوة في وجهه؛ فجدّت في إغرائه بعريض أموالها، ودعته إلى نكاحها، فأبى. انظر: **السيرة النبوية** لابن هشام، ١/ ١٥٥؛ و**إمتاع الأسماع**، ٤/ ٣٨. [المعرّبة]



«كيف أسفّ إليكِ طائر السعادة بعد أن حلّق في الأجواء وحلّق، وأنى انتهى به التحليق إليكِ دون المنافسات الطامعات!؟ وكيف حالفك الحظ السعيد، فتحقّق عذب أحلامك؟! هل تكلّفتِ في هذا السبيل إلّا الصبر والحلم!؟ وأنى لكِ ذلك، وقد آثرت كتمان الحب حتى على أمك...!».

لم تكن تصدّق أبدًا، أبدًا أن نالت من الغيب هذه السعادة العظيمة فكان يخامرها أحيانًا الشك، فتظن أن الرؤيا قد خايلتها. أهذا هو عبد اللّه حبيب قلوب العذارى إلى جوارها. أحقًا هي قد ملكته بقدّه ذاك الممشوق، وعيونه الفاتنة، وضفائره الفاحمة التي تهزأ بسواد الليل وتستخف بدجاه، ناهيك عن إشراقة عجيبة... فريدة، ألقت في القلوب الروع؛ فاهتزت من هيبتها الساحرة - من حيث لا تريد - ثم تلك التنبؤات...!؟

آه، خوف غامض ينبعث في رَوْعها؛ فالسعادة أوسع من أن تستوعبها:

«ليت شعري أيمتدّ بي الفرح أقصاه؟ هل سأحتفظ بعبد اللّه إلى الأبد، أم تستلّه مني يد منكرة مخيفة أتحسس لمساتها القلقة كل لحظة وآن».

ها هي آمنة تتذكّر عند قبره، كيف كاد قلبها يتوقف عن الخفقان ويتجمد في عروقها الدم، كلما خطر ببالها هواجس فراقه.

- مولاتي، لو تأذني لمحمد وابن خاله بالعودة إلى القلعة! هذا ما قالته بركة الشفيقة، الحنون، بينما كانت تذرف الدموع وتضع يدها على كاهل آمنة. أدنت بركة رأسها إلى أذنها لتهمس فيه قولًا



أرادت أن تخفيه على محمد: عذرًا يا سيّدتي... عذرًا، من الأفضل ألا يراكِ محمد على هذه الحال!

ردّت عليها آمنة في لوعة وكآبة: فليرجعا، معك الحق يا بركة؛ فقلبه الصغير قد لا يتحمّل ما يتضاعف عليه من الأحزان.

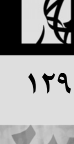
اشتدّت وطأة الصمت على المكان بعد أن ذهب الطفلان.

يا لوداعة يثرب، يا لِوَداعتها القروية، يا للسكون والهدوء! لشدّ ما كان يعصر مزاره الشاحط قلب آمنة، فتزداد وحشةً واغترابًا!

«يا عبد اللّه، أنا أحسّ بما تحسّه من الغربة... من العزلة، لِمَ لا، فقد عشتُها... آه، يا عبد اللّه، يا ليت تدري ما حلَّ بآمنة إذ رحلتَ عنها إلى الشام. ذقتُ مرارة الفراق، فشعرت أن مكة باتت مهجورةً، موحشةً، بل ميتة. أنكرتها، فلم تعد مسقط رأسي ولا معهود دياري، استوحشتها ليلَ نهارَ، كأن لا عهد لي بها. بدت لي مجهولةً، طوتها الأتراح، فصرت غريبةً بين الدور والطرقات. ازوّر عني أهلها، ولم يعد أحد ينتظرني عند الباب، بل يهفو قلبه إليّ ويشتاق. أجل كانت أمي تختلف إليّ كل آن آن، ووالدك يعرّج عليّ إذا مرّ بالمدينة... فلا خَلَف لك ولا عوض بل لا معين على فراقك...!

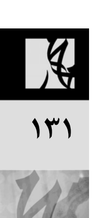
لا تتعجب... صدّقني، كنت أتمنى أن أخلو إلى نفسي - رغم وحشتي وغربتي - فأفكّر فيك بلا رادع، بلا وازع... بلا...

تنغّص عليّ العيش من بعدك فلم أكن أمدّ اليد إلى لقمة طعام إلّا أتمثلك في طريق الشام، فيساورني القلق على أكلك، فإذا بي أغتص. وإذا بسطت يدي إلى عذب ماء، تخيلتك في

قاحل الفلوات لا تشرب إلّا الكدر إلّا الحار من الماء؛ فإذا بي أختنق بالعبرات.

آه... لو كنت أدري أنك ستؤول إلى هذه العاقبة...».



«لبثنا في يثرب ثلاثين ليلةً، كانت مولاتي خلالها تنقطع إلى عبد اللّه، وتنفرد في دار النابغة بمثواه، ناحبةً، ضارعة؛ فتثير العجب العجاب في نفس من لا عهد له بسيدتي وما يربطها بزوجها من أواصر الود والوئام؛ فينكر عليها حزنها المحض، ونواحها المرّ إثر ستة أعوام من رحيله! لكن هيهات... هيهات مني العجب؛ فأنا بالزوجين أعرف، وبوفاء نساء بني زهرة أدرى، إلّا أنني كنت أتوجس خيفةً من أن يتحسس محمد الأمر، فتشتد به الأشجان».

عفا جانبُ البطحاء من ابن هاشم　　وجاور لحدًا خارجًا في الغماغم

دعته المنايا دعوةً فأجابها　　وما تركت في الناس مثل ابن هاشم

عشية راحوا يحملون سريره　　تعاوَرَه أصحابه في التزاحم

فإن تكُ غالتْه المنايا وريبُها　　فقد كان معطاءً كثير التراحم[١]

«آثره الأخوال وصبيتهم بالمودّة، وكنّوا له الحب، فكان يقترن به ليلَ نهار منهم اثنان، وتنضّم إليهم من بني النجار، جارتهم، بنيّة، تُدعى أنيسة، حنون، شعرها فاحم، وعيونها هدباء، فصار الأربع يلعبون معًا طوال النهار.

(١) **سبل الهدى**، ١/ ٣٣٢.



كان الصبية يذهبون به حينًا إلى النخيل والبساتين وحينًا آخر إلى المستنقعات والغدران، وطالما سبحوا معًا في بركة عدي بن النجار، أو غدوا إلى أبراج القلعة ليطيّروا أمام عينيه الرانيتين ما فيها من الطيور والحمام.

غمرت محمدًا الفرحة لمّا أحسن في يثرب العوم؛ إذ لم تكد مكة تملك من برك الماء؛ ليتمرس فيها الصبيان السباحة حتى الإتقان».

يثرب كان جوّها لطيفًا، ماؤها عذبًا فراتًا، يفترشها واسع النخيل، وبساتين النارنج والليمون، والخوخ والمشمش، والكرم والتين والرمان مع مزيد من الزروع والخضار؛ فانطبع أهلها بطباع الرقّة والسماح، وصاروا ألين عريكةً من أهل مكة.

يثرب بأُطْمها المدريّة ومشارفها الطينية، تبدو أكثر سكينةً من بكة وبيوتها الصخرية الباهتة. دروبها مستوية فسيحة، وسويحاتها متوزّعة كثيرة، يخوض صغارها في مرح ولعب حرم منه أطفال مكة، لانحدار ما فيها من الأزقة التي استعصت إلّا على بضع ألعاب.

يا لطيب المقام في رحاب يثرب الحنون الخضراء...! ها هو محمد صار ينعم في الجنة، حيث ينبعث شذا النخيل، وأريجه الفوّاح، ويتلقّى من جذوعها وما يتخلّلها من عوالي الزروع بليل النفحات... هناك كان يتملّى النظر في أسراب العصافير الطائرة، ويشنّف السمع بصداح البلابل، وصرصرة الببغاوات الخضر على أعذاق التمور.

«لا مناص من العودة - على أني أيضًا كنت أحب المدينة





هذه - فسيدتي قد اجترحها الوهن والهزال، وعليّ أن أنزح بها عن يثرب ومثوى زوجها؛ علّ الأتراح والأحزان عنها تنجلي، فقلت لها: مولاتي، لا بدّ من أن سيّدي عبد المطلب قد آب من اليمن: فعلينا أن لا نتأخر في الرجوع؛ وإلا سينتابه القلق ويتملّكه الاضطراب. أيّدتني مولاتي، فهممنا على شدّ الرحال، وأعددنا الزاد، وانطلقنا من غد يومنا مع الفجر قافلين. كان الجوّ في يثرب صيفًا، إلّا أن الحرارة لم تك كاوية».

مضت القافلة في طريق الجنوب، بينما كان يترنّح في مؤخرة طابورها الطويل، بعير آمنة الفاقع، بهودجه الخشبي، وأسدال صفر بلون البعير. وعلى ظهر المركب، استكان محمد في حجر أمه، وظلت بركة تسايرهما على متن ناقتها الفاحمة.

رفعَ الحادي الكهل عقيرته بغناء عذب، بعث به الإبل على الإرقال والخبب، فسرت نغماته الشجية إلى حنايا الركب، وألقت عليه ظلال حزن بعيد، بل حلو... سحيق، فاسترسل الراحلون في خواطرهم المزدحمة، وفاضت منهم الدموع على الخدود مدرارًا...

- هس... هس... هس!

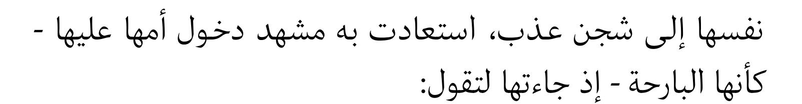
«وداعًا يا خاذلة الغرباء... وداعًا يا قاتلة الأحباء...!

وداعًا يا دار النابغة، يا دار الصمت، يا دار الوجوم...!

وداعًا يا غريبي، وداعًا يا وحيدي، يا عبد اللّه!

ترى... هل لآمنة إليكِ يا يثرب من سبيل!؟».

أغمضت آمنة العينين، واستندت إلى نمرقة جلد صغيرة، كانت محشوّةً بالخوص، وضمّت محمدًا إلى صدرها، ثم أسلمت



نفسها إلى شجن عذب، استعادت به مشهد دخول أمها عليها - كأنها البارحة - إذ جاءتها لتقول:

- ابنتي، استعدّي؛ فالخطيب آتٍ الليلة!

حدّقت برة في وجه ابنتها، وقد ران عليها الصمت.

اعتلت وجه آمنة حمرة الخجل، فأطرقت برأسها إلى الأرض.

- ألا يهمّك أن تعرفي من هو الخطيب!؟

لازمت آمنة الصمت، ولم تنبس بشفه.

- حسنًا، سأقول لك من هو. عبد اللّه!

- أي عبد اللّه؟

- ابن عبد المطلب.

أخذ قلب آمنة يخفق، وطفح الدم في محيّاها، فأدارت الصفح؛ علّها تخفي دفين سرّها وتكاتمه.

انطلقت برة نحو الباحة، وتركتها كي تتمالك نفسها، فانتحت آمنة جانبًا ليسكن منها الجأش، ويهدأ البال...

لم يتح لآمنة الخوض في ردّ وسؤال، وما طال بها الوقت حتى رأت نفسها على أريكة العرس وسط وادي بني هاشم.

فاض الوادي بالحشود، ووشحته المشاعل والمواقد والفوانيس بالنور، كأنما الصبح أطلّ وأسفر.

في الجانب الشمالي من الموضع، تلاصقت المصاطب،



فاستوت مستوًى عريضًا. نصبت في واجهته أريكة صغيرة يحيطها حرير أخضر، تربّع عليها عبد اللّه بعباءة وبر سوداء، وسربال طويل زهري، ناصع كلون اللبن.

اعتلت هامته عمامة صغيرة خضراء، أضفت عليه مزيدًا من الجمال والهيبة. كان جالسًا إلى جانب آمنة بجبين طلق... مشرق... وسحنة كريمة... وظلال أهداب متموجة، مرخاة على خدوده البارزة.

لاث بهما وتحلّق - في نصف دائرة - والدتها، ووالدة عبد اللّه وأخواته. وعلى المصاطب المفروشة ببساط عربي من شكل واحد، جلس عبد المطلب وسراة قريش، خائضين في الحديث فارهين... فاكهين... أمّا الساحة الرملية الممتدة في الوسط فقد افترشت بقضبان الكرمة، والطرفا والكاليبتوس ويانع الورق، فيجري منها - بين آونة وأخرى - ريح طيبة برخاء، ويفوح - كبساتين الطائف - ندى النباتات وعبيرها.

عمّ المكان مجامر عالية من القصدير والسبيكة، كان يتحرّق عليها العود والصندل والصمغ والعلك العربي والبخور اليماني؛ فتسطع في الفضاء أبخرة ذكية... وعند حافة المصاطب أثافي صغيرة من الغرانيت تتطاير منها الشظايا، وحبات الحرمل دفعًا لعين من يحسد العروسين.

اصطفت الجموع في الساحة، قيامًا وقعودًا، نساءً ورجالًا، كبارًا وصغارًا. وفي الأقصى من الموضع، حيث المصاطب، اعتلى المجتمعون صخرةً كبيرةً يدفّون بالطبول دفًا صاخبًا، بينما كان

صحراويان ممشوقا القامة يرقصان بين الجمهرة من الحضور رقصة السيف: كلٌّ يستعرض براعته الحربية بما كان عليه من السلاح: على الرأس خوذة وفي قبضتهما مهنّدان هلاليان، كانا يتقابلان بأقدام مصطفة، ويدوران دورات معاكسة، ثم يهزّان السيف فوق الرسغ ويشهرانه في وجه بعضهم. يقفان حينًا متكاتفين أو متدابرين بألعاب عجيبة، غريبة، ثم يتناوبان الدوران، فيطوف أحدهما حول الآخر فيقف ليدور الآخر حوله.

ما إن تشتد ضربات الطبول، حتى يضاعف الرجلان الدوران. يتدابران بالسيوف ويتقافزان، ثم يهبطان دوّارين كالبرق، يقرفصان على الأرض، ثم يزعقان دويًّا، متقارعين بالسيوف المتوهجة برقًا في جنح الظلام، وهنا تتعالى زغاريد الجموع وصفير الشباب.

ينسحب أحدهما مرةً إلى الوراء فيتبعه الثاني مطاردًا، فيثب الأول صارخًا، ثم يأتي دور المطارِد ليتقهقر. ويجثم أحدهما مرةً أخرى على الركبتين، ليقارع قرينه بالمهنّدين.

وعلى جنبات المصاطب، كان صغيران يقلّدان بقضبان خشبية رقصة السيف فإذا بطفلة تفزع منهما وتصرخ، فتتشبث بها أمها وتبعدها عن المشهد.

راح الخدم يعين أبناء عبد المطلب ولا سيما من كان منهم أكثر اندفاعًا ورغبةً في إسداء الخدمة: زبير وحمزة وأبو طالب.

على بعد من الساحة، قدور ضخمة يتصاعد منها الدخان، وقطعات لحم كبيرة أخذت سبيلها للشوي على النيران. وعلى الجهات الأربع، أحواض حجرية تفيض بعصير عنب الطائف، والتمر،



والسنكنجبين، وقد طاف بها النساء والرجال والصغار، منها يعبّون وينهلون.

كانت آمنة جالسةً إلى جانب عبد اللّه، مستبشرةً، تكرع الفرحة والغبطة، وقد أرخت من دون الوجه لثامًا مشبكًا أخضر اللون. أمّا عبد اللّه، فقد كان يقلّب الطرف بين آمنة والراقصين ببسمة عذبة.

ما لبثت أن أفاقت آمنة على هدير الجمال، مما كانت تتملاه من الذكريات.

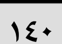
- سيدتي، سينيخ الركب هنا، ليأخذ قسطه من الراحة ويرفّه عن الجسم بعض الشيء.

أيدتها آمنة بإيماءة لطيفة. ثم مالتا بهامات الجمال يسارًا وانتبذتا من القفل مكانًا قصيًا، بين النخيل. فلمّا بركت الناقة على الأرض، استيقظ محمد على صرير هودجها، وخرج من المحمل.

جففت آمنة بمنديلها الحريري الناصع ما على جبين طفلها الصغير من حبّات العرق الناضح كقطرات الندى، وأماطت عن جبهته، الشعر المتناثر، ثم أخذته إلى صدرها، والابتسامة مطبوعة على شفتيها.

راحت بركة تثبّت الهودج وتشدّ حباله، وقبضت آمنة على القربة المعلّقة بعدل البعير، وهي تقول: حبيبي، تعال اغتسل لترتاح وتنتعش!

شمّر محمد سرباله المخطط عن الساق، وانطلق إثر أمه، وهو



في نشوة النعاس.

وقفا على ضفاف نهر قاحل جاف، فغسّل محمد الوجه واليدين بما كانت تصبّ عليه أمه من القربة، ثم التحقت بهما بركة، بعد أن فرغت من عملها.

تداولت آمنة الشابة والفتاة صبّ الماء، ثم ساقت بركة النياق إلى حيث البئر؛ لتسقيها.

كانت الشمس قد بلغت كبد السماء، إذ سمعت آمنة صداح طيور يبدو أنها لاذت بحجر النخيل لتقيل. كانت تنوح بصوت شجن فاتر كهدهدة الأمهات، فتبعث برنّاتها الرقيقة عين آمنة الكليلة على النعاس.

جاءت بركة ببساط صوف أبيض، ففرشته آمنة تحت ظل نخلة، ثم أخرجت خوانًا وقُدِيرًا نحاسيًا من عدل بعير بركة. أمّا محمد فقد كان منهمكًا في البحث عن شيء ما بين الأعشاب النابتة خلال النخيل. صاحت به بركة، فجاءها مكتف اليدين، وهو يبتسم خلسة، فمدّ اليدين أمامهما، قائلًا: هذي لكما!

كان في يمناه غصن نرجس بري، وفي يسراه شقائق النعمان. تناولتا منه الوردتين بفرحة، ثم طبعت بركة على يديه الناعمتين قبلةً، وقالت:

- لا حاجة للورد، يا صغيري العزيز؛ فأنت وردة!

أخرجت آمنة من القُدير قليلًا من الحلواء، ولفّته بقطعة من الخبز المرقّق، وقدّمته إلى محمد، ثم التقطت لنفسها بعضًا،

وأعطت القُدير إلى بركة.

انصرف محمد وبركة إلى الأكل، ولكنها لم تتمكّن من تناول طعامها، فاكتفت بلقيمات.

ألقت بركة على سحنة آمنة الممتقعة، نظرة خوف ووجل، وبادرتها بالسؤال:

- سيدتي، كأنك لست على ما يرام؟

- لا، بل لا أشتهي الطعام، ربما بسبب الحرّ.

أمسكت بركة عن الكلام، فاستندت آمنة إلى جذع النخلة، وحملقت قدّامها، ثم تاهت منها النظرات رويدًا رويدًا:

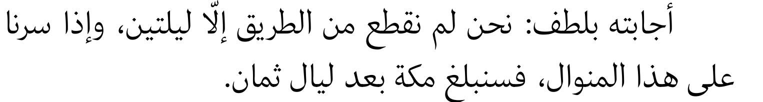
«تغيرت البلادُ ومن عليها فوجْهُ الارض مُغبَرّ قبيح
تغير كلُّ ذِي لون وطعْم [وقلَّ بشاشة الوجه الصبيح]
وبُدِّل أهْلها خَمْطا وأثلا بجناتٍ من الفردوس فِيح
وجاورنا عدوٌّ ليس ينسى لعِينٌ لا يموت فنستريح
فوا أسفا على الوجه المليح!.....»[1]

مالت الشمس إلى اقصى السهل لتتخذ فيه مستقرًا ومقامًا، بينما أمعنت القافلة في السير نحو مكة، وحثت الخطى لتبلغ مأمنها، قبل أن يجنّ عليها الليل.

سأل محمد بركة، وهو إلى جانبها في الرحل: ومتى الوصول إذن يا حاضنة!

---

(١) **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ١/ ٤٧. [المعرّبة]



أجابته بلطف: نحن لم نقطع من الطريق إلّا ليلتين، وإذا سرنا على هذا المنوال، فسنبلغ مكة بعد ليال ثمان.

سأل محمد وهو يتثاءب: وهل سيعود جدّي من اليمن حتى ذاك الحين؟

- نعم وربما قد عاد.

- ومتى يرحل الناس عن هذه الدنيا، ويموتون، يا حاضنة؟

- إذا أصابهم الكبر، وطعنوا في السن.... ترى لِمَ تسأل؟

- أمات والدي عن كبر سن؟

- ما هذا الذي تقوله، يا عزيزي الصغير!؟

- كان عجوزًا؟

- لا، بل شابًا، مرض ف...

- مات إثر حمّى؟

- نعم، على ما يبدو!

- وأمي، قد انتابتها حمّى، ونحن على أعتاب الخروج من يثرب، فهل هي أيضًا...!؟

غصّ محمد بالعبرة، ثم أمسك عن السؤال، فضمّته بركة إلى صدرها بحنان، وقالت: مهلًا، يا عزيزي الصغير مهلًا، ومن قال إن كل من تعتريه الحمّى يموت؟ ثم استطردت في الحديث عسى أن تصرف محمدًا عن أسئلته تلك، فقالت: أتحبّ جدّك كثيرًا؟



لم يرد محمد بجواب، بل نكّس رأسه ينشج في صمت وهدوء، ذارفًا الدموع، وهو يرنو إلى الشمس الجريح تغرب في عينها الحمئة.

- أتعرف كم ربيعًا طوى جدّك من العمر؟ ما يناهز المئة! ألم تعتريه الحمّى؟ لا، يا حبيب الحاضنة...! إنما الإنسان - للحظات ما - يجتاحه المرض، ثم يبرأ من غده ويعتدل. قالته بركة والقلق يساورها؛ فإن الذي بآمنة أوسع من أن يكون لوحشة الفراق الوشيك أو الحزن على زوجها.

- سبق أن تحدثت عن عام الفيل، وقصصت عليك ملاحم جدّك.

كفكف محمد دموعه بظاهر يمناه، وبادر بالسؤال: متى؟

- عندما هاجم أبرهة الأشرم مكة بجيشه وفيله، ليهدّم الكعبة.

- وماذا فعل جدّي آنذاك؟

- قصة غريبة. سأرويها لك حينها، في فرصة سانحة.

لاح للبصر من البعيد، نخيل وأكواخ من طين، فأعلن رئيس القفل أن ها هي الأبْواءُ[١]، حيث المبيت[٢].

---

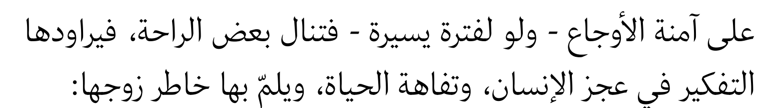
(١) الأبْـوَاءُ: سمّي بذلك لما فيه من الوباء، أو لتبوّء السيول بها، ويرجح ياقوت الرأي الأخير، والأبواء قرية من أعمال الفرع من المدينة، بينها وبين الجحفة مما يلي المدينة ثلاثة وعشرون ميلًا؛ **معجم البلدان**، ١/ ٧٩. [المعرّبة]

(٢) راجع، **أسد الغابة**، ١/ ٢٢، للاطلاع على أخبار وفاة آمنة. [المعرّبة]

ليلة ثقيلة ليلاء... لحظاتها طالت كأنها ساعات، والشمس بدت غارقةً في جبّ المشارق، لا تزايله؛ بل تستعصي على الشروق، وتصرّ على البقاء. وها هي آمنة تنوبها الحمى نوبةً بعد نوبة، فيلتهب عودها كالكور المضطرم، ثم يتصبّب من مساماتها العرق مثل سواقٍ صغيرة منهمرة. لهثت أنفاسها، حتى كادت تنبهر، بل تختنق، فتنحّي الملحفة عنها جانبًا وتجدّ الجدّ لتقوم من فراشها؛ إلّا أنّ الأوصال تخذلها، ولا تطاوعها في ذلك. اضطرت أن تلازم الفراش منهكةً، خشية أن يستيقظ محمد وبركة، فأخذت تعضعض على الشفتين، وتنشج، في صمت أبكم.

تعتريها أحيانًا الرجفة، فتستجمع في العضد شتات القوة، لتلتحف، أو تنكمش وتنطوي على الحنايا، فيشملها عرق بارد، ثم تلّح عليها رخوة غريبة وتقهرها، ويأخذها دوار الرأس وتقاذف المعدة كلّ مأخذ. كأن من الحشايا تمتّد إليها مطرقة، فتدكّ منها المخ، فيتورّم حتى يضغط على الجمجمة، مندفعًا نحو الخارج. ثم تلتوي المعدة ليّاتها، ويهيج منها هائج نحو الفم والحلقوم، أمواج جوفاء بأوجاع ضارية، تودّ آمنة أن تتجرّع الآلآم سواها.

في خضّم من الحمى والرجفة والقيء والدوار، تخفّ أحيانًا



على آمنة الأوجاع - ولو لفترة يسيرة - فتنال بعض الراحة، فيراودها التفكير في عجز الإنسان، وتفاهة الحياة، ويلمّ بها خاطر زوجها:

«ياعبد اللّه، أعانيتَ ما عانيتُ من المرض والوصب؟ أهكذا ذَبُل جسمك الغضّ وتناثر كالورد. بنفسي من وحيدٍ معنّى! ليتني كنت إلى جنبك حانيةً حادبةً لأشملك برعاية لا تفتر».

هزال... نحول... إرهاق... عروق مفتتة تقطّعت بها الأسباب، أوصال جموح، المنية في غدو، في رواح. وآمنة تسعى بين الموت والحياة. «أين أنت يا موت، أدركني؟!».

ها هي آمنة تتمنى الموت، بعد أن قاست الحمى حتى الفجر، على مدى ليال ثلاث. لم تستمرئ الموت فيما مضى من أيامها العصيبة كما استمرأتها اليوم. كابدت الأوجاع... الغموم... الخيبات؛ حتى رأت الموت شافيًا.

طالما داهمها الخوف على مصير محمد ومستقبله، وعلقت في ذهنها أسئلة واخزة: ماذا سيحلّ به من بعدي، أين ينتهي به الدهر القاسي وفتنه؟ وهل يطيق يتيم في السادسة هذا اليتم المضاعف؟ إلّا أنّ المرض شغلها عن هذه الهواجس، فتحلّلت منها شيئًا ما، لمّا استبدت بها الأوجاع ونال منها الإعياء كل منال.

«ولات حين المخاوف على مصير، لا مناص منه!».

تذكرت فجأةً ما رأته إبّان ولادة محمد من الرؤيا الغريبة، وما لقي من الرعاية الخفية الغيبية، فأخذت تتمتم: «أعيذه بالواحد من شّر كل حاسد». سيتمكّن محمد - بلا مرية - من مواصلة الحياة، يسيرًا، محروم الأم، كما قضى أشواطًا قاسيةً منها يتيمًا، محروم

الأب؛ حسبه اللّه؛ فهو بعينه، يرعاه في ساعة العسرة، ويشمله بعناية وحراسة لا تغفل.

انبثق الفلق، وتسلّلت أشعة الصباح الشاحبة إلى فرجة الباب، فبُعثت إلى نفس آمنة سكينة غامضة، فصارت كمن يبصر الكائنات وشؤونهم من فوق العرش.

مع إطلالة النهار، خفّت الحمى والأوجاع، وشعرت آمنة بالتحسّن، فاستندت إلى الوسادة جاثيةً، وظلت على تلك الحال.

ها هي قرية الأبواء الضئيلة استفاقت هي أيضًا من طيب المنام، فتعالى صوت الحياة من أكواخها المدرية، وأزقتها الضيّقة الملتوية، وهناك حيث الحضيرة، ارتفع خوار البقر، وتناهى إلى المسامع صرير دولاب الطوايا، وخرير الماء المتصبب في مشارب الدواب.

سمعت آمنة من الزقاق المتاخم للكوخ جلبة سرب من العنز والجداء، وزجر راعيه الذي بدا صغير السن، ففاضت في الغرفة رائحة القطيع، وتغلغل العجاج من فروج مصراعي الباب، ثم حطّت في الباحة بضعة عصافير وراحت تزقزق عاليًا - كأنها تبحث عن بلغة من الطعام - فأثارت بركة بصداحها من المنام، واثبةً مرتبكة، تدير بعينيها حول الفراش فوقع البصر منها على مولاتها؛ فخالجها بغتةً مزيج من الشعور بالفرح والحياء.

- عذرًا يا سيدتي عذرًا، فقد صرفني النوم عنك والإرهاق!

- مهلًا، يا بركة مهلًا، فإنك في الآونة الأخيرة، تكلّفت في سبيلنا أنا وابني كثيرًا من التعب والعناء. لا عليك. هنيئًا لك النوم

والراحة يا أنيس آمنة في أعوامها العجاف، يا صبور، يا شريكة أحزان يتيم عبد اللّه.

لم تصطنعا للحوار الآنف كلمات، بل تداول الكلام بينهما بالنظرات؛ فما حاجتهما إلى النطق باللسان، وحسبهما نظرة، بعد سبع سنين من الأنس والصحبة.

- طاب يومكِ يا مولاتي، يا لَلسعادة! يبدو أنك أحسن حالًا!

- وطاب يومكِ، أيضًا، يا بركة، نعم، أنا الآن أحسن ولكن...

ما إن وقع بصرها على محمد وهو يستيقظ من المنام، حتى أمسكت عن الكلام.

- أنعمت صباحًا يا ولدي، أمسيت مرتاحًا؟

ردّ محمد بابتسامة عذبة، ثم حملق في سحنتها.

قرأت آمنة نظرة ابنها، فطمأنته بقولها:

«لا تهن يا شريك أحزاني الصغير، ولا تحزن؛ فراعيك معك وإن غبتُ عنك».

«استيقظتُ من النوم، فرأيت مولاتي جاثيةً في فراشها، كانت تبدو أفضل حالًا، فسررت ثم انطلقت لآتيها بقدح حليب...، ولكنها لم تشرب منه إلّا جريعات.

بعد أن تناولنا أنا ومحمد الفطور، تشبّثت مولاتي بمحمد تُعانقُه، تشمّه... تقبّله...، وقد أسالت من عينيها الدموع. حطّ محمد رأسه على صدرها، وهو يسحّ العبرات سحًّا غزيرًا؛ فضقت

بالمشهد ذرعًا، فأجهشت بالنحيب والبكاء. أرسلت آمنة محمدًا إلى الفناء في حاجة ما، ثم أهابت بي أن أدنو منها.

أخذت يدي إلى يديها الملتهبتين، وطبعت على وجهي قبلةً، فانخرطتُ في العويل، وقبّلت منها اليدين الناعمتين كالورد. مسحت براحتها الهزيلة على شعري مُلاطِفةً. ثم بصوت طيب يبعث على السكينة، أوصتني بمحمد، أن أسلّمه إلى جدّه وأن لا أخلّي بينه وبين الوحدة ما وجدت إلى ذلك سبيلًا.

قالت لي مولاتي: يا بركة، إنك تعلمين حقًا أن محمدًا في ربيعه السادس، ولد يتيمًا، ولم يذق حنان الأم إلّا قليلًا - لا أخ له ولا أخت، وليس له من بعدي مسلٍّ عن الوحدة. إنه يأنس إليك أنسًا خاصًا، عسى أن يسلّي ذلك همّه، ويريح شجوه.

عاودتني العبرة، فبكيت بكاءً مرًّا، ثم حاولت أن أواسيها وأطيّب خاطرها، وأثير في نفسها الأمل بالشفاء. ولكنها قالت: يا بركة، كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وأنا ميتة. ما ترينه مني هدوء يسبق العاصفة، أنا أدرى بنفسي. ملكتني عيني بالأمسِ بضع لحظات، فساورني طيف عبد اللّه، كان قلقًا على محمد، وطلب إليّ أن أرافقه... أنا على أعتاب الرحيل، يا بركة!

مرّت على إقامتنا في الأبواء، ثلاث ليال بأيّامها. وفي اليوم الثاني انفصلت العير عنّا، واضطررنا على البقاء، فاستأجرنا غرفةً عند عجوز وحيدة عمياء.

تدهورت حال مولاتي خلال اليومين بشدّة، فأخذ منا الخوف أنا ومحمد كل مأخذ، فجرّعتها ما كان بين أيدينا، مما أعرفه، من



الأعشاب، فلم ينجع فيها ثم توسّلنا إلى شيوخ القرية وتشبثنا بهم، فجرّعتها - بلا طائل - ما وصفوه لنا من الدواء. ولمّا ألقت عليّ مولاتي كلامها ذاك، توجّست منه خيفةً، فانطلقت إلى شيخ مكين، ناحبةً، أسأله العلاج، فأوصاني بالذهاب إلى كاهنة حكيمة في ربوة بعيدة عن الأبواء، عجوز جاءتها من مكة، ونصحني أن أخفّ بها إلى مولاتي؛ علَّ في ذلك الشفاء.

طلبتُ من محمد ألا يترك الدار، وولّيت وجهي أنا نحو الكاهنة، ولمّا بلغت بيتها، أعلمتني أمتها أن قد مضت إلى معبدها في جبل الأبواء، ولن تعود إلّا بعد ليال ثلاث.

رجعت إلى القرية متصدّعةً من الغم والأسى، فسمعت، وأنا بباب الغرفة، عويل محمد ونحيبه الجهير، هرولت إليه ساعيةً، فرأيته متضرعًا، واضعًا خدّه على خدّها، وهو يندب بحرقة: أماه، ما خطبك، ماذا دهاك؟ لِمَ لا تردّين عليّ؟ انهضي لنعود إلى مكة! أماه، من لي غيرك؟ كوني عونًا لي على الوحدة...؟!

اصطرخت من الأعماق، وأسرعت إليها. كانت قد أسدلت الأهداب، وتمثّلت لي بوجهها الهزيل، المشرق كفلقة القمر، ملاكًا معذبًا قد غطَّ في سبات عميق.

أدنيت الأذن من صدرها، في ذعر ووجل: قلبها لم يعد يخفق. هممت أن أدكَّ براحتي على هامتي، وأنثر الشعر وأشق الجيب، فانصرفت؛ إذ وقع بصري على سحنة محمد المرعوبة المهمومة، فخفت أن تزهق من عوده الضئيل الروحُ، ثم أهبت بنفسي زاجرةً: صبرًا يا بركة، صبرًا، فها أنت والبقية الباقية من سيديك... أدركي



محمدًا!

بذلت قصارى الجهد لأنحّي محمدًا عن صدر أمه، فقلت له: حبيبي، هي لن تُرجع عليك جوابًا!

ولمّا رأيت على وجهه غاشيةً من الوجوم، أضفت قائلةً: جعلت فداك! هذي هي المنيّة... الأم... ماتت...!».

ها هي الحياة تنتعش من جديد، الفجر يعاود الانبثاق، والشمس تستأنف الأنفاس، والعالم العجوز يستعيد يومًا آخر من دهره الطويل. الفلك الدوّار - بلا انقطاع - يدور ويدور... حياة وفناء، بناء للخراب، وخراب للبناء، وكلٌّ يصير إلى تباب!

«كم من مهلك قوم شهدت، وأنتِ صلبة... قاسية... إياكِ أعني يا شمس، وأنتِ يا أرض.. يا سماء، يا جبال، يا سهول! كأنكِ صخور صمّاء لا تعرف اللين. ألم يخطب هؤلاء القوم ودّك ردحًا من الزمن؛ فلِمَ لا يحزّ فيك رحيلهم، إلى أين تولّين الوجه؟ لِم لا تلوين عليهم!؟... كأن لا عهد لك بهم ولا خلّة. سواء عليك حلّوا أم رحلوا، عاشوا أم ماتوا!! آه... يا للخذلان...!».

القافلة الصغيرة في طريقها إلى مكة كانت تشقّ - في كآبة - قاحل الفيافي بهودجها الخالي. فيافٍ صفصف، ناعمة التراب، صامتة واجمة منبسطة حتى الأبدية. قد قهرت الشمس القاسية رغامها فها هي قد احمرّت والتهبت...

اختلطت الجلجلة الجافية العميقة بالخفيضة المثيرة، جلجلة أجراس ضخمة عُلّقت على جمل آمنة الخالي، وأخرى صغيرة رُبطت بجمل ثانٍ؛ فتغلغلت أصواتها المنعقدة المتشابكة إلى طوايا محمد



وبركة، فهيّجت فيهما خواطر كانت هامدةً غامضة، واستنزفت حزنًا ممضًّا، تسرّب سمّه إلى الشرايين؛ فتفرّت به الأوصال منهما حسرةً وتقطّعت ألمًا...

تمنّت بركة أن تنطوي على نفسها طوال الطريق؛ ليجتلي ذاتها في مرآة الروح، فتتكشّف غيب الكون، وأطواء الحياة؛ فتنال معدن الأسرار إلّا أن بُهت ذاك اليتيم الوحيد، ذاك المنشدّ بساهم النظرات نحو البعيد، بينما كان ردفًا لها على الأدهم، كل ذلك حال دون ما كانت تصبو إليه، بل رأت أن الفرصة قد واتتها للأنس بالدرّة العصماء... أنيسها المحبّب العطوف... إذن كان عليها الانتهاز!

أجل، لقد كان محمد الصغير، الحبيب، الوسيم عينًا تنضح بماء عذب قراح في جَرَز حياتها الموحشة الغريبة... ينبوع ينضح بماء نمير يؤتي أكله ضعفين من الورد والرياحين...

ولد محمد، فانتابت بركة مشاعر الأمومة واحلولت الدنيا في عينيها. كان محمد صبيب رحمة انصبّ على رتابة حياتها إذ عفاها غبار الغربة، فانحسر عنها قاتم الظلمات؛ وأسفرت الدنيا نورًا باهرًا وسنًا ساحرًا. لانَ عليها قلبُ الكون، وتهلّل وجهه الكالح، وأشرقت أساريره ببسمة آسرة...

يا لَشد انشراح صدرها... يا لسعته، لمّا كانت تضمّه إليها وتحتضنه صغيرًا، ويا لسحيق كآبتها، إذ رحل عنها إلى البادية رضيعًا. وها هو الآن قد استودع عندها برعمًا متفتحًا يفوح شذًا وعبيرًا فيبعثها على السكر والنشوة؛ فما عليها الآن إلّا أن تصون الوديعة الغالية، وديعة استودعتها إياها مولاتها آمنة، وهي على

أعتاب الموت، بل عليها أن تشمله برعاية لا تفتر. أليس هو آخر ما تبقى لها من سيّدها عبد اللّه، وحليلته آمنة!؟

- قل لي يا حبيبي، ألست عطشانَ؟!

ارتسمت على شفتيه بسمة كئيبة، ثم أعاد نظراته التائهة إلى البعيد، سائلًا: كم بقي من الطريق؟

أجابت بركة: بضع ليال.

سألته، وهي تسعى أن تشاغله: أروي لك قصة أبرهة وفيله؟

أبرقت عين محمد النجلاء شوقًا، فقال: نعم، إروي يا حاضنة، إروي، إروي...!

قالت بركة، وقد سرّتها حاله: على عيني، يا حبيبي!

انتصبت في موضعها من الرحل ثم بحبحت قليلًا، وربتت على كتفه في حنان، ثم قالت برفق ولين: يعرف العرب وغيرهم الحادثة، وقد سمي العام الذي وقعت فيه عام الفيل، فصار مبدأ تاريخ العرب الحديث.

أتعرف بوّابة مكة، المسماة بوابة الفيل...؟ سميت به لدخول جيش أبرهة منها. والينبوع الذي شربت منه الفيلة سمي ينبوع الفيل، والطريق الذي قطعه الجيش من صنعاء حتى مكة، عرف بطريق الفيل. خلاصة القول، كل موضع رابط فيه جند أبرهة، أُطلق عليه اسم الفيل.

تزحزح محمد على الرحل شيئًا ما، ثم سأل: وأين تقع صنعاء...



ثم كيف يتم الوصول إليها؟؟

- صنعاء في اليمن. واليمن في جنوب مكة.

- أليست صنعاء على طريقنا؟

- كلا، يا حبيبي، يثرب في شمال مكة، واليمن في الجنوب منها. واليمن هذه أرض واسعة، عامرة. أهلها من العرب، ولهم قرابة بعيدة بقريش.

- في رحلتي مع حليمة إلى مكة، التقينا بنفر منهم كانوا بيضًا.

- نعم، بشرتهم أشدّ بياضًا من أعراب البادية ومكة ويثرب، مع أنهم يعيشون في شبه الجزيرة، ويتحدثون كافةً بالعربية.

- سبق أن قلتِ إن أبرهة، ملك اليمن، كان أسود اللون، ألم يكن من اليمن!؟

قبّلت بركة رأسه من على كوفيته البيضاء، وقالت: فدًى لذكائك. لا، لقد كان أبرهة من الحبشة، أرض شاسعة، تمتد ما وراء البحر الأحمر، ولكن اليمن في جانب آخر من البحر.

- إذن، ماذا كان يفعل أبرهة في اليمن!؟

- قصتها يا حبيبي طويلة جدًا، أخشى ألا تطيق سماعها. نعم، كان أبرهة من قوّاد الحبشة، التحق بمن عبّأ النجاشي من الرجال لينطلقوا إلى اليمن بقيادة أرياط. ولمّا لم يطق ذو نواس - ملك اليمن - وجنده الوقوف في وجه الأحباش ولّوا الأدبار، ملّك النجاشي أرياطَ اليمن.



- وأنتِ أيضًا من الحبشة، يا حاضن؟

- نعم، يا حبيبي، لقد جيء بي من وراء البحر، مستعبدةً.

- كيف استولى أبرهة على ملك اليمن؟

- لمّا أقام أرياط بأرض اليمن بضع سنين بل قيل سنتين، طمع في ملكه أبرهة، فانحاز إليه طائفة من الجيش. كان أرياط أنئذ في صنعاء ومخاليفها[1]، وأبرهة في الجَنَد وحواليها.

- وأين تقع الجَنَد؟

- الجَنَد من أعمال اليمن، على بعد أربعين فرسخًا من صنعاء، خبيث الهواء، رنق الماء... هذا، ولمّا أحسَّ أرياط منه الخيانة، عزم على تقريعه، ونزاله، فسار بعضهم إلى الآخر، ووقع بينهما وبين من انحاز إليهما من الجيش قتال؛ فسقط من الجانبين قتلى؛ فأرسل أبرهة إلى أرياط: يجمعني وإياك الدين والبلاد [والواجب عليّ وعليك أن ننظر لأهل بلادنا، وديننا، ممن معي ومعك] فإن شئت فبارزني، فأينا ظفر بصاحبه، كان المُلْك له. ولم يقتل الحبشة بنا.

استحسن أرياط رأيه ورضي به. وكان مغوارًا، عظيمًا، وسيمًا، طويلًا، بينما كان أبرهة فارسًا، مقدامًا، لحيمًا، دحداحًا[2] تعلوه حدبة.

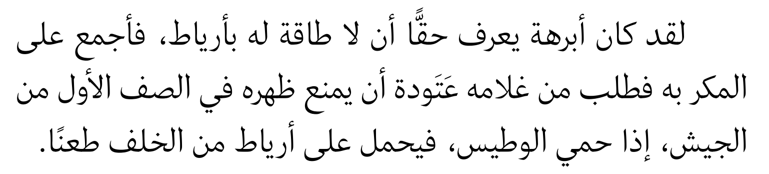
قال أرياط: لقد أنصف إذ تحدّاني ودعاني إلى البراز، فلِمَ لا

---

(١) جمع المخلاف: الكورة من البلاد. [المعرّبة]

(٢) الدحداح: القصير، الغليظ البطن. [المعرّبة]

أنازله، ما دام يريد أن يشري بنفسه؟



لقد كان أبرهة يعرف حقًّا أن لا طاقة له بأرياط، فأجمع على المكر به فطلب من غلامه عَتَودة أن يمنع ظهره في الصف الأول من الجيش، إذا حمي الوطيس، فيحمل على أرياط من الخلف طعنًا.

وفي غده، اصطف الخميسان ليشهدا منازلة البطلين العلمين.

دُقّت الطبول، فخرج أرياط من بين الجنود، عليه درع من قاني الجلود، وفي راحته قناة عالية، ثم برز أبرهة، فبادر إليه أرياط برمحه يريد ياخوخه، فمال أبرهة برأسه في سرعة فشرم حاجبه وعينه وأنفه وغليظ شفتيه.

فلمّا شهد الغلام ذلك، انقضّ على أرياط من الخلف، وطعن قلبه.

خلاصة الحديث: لمّا قتل أرياط، انصرف جنده إلى أبرهة فعنت إليه بالرقاب. فإذا بلغ النجاشي الأمر، غضب - كما يقال - غضبًا شديدًا؛ مما عدا أبرهة على أميره فآلى بالمسيح أن يطأ بنفسه ملكه باليمن، ويريق دمه، ويجزّ ناصيته.

تناهى إلى مسامع أبرهة الكياسةِ والحلمِ ما عزم عليه النجاشي، فأجال الذهن في حيلة تنجيه، فحلق من شعره، وضمّه إلى خرقة جلد، ثم ملأ جرابًا من التراب، وطلب إلى الحجّام أن يفصد عرقه، فيملأ بدمه قارورة، ثم بعث بكل ذلك إلى النجاشي، وكتب إليه: «إنما كان أرياط عبدك، وأنا عبدك. فيك اختصمنا؛ إذ لم يكن أرياط بقادر على ضبط الجيش، ولا سياسة الملك، وقلوب الجند كانت منه شاكية، عليه متألبة، فخفت أن يؤول أمر الحبشة





إلى نزاع، ويتفرّق شملها؛ فتضيع عنّا اليمن، فجرى مني ما جرى... ألا أقسم بالمسيحية والأب والابن وروح القدس، أن لك ملك اليمن وما فيها، وأنا أميرك عليها؛ فأنا أقوى على أمر الحبشة من أرياط، وأضبط وأسوس... وبعدُ، أفي هذا يريد الملك أن يسير بنفسه وجيشه ليطأ اليمن!؟

ثم إنه بلغني أن الملك آلى أليته، فهذا دمي، فليسفكه، وهذا شعري، فلينتّفه بنفسه، وهذه أرضي، فليطأها الملك تحلةً من قسمه».

أرفق أبرهة بكل ذلك هدايا سنيةً، وبعث بها إلى بلاط النجاشي. ويحكى أنه قد رضي عنه. وقال في بسمة: ما أدهى هذا الأشرم! ثم أقرّه على ملكه.

أجل، يا حبيبي، هكذا تملّك أبرهة اليمن!

أخـذ النـهار يضطرم مـن شـدّة القيظ، وراح وهـج الشمس يلفح الوجوه، فهمّت بركة أن تأمر محمدًا بالعودة إلى الهودج، إلّا أنها انصرفت وارعـوت؛ خشية أن يتنّصل من القبول كما كان يتنصل كلما تشير عليه بذلك؛ فنفسه لا تطاوعه بالجلوس مجلس أمه، حيث كانت تستند إلى الوسادة الصغيرة، وتضمّ رأسه في حجرها، وتربت على شعره بأناملها الرقيقة. ويبدو أن بركة هي أيضًا كانت تربأ بنفسها عن الجلوس مجلس مولاتها الغالية. فكأن مصادقةً غير معلنة تمّت بين الأمة الحبشية، واليتيم القرشي الشريف على أن يبقى هودج آمنة خاليًا، ويُردفها هو من الأبواء حتى مكة.

كيف يصدّقان غيابها، أعني غياب آمنة، الطلقة الجبين، الباسمة الثغر، الكاسفة البال والفؤاد، المحجوبة في حلكة التراب، تلك التي شطّت بها غربة النوى. كيف يصدّقان أن يغور البصر في الرأس والأحداق وينكسف ضياء عينها الفاتنة، الطافحة حياءً، عين تسرّي عنهما هموم الدنيا... غمومها. كيف يصدّقان أن صوتها الحلو الحنون، الشفيق الرقيق لن يعود يشنّف منهما الأسماع.

خلال ما مرّ من الأيام، تمادى محمد في العويل والبكاء، فلم ينقطع عن النحيب، ولم يرقأ له دمع ولا عبرة، فتوجست عليه بركة

خيفةً وخشيت أن تزهق روحه المرهفة، فتفارق عوده الغض لتلتحق بأمه.

لم تكن تترك محمدًا وشأنه لحظةً - وإن كانت تبكي هي دمًا في الأحشاء - لم تتركه؛ لكي لا تأخذ الهواجس منه مأخذها، وتعصره الآلام. كان عليها - إرضاءً لروح مولاتها - أن تهوّن عليه الخطب وتطيّب خاطره، وتعود به إلى جدّه موفورًا، سالمًا، وإن ظل سؤال ذوي آمنة عالقًا في ذهنها، يلحّ عليها بالجواب: كيف غدوتِ بآمنة، ثم رجعتِ من دونها!؟

- حبيبي، ألست ظمآنًا!؟

- لا، ألا تواصلين قصة أبرهة!؟

- ألست مرهقًا؟ تعال لنتفيأ ظلال الصخور، ونرفّه عن الجسم؛ فنستعيد الطاقة. ألم تكن تصرّ أنت على الإسراع في العودة، فلنسترح الليلة!

قبل أن تلحّ الشمس على الأرض بلاسع وهجها، راحت غيمة تلوح في السماء رويدًا رويدًا لتمدّ على رأسيهما الظلال...

انطلقت بركة إلى القربة المعلّقة على البعير، وصبّت منها في القدح ثم قدّمته لمحمد، قائلةً: إشرب، وإن لم تكن عطشانًا، إشرب؛ فوطأة الحرّ شديدة، أخاف عليك منها.

تشبّث محمد بالقدح، خوفًا من أن يتصبب الماء بترنّح البعير وهزاته، فأدناه من الفم، وعبّه في سرعة، ثم أعاده إلى بركة.

ضمّت بركة القدح إلى عِدل البعير، وقالت ببسمة حزينة:



اليمن أطيب مدن العالم، وأروعها جمالًا، فيها قرًى كثيرة، جبلية وسهلية، برية وبحرية. عدن وحضرموت تطلان على البحر، وصنعاء - مقرّ الملك - في البر.

اليمن - كأنها جنة - غزيرة المياه، خصبة، كثيرة الدوح والبساتين. للتجارة فيها سوق رائجة، وإليها - كما تعلم - رحلة قريش في الشتاء.

أجل، عرف أبرهة - على حين فترة - أن الناس يحجّون مكة أفواجًا من كل صوب وحدب بالجزيرة العربية، فتحرّى السبب والدليل. قيل له: في مكة بناء، يدعى الكعبة، يقصدها العرب كل عام، زائرين، طائفين. وتقام فيها وفيما يحيطها إبّان الحج، أسواق نافقة رائجة.

سأل أبرهة: وما هذي الكعبة التي يتلهّف إليها العرب شوقًا؟

قيل: بناء مربع، بسيط، من سجيل، أحيط بثياب.

راح أبرهة منذ ذلك الحين، يفكّر في بناء كنيسة بصنعاء، لم يُر لها في الجمال والجلال مثيل، ثم أخذ يؤذن بالحج في أهل الجزيرة؛ ليغضّ من الكعبة، ويرفع شأن اليمن وصنعاء. ولمّا كتب إلى قيصر، ملك الروم، وإلى النجاشي، وبعض النصارى، وأحاطهم علمًا بما كان يصبو إليه، أثنوا على ما عزم، وأسدى كلٌّ إليه العون ولا سيما قيصر؛ فقد مدّه بالصنّاع والفسيفساء ومتنوع الرخام.

نقل أبرهة إلى صنعاء، المرمر المجزّع، مما تبقى من أنقاض صرح مأرب الضخم، أو السبأ - كما يدعى - حيث كانت تحكم بلقيس صاحبة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ. ومأرب هذه تقع في شرق صنعاء

وعلى بعد ثلاثة فراسخ ونصف الفرسخ.

أمر أبرهة الناس كافةً أن يتناوبوا في البناء، فمهّدوا موضعًا منيفًا يحاذي القصر في هضبة شاسعة، ثم رفعوا بها قواعد بناء مربع، مستوي التربيع.

استذلّ أبرهة أهل اليمن بضع سنين في بنيان الكنيسة، وجشّمهم ألوانًا من السُّخَر، وآلى ألّا تطلع الشمس على عامل، لم يضع يده في عمله، إلّا قطع يده، فقطعت بذلك أيدٍ كثيرة، من الرجال والنساء.

تمخّض عن البنيان كنيسة ضخمة، لم يُر أحسن منها. حولها سور. بينه وبين الكنيسة مئتا ذراع مطيف بها من كل جانب، افترش بحجارة [تسميها أهل اليمن الجروب] مصقولة، منقوشة، لا يدخل بين أطباقها إبرة. ومن الجروب شيّد السور، طوله عشرة أذرع، وعرضه ثلاثة.

فصّل بين جروب الشَرَفات بحجارة مثلثة، مداخلة بعضها ببعض، حجرًا أخضر ثم حجرًا أبيض، ثم أحمر، أصفر، أسود...

وعلى السور أبراج رخامية، مدوّرة الرأس، تنأ منها بُريج، طوله ذراع، قد فصّل مرمره بحجارة سود، لامعة، حملت من نُقُم (جبل صنعاء المشرف على الجانب الشرقي من الكنيسة) ثم رصّت بحجارة صفر وأخرى بيض، برّاقة كالفضة واللجين.

وفي جوف المكان، بناء مربّع، طوله ثلاثون ذراعًا، يشرف منه - كما يقال - على بحر عدن. له مراقٍ من رخام.



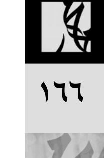
البناء مشيّد في ثلاث طوابق، لكلٍ لون. يمتدّ منها أعمدة من الخشب المزخرف. قد فصل نتوء حيطانها بالرخام، يعلوها حجارة سود لمّاعة ثم حجارة بيض.

له باب من نحاس، خمسة أذرع في أربعة. تصاويره البديعة نقشت بالذهب والفضة وصنوف الجواهر. يدخل منه إلى قاعة، يبلغ طولها نحو أربعين ذراعًا في عرض عشرين ذراعًا. امتدّت بها عَمَد من الساج دُقّت فيها مسامير الذهب والفضة. طول الإيوان عن اليمين واليسار عشرون، عقوده مضروبة بفسيفساء مشجّرة. يلي الإيوان ساحة مفروشة بالقاشاني اللازوردي، خمسة عشر ذراعًا في خمسة عشر. بين أضعافها صُلْبان، منقوشة بالذهب، أو كواكب الفضة. في القاعة خشبتان من الساج، برز فيهما رأسان عجيبان كرؤوس الناس؛ مما أفتن بهما - كما يقال - أهل اليمن فسمّوا أحدهما كعيت، والآخر زوجه. علا الموضع قبة منمنمة بالفسيفساء، والصلب الذهبية. كان فيها رخامة تلي مطلع الشمس، شفافة كالقوارير، تؤدي ضوء القمرين إلى الداخل. تحت الرخامة منبر من الآبنوس، إلّا أن درجاته من الساج الملبّس بالذهب والفضة، والمفصّل بناصع العاج. من القبة وسلاسلها الذهبية تدلّت قناديل معدنية، من صنع الشام. وأطلقت في الموضع مباخر، من المعدن، يتحرّق فيها من الطيب، ما كان يفوح عرفه إلى الفضاء.

سمّيت الكنيسة القُلَّيْس لعلو قبتها وارتفاعها[1] - كما يقال -

---

(١) **كتاب الأصنام (تنكيس الأصنام)**، ص ٤٦.



وجعل لها أبرهة برنسًا من فاخر الثياب، ورتّب لها القساوسة، وأمر القرى ببناء الكنائس، والدعوة إلى النصرانية، وإلا فرضت الجزية على من يأبى الاعتناق.

طيّر أبرهة أنباء القليس في الآفاق، فكتب إلى النجاشي: «أني قد بنيت لك كنيسةً، لم يُرَ لها في الدنيا مثيل»[1]، ثم أمر برسم صورة للبنيان على الجلد ليرفق بالكتاب.

ذاع صيت القليس في المعمورة، فخفّ إليها الرهبان من كل مكان، وقرّبوا القرابين، مشيدين بأبرهة، مثنين على ما قام.

لمّا ألمَّ قيصر بالنبأ، مدّ الكنيسة - هذه المرة - بألوان الأصباغ وصور لعيسى ومريم والمقدسين من النصارى.

كتب أبرهة إلى النجاشي: «لم ير ملك من الملوك أو يسمع بعامل يقوم بما قام عاملك في اليمن. فها هو ذكرك راح يعلو ولا يعلى عليه».

سرّ النجاشي بالكتاب، ثم أشاد بأبرهة وأطراه.

وكتب إلى النجاشي أيضًا: «ثمة للعرب بناء صخري، يدعى الكعبة، يحجّونه ويطوفون حوله، إلّا أن كنيستك هذه أفخم، فاصرف إليها حجّ العرب، تزدد هيبة وفخرًا، ثم يخلد ذكرك».

هشّ النجاشي بالاقتراح، ووافقه عليه.

أشار أبرهة - بادي الأمر - إلى مَن في اليمن من اليهود

---

(١) **الكامل في التاريخ**، ١/ ٤٤٢.



والنصارى ليقصدوا القلّيس، ثم أوعز بذلك إلى الجزيرة. وجعل على مداخل مكة من يمنع العرب حج الكعبة، أو يضطرهم إلى الكنيسة.

بلّلت بركة برشفات اللسان جفاف الشفاه، ثم قالت: ها قد آن الأوان لنتزود الراحة والطعام؛ فلا بدّ من أنك تعبت من سماع القصة، فلنعد إليها بعد الإخلاد إلى الراحة. ثم مالت بالجمال الثلاث إلى جانب من الطريق، حيث مجمع نخيلات، مسّهن الهرم.

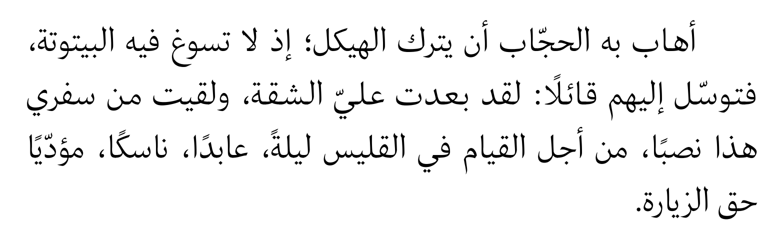


- كان أبرهة ذا دين راسخ في النصرانية، وقد عقد على القلّيس عراض الآمال، إلّا أن أفواج العرب لم تنفك تؤمّ البيت الحرام، من كل فجّ عميق، فخابت منه الظنون.

مضى القوم يحملون إليه أنباء اليمن؛ فقد كان أهلها يتثالون على مكة زرافات ووحدانًا، خُفيةً، أو على رؤوس الأشهاد، فتثور حفيظة الرجل وموجدته، فيرهقهم بصارم الأوامر عسرًا، إلّا أن فادحته كانت أعظم مما يتخيله أو يتصوّره.

استمرّ به الوضع على هذا المنوال، حتى استشاط به الغيظ والحنق؛ فأجمع على السير إلى الكعبة؛ فهاج الناس وماجوا، في دهشة وحيرة، كلٌ يريد أن يعرف سبب الخروج، فقال بعض: خرج ثأرًا مما قام به الرجل من بني فُقيم[١]. وبنو فقيم من بطون بني كنانة، كانوا على الطريق بين اليمن ومكة، ضاق أحدهم بما عزم عليه أبرهة، فتمثّل نصرانيًا من الرهبان، وانطلق صوب صنعاء، فتظاهر أنه يريد القلّيس بعد أن ضرب في الأرض طويلًا. دخل الكنيسة زائرًا، ومكث فيه حتى جنَّ عليه الظلام.

(١) **المنتظم**، ٢/ ١٢٢؛ **وإمتاع الأسماع**، ٤/ ١٨١. [المعرّبة]



أهاب به الحجّاب أن يترك الهيكل؛ إذ لا تسوغ فيه البيتوتة، فتوسّل إليهم قائلًا: لقد بعدت عليّ الشقة، ولقيت من سفري هذا نصبًا، من أجل القيام في القليس ليلةً، عابدًا، ناسكًا، مؤدّيًا حق الزيارة.

أيجمل منكم أن تمنعوني، فلا أقضي وطري من الموضع المهيب هذا، ويذهب سعيي ذاك سدًى، قالها وهو يجهش بالعويل ويصرّ عليهم كل الإصرار فرقّ له قلب السادن، فأذن له بما أراد.

أوصد الحجّاب وراءهم الأبواب، وتركوه حيث كان. فإذا تقدّم النهار، أحدث الكناني فيه كثيرًا، ثم قام يلطّخ بعذرته القليس وزينتها ويلوّث الجدران فيها والأبواب، ثم انسلخ بعدُ متسترًا. ولما فتح السادن مع الفجر، الباب، تسلّل الرجل لواذًا.

لمّا أحيط أبرهة بما حصل خبرًا، ثارت ثائرته، وجنّ جنونه، فعقّد الأيمان من فوره ليسيرنّ إلى البيت ويهدّمه، وينقضه حجرًا حجرًا فيحمله إلى اليمن. ثم أوعز إليهم أن يطهّروا القلّيس بماء الورد الفارسي ويضمخّوه بالمسك والعنبر، ويطلقوا فيه ألف مجمر يفوح طيبًا، يزول به النتن من الروائح. ثم كتب إلى النجاشي يسأله فيله الأبيض، (فيل ما كان يتقدّم جيش الأحباش، إلّا حالفه الانتصار).

وبعض يقول إن جماعة من تجار مكة نزلوا عند سور القلّيس، فأوقدوا نارًا يصطلون عليها، ويصلحون بها طعامًا، ثم رحلوا عنها ولم يطفؤها، فاشتدّت بها الريح في يومهم العاصف، فاضطرمت في الأسوار النار... فسرّ لفيف من الناس بالنبأ فور سماعه، لما نال

أبرهة وملك الحبشة والهيكل من الغضاضة، إلّا أن كبار القوم ارتابوا فيما ذهب إليه هؤلاء، ورأوا أن أبرهة لفّق القصة هذه ليتخذ إلى هدم الكعبة سبيلًا، ويضطر الناس إلى القليس.

بلغ مسامع الناس انبعاث أبرهة ومسيره إلى مكة بكتائب ضمّت ستين ألف مقاتل، سود كالخطاطيف، مرعبة كالغيلان، واثبة كالضبان ثم زوّدهم بثماني فيلة.

قيل إن ذا نفر أمر بالاستنفار ليصدّ سبيل كتائب أبرهة... [وذو نفر هذا رجل أيُّما رجل، أصله من حمير، قوم حكموا اليمن قبل أرياط]، ثم انثال عليه رجال من أعمال مكة يريدون عونه، فبلغ من تعبّأ عشرة آلاف. لكن أبرهة انقضّ عليهم، فولّوا مهزومين، فأُسِر ذو نفر.

همَّ أبرهة بقتله، فقال له ذو نفر: أيّها الملك، لا تقتلني؛ فإن أكون معك خير من قتلي. فعسى ببقائي تدين لك جماعة عظيمة من اليمن؛ فتركه أبرهة، وقد كان حليمًا؛ فظلّ ذو نفر عنده موثوقًا.

ويقال إن أبرهة لمّا وافى بجيشه خثعم، صدّ سبيله نفيل شريف قبيلتها. [لخثعم بطنان: ناهس وشهران، عاش بين ظهرانيهم خمسون ألف بيت، جمّع منهم نفيل عشرة آلاف]، فانهزمت خثعم ثم أُسِر نفيل، فلمّا أراد قتله، قال له: يا أبرهة لك عهد بمكانتي بين العرب، فاتركني ولا تقتلني، عسى أن تستعبد بذلك خمسين ألفًا ممن يقومون دوني، أسألك الأمان؛ لأكون لك على أرض العرب عونًا؛ فلا بدّ لك من دليل عليها. والفيلة - كما عرفتها - مهياف، تشرب من الماء عشرة أضعاف البعران.



لم ير أبرهة إلّا أن يخلّي سبيله، ويستعين به على الطريق بين مكة واليمن، ويستدلّ به على البرك والينابيع، فيشفي غليل الجيش والفيلة، ويصونهم دون الهلاك عطشًا. فلازمه نفيل حتى الطائف، رائدًا... دليلًا.

لما بلغ بهما الحديث إلى الطائف، قال محمد ببسمة كئيبة: قبيلة مرضعي بالبادية كانت تشدّ كلَّ ربيع إلى الطائف وربوعها الرحال فيعود عنها زوج مرضعي محمّلًا بألوان الفاكهة، وأصناف الثمار.

مسحت بركة رأس محمد بلطف وحنان، ثم قالت: كنتُ فيها وقتًا ما. مدينة غزيرة الماء، لطيفة الهواء، كأنها من مدن سواحل الشام.

أجل... الطائف أعطت يدها إلى أبرهة، ثم إليه خرج مسعود بن مُعتَب في رجال البلدة وقال: أيها الملك، إنما نحن عبيدك، سمعًا لك جميعًا وطاعة. ليس لك عندنا خلاف، وليس بيتنا هذا بالبيت الذي تريد (يعنون بيت اللات. كان العرب يعظّمونه بالطائف).

أحس أبرهة بالرضا والانشراح، فألقى جيشه بالمدينة عصا الترحال، ريثما ينيخ ويستريح، فيزول عنه وعثاء الطريق. ثم إن أهل البلدة أكرموا وفادتهم، وأعدّوا لهم ما يصلح للسفر من الزاد والماء، وعلف الفيلة والدواب، وبعثوا معهم أبا رغال يدلّهم على السبيل.

دبّ في أهل مكة الرعب والهلع؛ فالطائف لا تبعد عنهم إلّا اثنى عشر فرسخًا؛ فانثال على أبرهة أشراف من العرب يقولون: لك

ثلث الدواب وكل ما نملك، على أن ترجع عنّا، ولا تهدّم البيت. إلّا أن أبرهة أبى ورفض.

لم ير الأعراب فيلًا من قبل، فأثار منهم الانتباه، وصار حديث الساعة، فأخذوا يتداولون بينهم أمره. فقال بعضهم: «ضخم كربوة، تطاول المشارف والمباني» وأضاف آخر: «سيقانه كعمدٍ ممددة»، وآخر أدلى بدلوه قائلًا: «خرطومه - كما يقال - أنبوب سميك، يلامس من طوله الأرض، فإذا جاش الفيل صدرًا، قلع به الدوح من الأشجار، وقذف بها بعيدًا» أو «له نابان أضعاف الصوارم طولًا»، وفاض آخرون في الحديث عن نعراته التي تقطّع من أشجع الشجعان النياط.

خلاصة القول... ما انفكّوا يتحدثون عن مهيب طلعتها حتى أحاط بهم اليأس وقنطوا من كل وجهة، واستبدّ بهم الهلع وداخلتهم الحيرة؛ فحمّلوا ما حمّلوا من الأثاث والدواب، وانطلقوا بها إلى شعاف الجبال.

آن الاوان لحلول الصعب من البلاء، فأمر جدّك، عبد المطلب الناس أن يتحرّزوا بالكعبة، وراح يهوّن عليهم الخطب، ليُفرِّغ عن قلوبهم الرعب بما كان يحكي لهم من أمر الملوك الثلاث الذين همّوا - بلا جدوى - بهدم الدار. لكن الآذان في ساعة الفزع تلك، كانت في صمم عن الإصغاء، فانبرى بعضهم يردّ عليه: لقد كان الثلاث منا العرب، بينما الجيش هذا من الأحباش، لا تأخذه فينا غيرة ولا حمية، ثم إن أبرهة جاء بمرعب الفيلة مما لم يأت بها هؤلاء، كأنها المجانيق لا نأمن منها شرًّا ولا معرّة.



ولّى منهم الدبر من ولّى، فقال جدّك: أنا أستحيي من اللّه أن أهرب عن بيته وحرمه. فواللّه، لا برحتُ من مكاني، ولا نأيت عن بيت ربي حتى يحكم بما يشاء. ثم دعا الأشراف إلى نادي القوم، ليطّلع على ما يرتأون، وما إليه يذهبون.

كلٌ قال: لا طاقة لنا بجيش الفيل، ولا نرى إلّا أن ننجو بأرواحنا هاربين.

تناهى إلى القوم أن أبرهة وكتائبه نزلوا بالمُغمِّس (على بعد مرحلتين من مكة) حيث انقضّ نفر من العرب على أبي رغال. فتفاءل جدّك بالنبأ مستبشرًا، واغرورقت في أحداقه العبرات، وهشَّ أهل مكة للخبر، وأشادوا بالقاتلين. فما زالت العرب تلعنه راجمةً إذا مرّت بقبره، حتى تراكبت عليه ركام من الصخور والأحجار ما يطاول الآكام.

أرسل أبرهة إلى مكة رسولًا، وكلّفه أن يسأل عن سيّدها وعظيمها، فدلّوه على عبد المطلب، فجاءه يقول: إن أبرهة، ملك اليمن بعثني لأبلّغك أنه لا يريد القتال ولا الحرب، وإنما يريد أن يهدّم هذا البيت، فإن خُلّي بينه وبين الكعبة، فهم آمنون.

ردّ عبد المطلب: ما نريد حربه، وما لنا بها من طاقة. الحرم حرمه، والدار داره، ودار خليله إبراهيم، يمنع عنه ما يشاء، وما لنا عنه من دافع، فربّ الدار أولى بالدار.

خفّ الرسول عن مكة قافلًا، ولم يبق يومئذ بها إلّا جدّك، عبد المطلب.

أجل، انفضّ الناس عن الحرم، فانكفأت البلدة منطويةً على



نفسها في وحشة... في سهوم، وظل بها عبد المطلب بخانق عبراته، ثم انطلق إلى الكعبة، وتشبّث بثيابها الشاحبة التي مسّتها لفحات الشمس، ثم استكان لربّه وتضرع:

لا هُـــمّ، إنَّ الـعـبـدَ يَـمـن — عُ رحـلَـهُ، فـامـنَـعْ حِـلالـك
لا يـغـلـبـنّ صـلـيُـبُـهـمْ — ومِـحـالُـهُـم غَـدْرًا مِـحـالـك
فـإن تـركـتْـهـم وكـعـبـتـنـا — فـوا حـزنًـا هـنـالـك
جـرّوا جـمـوعَ بـلادهـم — والـفـيـلَ كـي يـسـبـوا عيالك
عَـمَـدوا حِـمـاك بـكـيـدهـمْ — جَـهْـلًا، ومـا رَقِـبـوا جلالك
فـانـصـرعـلـى آل الـصـلـيـب — وعـابـديـه الـيـوم آلـك[1]

وقال أيضًا:

يـا رَبِّ، لا أرْجُـو لهم سواكا — يـا رب، فـامـنـع منهم حماكا
إنّ عـدوَّ البيـت مـن عـاداكـا — امـنـعـهُـمُ أن يُـخْـرِبُـوا قـراكـا

ثم ذرف جدّك دموعًا تترى، قرّحت منه الأحداق حتى وشت لزوجته السمراء أثر ساعات بمكنون حزنه، ومتواصل نحيبه.

وعند الأصيل، أُخبر عبد المطلب أن كتيبة من جيش أبرهة أصابت مئتي بعير له، فانطلق من غده، معه بعض بنيه حتى أتى العسكر، فسأل عن صديقه ذي نفر فجاءه فقال له: يا ذا نفر، هل عندك ما يغنينا عمّا نزل؟

أجابه: يا ابن العم، ما يغنيك أسير يترقّب الهلاك غدوًّا أو عشيًا؟

(١) **تاريخ الطبري**، ١/ ٤٤٢. [المعرّبة]

قال عبد المطلب: وهل من سبيل؟

رد عليه ذو نفر: لي عهد بأنيس، سائس أكبر الفيلة، هو ممن يفد كلّ يوم على أبرهة ليحيطه خبرًا بأحوال الجيش. سأسأله أن يذكرك عنده، ويستأذن لك بالدخول عليه.

ذهب ذو نفر إلى أنيس، وكلّمه في أمر عبد المطلب قائلًا: لي بقريش قرابة ما. وهذا هو عبد المطلب، سيّد مكة، وصاحب عيرها في السهل والجبل، أسخى العرب يدًا، بل ليس بينهم أوسع منه كرمًا، يطعم في السهول، الفقراء، والوحوش في رؤوس الجبال، فهل لك أن تعيد إليه إبله؟

قال أنيس: سأذكره بخصاله هذه عند أبرهة، وسوف أستأذن له؛ ليكلّمه هو في الإبل.

في موضع منيف بين العسكر، نصب سرادق من الديباج، رفيع العماد، عليه راية الحرب مرفرفة بهبات الأنسام، قانية، يتوسّطها صليب أصفر. فيه تربّع أبرهة على العرش المرصّع بالذهب، مستندًا إلى وسادة ملؤها ريش الوز. ما إن أُخبر أبرهة بوصول شريف مكة، حتى بادر إلى التاج ليضعه على الهامة، ويتلبّس بالرداء الملوكي، وذلك ليلقي في روع عبد المطلب الهيبة... ثم أشار عليه بالدخول.

جدّك - كما تعلم - جسيم، مهاب، يملأ العين جمالًا ووسامةً، فإذا دخل على أبرهة، أجلّه وأكبره؛ فنزل له عن السرير مرحّبًا، ولم يعد إلى العرش، بل اتكأ إلى جانبه على أريكة صغيرة منصوبة على البساط.



عظّم أبرهة شأن جدّك كلّ التعظيم، ثم كلّف الترجمان أن يسأله حاجته.

طلب عبد المطلب أن يردّ عليه الإبل.

ما إن فسّر الترجمان جوابه، حتى تغيرت من أبرهة الحال ولحن الكلام، فقال: لقد أعظمتك حين رأيتك، فإني لأصغر من شأنك الآن كنت أظن أنك ستحدثني في بيتك هذا، الذي أريد هدمه وهو دينك ودين آبائك، وشرفك، وشرف آبائك، فإذا أنت تحدثني في بضع إبل!!

ردّ عليه عبد المطلب: في بيت اللّه أكلّمك؟ لله أتشفّع عند عبده!؟ أنا...!؟ ومن أنا...!؟ وهل لعبد ذليل مثلي القيام بذلك؟ للبيت ربّ يحميه ويمنعه، وإنما أنا ربّ لإبلي![١] فأمر أبرهة أن يعاد لجدّك البعران...

... في بطء وفتور، تقدّم جيش الفيل نحو الأبطح ليعسكر فيه.

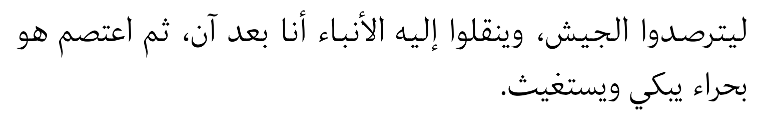
أوعز أبرهة بالهجوم في تالي يومه، إذ أشرقت الشمس بين الشعاف، فقرعت الطبول، ونفخ في الصور، كأنما دوت الرعود، فانطلق الخميس صوب مكة في نسق مدهش عجيب.

لمّا اطلع على الزحف من تحرّز بالجبال، ارتعدت فرائصه هلعًا، وتنكّص على الأعقاب.

جعل جدّك على رؤوس الآكام بنيه ونفرًا من الغلمان؛

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ٥٠؛ و**تاريخ الطبري**، ١٣٤/٢.[المعرّبة]





ليترصدوا الجيش، وينقلوا إليه الأنباء أنا بعد آن، ثم اعتصم هو بحراء يبكي ويستغيث.

لمّا راحت الكتائب تتخذ سبيلها نحو مكة، انتفخت من عبد المطلب الأوداج، وثار في وجهه الدماء، فبادر يقول: قد اغترّ أبرهة بالحرم، سيذوق وبال وقاحته وصلافته.

كان الفيل الأبيض يتقدّم الجيش كالشامخ من الجبال، ومن ورائه الطليعة من الفرسان قد امتطت الفيلة والجرد من الجياد. عاج الفيل الأبيض رُصّع بالجواهر، والتمعت بين عينيه ياقوتة ضخمة، وتدلّت على عنقه زاهي الشرابيب ومسكوكات الذهب والفضة. افترش بعض ظهره قطعة جميلة من السجاد، وتدرّع بعضه الآخر.

نتأ من هامات الفيلة قرنان من الفولاذ، وعلى عاجها صيّر المهند من السيوف. قد دجّج الجيش والفرسان بالسلاح، بالخوذات والسوابغ من الفولاذ. كلٌ كان يحمل بيده ترسًا عظيمةً، وعلى جانبيه بيض عياطل[١] إلاّ أنّ الطليعة كانت تحمل إلى ذلك كله العوالي من الرماح.

حملق أهل مكة في جيش الفيل واجمين... مبهوتين، بينما كان الجند يستمر زحفه في هوادة... في وداعة. ثم ازدادوا رعبًا إلى رعب؛ إذ دوّى في الجو صدى متداخل، بل طنين شؤم، وهدير رعب، هائل، بعد أن تشابك صليل السيوف بلجب العسكر والسنابك.

---

(١) العيطل: الطويل العنق. [المعرّبة]



الهواء ثقيل... راكد، والنسيم لا يراوح مكانه... خامد، ورهج الخميس وعثير الأقدام يمور كقزع السحاب أنا بعد آن؛ ليتّخذ فوق الهامات مستقرّه.

دخل الجيش من حيث يسمّى اليوم بوّابة الفيل، فظنّ الناس جميعًا أنّ الهلاك بهم لواقع، إذا ما هجمت الفيلة كالمجانيق، وسوّت بالأرض الكعبة ودور مكة.

ما إن أشرف كبير الفيلة على الحرم، حتى حرن، وأبى الحراك، فانهال السائس يضرب رأسه بالمحاجن[١] والطبرزين[٢] فأدمى منه المراق[٣].

ولكنه برك واستعصى على الانطلاق ثم رفع العقيرة، كمرزءة ثكلى تئنّ وتُعوِل.

قال أنيس، وهو على معرفة بطباع الفيلة: في الأمر سرّ! وقال فيّال: ربما سُحِر!

حذت الفيلة حذو كبيرها، فلم تتقدّم قيد أنملة.

اشتدّ أبرهة حنقًا وسخطًا، فصرخ: أباطيل!

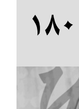
همّ أنيس السائس أن يثبت للملك صحّة ما ذهب إليه، فأدار

---

(١) المحاجن: جمع المحجن: عصا معوجة، وقد يجعل في طرفها حديد. [المعرّبة]

(٢) الطبرزين: آلة معقفة من حديد. [المعرّبة]

(٣) المراق: ما رقّ من أسفل البطن ولان. [المعرّبة]



وجه الفيل نحو اليمن، فانطلق مهرولًا، ثم وجّهه نحو الكعبة، فحرن، فراغ عليه ضربًا مبرحًا، شجّ به رأسه، فسال الدم على ناصع إهابه، وتعالت منه الآهات، لكنه ظلّ محجمًا عن النهوض. فأدار وجهه صوب الشام، فإذا بالفيل ينطلق مرقلًا.

خلاصة الكلام، أينما ولّوا وجهه، راح إلّا الحرم؛ فقد أبى هو والفيلة أن يطأوا حريمه.

الجيش اختلّ، وتحيّر في الأمر، وعجّت الأصوات من المتحرزين بالشعاف، فأجهشوا بالبكاء شوقًا وحرقةً، لِمَ لا؟ فالنفوس قد طابت، والأرواح قد رهفت، أمّا جدّك فأخذ يعصف به العويل وأوشكت أن تزهق منه الروح، فانبرى يلوّح بالرأس، ويكبّر ناحبًا بعريض الصوت، جهيره، وبعبرات مزدحمة، وتجاوب معه آخرون مكبّرين.

في فرصة سانحة، لاذ ذو نفر ونفيل بالفرار، وآوى كلٌّ إلى حيث ملجأ القوم بالآكام.

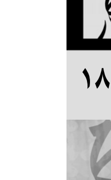
في أفق ميناء جدّة، لاحت فجأة حُمرة - وجدّة هذه، كما تعرفها، في الجانب الغربي [الشرقي] من ضفاف البحر الأحمر - فخفّت الحمرة هذه نحو مكة، ثم استحال إلى اللون الرصاصي من بعد الحلكة والسواد. فانسلّ كل من اعتصم بالجبال بين المنافذ والصخور، أو استغشى بما كان عليه من الثياب، وازدحمت الأنفاس واحمرت العيون ونشفت الشفاه، فضاق كلٌّ ذرعًا بما كان يعتوره من غامض الإحساس. هامت الدواب على وجهها كالمجانين، ثم توقفت قليلًا لتغوص بطويل العنق في الحصب والرمال، وتمسح

الأفواه بالرغام.

فقد الكون رشده، وأضلّ الصواب: الإنسان... الدواب. أرهقتهم وطأة الحر عسرًا بعد عسر، فازدادوا بها هلعًا. داخت الرؤوس، وخدرت الأوصال، بل تعطّلت، فقعد بهم الوهن والكلال.

لمّا همدت العواصف وقرّت، رأى أهل مكة فلول الجيش مقعدًا ممزقًا، تدوي منه في الفضاء الأنات والصرخات، فحمل من كان على مقربة من الجيش نبأً، أن قد أقبل من ناحية البحر طير كالخطاطيف محلقًا فوق الجيش لمجهول من الأسباب، ثم إن الخميس قد أخلد إلى الأرض بأفواجه، وهو يتململ في التراب. ثم تبيّن بعدُ أن كل طائر كان يحمل حصباء ثلاث، دقاق، ملتهبة كأنها حصب جهنم، لا تصيب أحدًا إلّا أهلكته: تعتريه الحصبة، فيتهشم منه اللحم ويتناثر أبعاضه، فيبتدر اليمن هاربًا، فيتهاوى على الطريق، أو يستعبده أهل مكة أسيرًا. من هؤلاء الأسرى، أنيس السائس، الذي ابيضّت عيناه، وهو إلى اليوم زَمِنٌ يستجدي الناس على الطرقات.

نجا بنفسه أبرهة، ثم مُدّ في أجله، بعد أن أصابت جسده حصباء، وهذا من العجب العجاب: حُمل إلى صنعاء، فهزل ومسّه الضرر، وتساقط لحمه، حتى لكأنه فرخ قبيح. انسلخ جلده، ثم أخذ جسمه يتناثر أنملة أنملة. فإذا سقط جزء منه، تبعه صديد منكر نتن، كلٌ ضاق به حتى بنوه. كان نحيبه متواصلًا، لا ينقطع. إلى اللّه يجأر ويلحّ عليه في تعجيل الهلاك، حتى لقي مصرعه، وهو يستعذب المنية عذب الشراب...



أمسكت بركة عن الكلام، إذ أنهكها السرد الطويل، فسألها محمد: وهل انتهت حكاية أبرهة؟

- نعم، يا حبيبي. مات أبرهة على تلك الحال، فصار أحدوثةً، عبرةً للعالمين. سمعت أن قد خلّف في اليمن ألواحًا، ضمّت كلمات الثناء عليه والإطراء، هي اليوم مبعث السخرية، ولاذع الطعنات.

تثاءب محمد وسأل: ثم تملّك سيف بن ذي يزن؟

- لا، يا حبيبي. استولى إبناه يكسوم ومسروق على اليمن. فأعان الفرسُ سيفًا - منذ فترة - على مسروق، فانهزم، فتملّك سيف اليمن. وجدّك اليوم قد وفد إليه للتهنئة.

ها هو الصمت قد استبدّ بالحاضن والصبي، فمدّا البصر إلى الأفق البعيد حيث الشمس الجريح، آذنت بالرحيل.

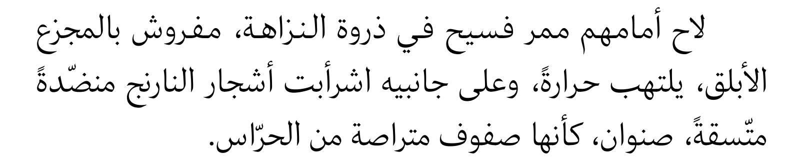
أخذت جمال القافلة الضئيلة تشقّ طريقها وئيدًا، وتمشي الهوينى، فقد هدّتها الرحلة المتصلة، إلّا أنها لم تنفك ثابتةً تتكلّف الصبر. كانت كركبها الغريب تقلّب الطرف في الأفق الشاحط السحيق.

انبرت بركة تسكب في مسامع محمد نغماتها في هدوء ولين... آه، يا لها من زمزمة شجية، تترنّم بها هذه الأمة الحبشية...!

كانت صنعاء على أعتاب الصيف تضطرم قيظًا، وتزداد توهجًا بما تتلقّاه من السهول من ريح السموم؛ فينسلّ عن الدروب وسكك البلدة، المارّة من الناس. وفي الوقت ذاك، أقبلت قافلة سراة مكة الصغيرة، تريد قصر غُمدان، في هوادة وأناة، وقد ران عليها الغبار، ونال منها الإعياء.

أنهت القافلة رحلتها المضنية قُبيل ساعات، وبلغت مشارف المدينة، ولم تكد تواصل السير نحو القصر الوردي، حتى ارعوت وانصرفت، إذ بلغها أنّ الأوان أوان الورد، والأمير في قصر غُمدان، ثم إنّ كبيرًا منهم أحاطهم علمًا أن سيفًا أرهقته أعوام التشريد وسنوات القتال مع مسروق، وها هو الآن يريد الخلود إلى الراحة، فليس ببعيد ألّا يأذن لهم باللقاء. لكن عبد المطلب كان يطمئن الرفقة بقوله: ما من مرية في وفادتنا على الأمير؛ فهو يستضيفنا إن عرف قرابتنا وأدرك الغاية من رحلتنا.

أخذت صنعاء زخرفها وازيّنت أزقتها... ميادينها... أسواقها بما علّقت على جدرانها من زاهي الخرق، وتعالت من سحيق أحيائها دقّات الطبول ورنّات المزامير، واستعدّت للعامر من الأفراح؛ فقد انجلت عنها - إثر عقود - محنة الغاشمين من الأحباش، وعادت إليها إشراقتها إذ تولاها منهم أمير.



لاح أمامهم ممر فسيح في ذروة النزاهة، مفروش بالمجزع الأبلق، يلتهب حرارةً، وعلى جانبيه اشرأبت أشجار النارنج منضّدةً متّسقةً، صنوان، كأنها صفوف متراصة من الحرّاس.

«عند مشارف دار الملك، هناك... في البعيد، قصر يناطح السماء، يتألق عليه نور الشمس البازغة، فيرتدّ عنه البصر خاسئًا وهو حسير.

وعلى الجانب الأيسر من قصر غمدان، استقر سيف في بستانه المطل بابه على البريّة. وإذا وصلنا إلى القصر أشار علينا بوّابه الرامح أن نعود أدراجنا ونلج البستان من بابه، فرجعنا لندخل من حيث أمرنا.

على طرفي الباب الضخم المنمّق، وقف حارسان بالعوالي، عليهما دروعٌ سابغات. فلما اطّلعا على ما نصبو إليه، انسحب أحدهما إلى الداخل، ليستشير فينا سيفًا، فرجع يفتح أمامنا الباب.

استودع عشرتُنا للغلمان ما كان معنا من الإبل والأحمال، ثم دخلنا البستان.

الجو ثمة كان عليلًا، لطيفًا، وشذاه يبعث فينا السكر والنشوة. قد تغطت الجنينات بالورد وأنواع الرياحين، وكستها أزهار ملتفة، تغمر من يلاقيها بالسرور والحبور.

واجهنا ممر ضيق، مفروش بالآجر المربّع، نبتت بين ثغراته زروع قصيرة القامة، نضرة، طرية. على ضفتيه، اصطفت أشجار الدلب المظلّلة وتفجّرت خلالها سواقٍ كالقوارير، تجري بخرير رفيق.

كانت الطيور تصدح صداحها في البستان، فيخيّل للوارد إليه

في الوهلة الأولى أنه في الجنة.

وسط البستان بناء لا تعلوه طوابق، أنافت على جوانبه شرفات شهباء. في إيوانه المطلّ على باب البستان، تربّع سيف بن ذي يزن بقامته الممشوقة المنتصبة، عليه سربال عربي ناصع. كان يبدو كهلًا، له لحية مرجّلة، انبث بين طيّاتها الشيب. كان أبيض البشرة، وضّاء السحنة جالسًا على سجّادة كبيرة، مستندًا إلى نمرقة، هي والسجادة صنوان. نُصب أمامه أواني الفاكهة والنُقل[١]، وأباريق طافحة بأنواع الشراب. وقد حفّ به كبار اليمن وسراتها، عليهم يطوف الإماء والغلمان، كلٌ شمّر للخدمة عن الساق.

قام إلينا سيف طلق المحيا، مرحّبًا، فتقدّم نحونا خطوات، وضمّنا إلى صدره واحدًا تلو الآخر بحرارة وحفاوة.

التفتُ إليه قائلًا: نحن جيرة اللّه، وسدنة بيته. بلغنا خِباءك بعد أن قطعنا القحل من برارينا، واتخذنا الطريق بين ديارك الخضر، ووديانها العميقة. جئناك بعد أن بعدت علينا الشقة، واختطف أبصارنا برقُ السحاب الثقال، غير مرة.

ببسمة عذبة، أشار علينا سيف بالجلوس، واتخذ هو في مكانه موضعًا، ثم قال: عرّفني بكم وبدياركم الحرس. أهلًا وسهلًا في موطنكم الثاني، يا أهل اللّه[٢]. طاب لكم المقام والرحيل! لكم

(١) النقل: المكسرات من الجوز واللوز والبندق ونحوها. [المعرّبة]

(٢) لمّا ردّ الله الحبشة عن مكة، فأصابهم ما أصابهم من النقمة، عظّمت العرب قريشًا فسموّها أهل الله؛ إذ رأوا أنه آثرها بعنايته وشملها برعايته، فكفاهم مؤونة عدوّهم. [الروائي]

الكرامة ما أقمتم، والحباء إذا ظعنتم.

قلت: لك الشكر والثناء يا أمير، ولك كل من في البادية والحضر الفدى، لقد ظلم أبرهة - ردحًا من الزمن - ربوعك هذه، ومن بها ثم قصد ديارنا والحرم والكعبة لحاجة في نفسه، فذاق وبال أمره، وصار نكالًا وعبرةً للعالمين.

خلّفه ابناه يكسوم ومسروق على الظلم، بل تماديا فيه. وها نحن ضربنا في الأرض حمدًا على عظيم الظفر بمسروق، وإنقاذك اليمن من براثن الأحباش، أتيناك وأتينا اليمن مهنّئين».

.. ثم قدّموا إليه ما حملوه من الهدايا.

قال سيف: الحمد للّه الذي أذلّ أعداءنا وأعداءكم، وسامهم خسفًا، انهضوا إلى دار الوفود والضيافة حتى يحين التتويج. سآمر على الفور أن يُعدّ لكم نزلًا حسنًا.

«شكرناه. ثم أمر الغلمان أن يحتفوا بنا.

دعاني سيف إليه، إذ انصرف الجميع إلى الشراب والطعام، فقال: أنت ابن هاشم، ابن اختنا؟

- نعم، يا أمير، ابن اختك. (كان سيف بن ذي يزن من آل قحطان، ونحن من آل اسماعيل، آل قحطان من الأخ، وآل اسماعيل من الأخت).

قربني سيف نجيّا، وهمس إليّ بما حاول ألّا يظهر عليه أحد، وقال: سأجلّيك وقتها سرًّا عظيمًا.

قلت: سمعًا يا أمير!



شغل حديثه بالي، وراودتني أسئلة ملحّة: «ترى ما هذا الذي يطويه أمير اليمن فيريد أن يضعه عندي، ويكتمه عن غيري؟».

لبثنا عند سيف بعض الوقت، والغلمان والإماء لا ينفكّون يطوفون علينا ولا يزال سيف يجاذبنا الحديث، ويسأل عنّا وعن مكة والكعبة وخروج أبرهة إليها، حتى أذن لنا في الانصراف إلى دار الضيافة».



«كنّا طيلة النهار نقيم بالدار، وأنا ما زلت اتحيّن الفرصة المؤاتية تلك. يا ترى ما هذا السّر الذي تلهّف سيف ليظهره عليّ وما علاقتي أنا به؟

غمدان من مدهش القصور، مربع بناءٍ صخري، على أربعة وجوه: وجه أبيض، وآخر أحمر، ووجه أصفر، والرابع أخضر. على عمده التي لا تعدّ ولا تحصى هامات مجصصة، تماثيل أسود وصقور.

القصر على سبعة سقوف أو دور، وقد وصفه لنا شاعر يمني بقوله:

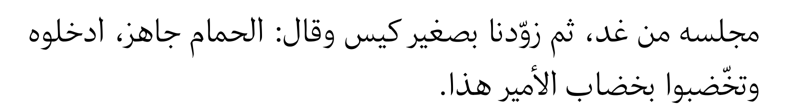
محلقة دون السمـــاء كأنها   غمامة صيف زلّ عنها سحابها[١]

كانت دار ضيافتنا بالدور الأول، وإلينا انضمّ بعدُ ضيوف حلّوا من أرجاء الجزيرة، فاتخذوا من بقية المقاصير مستقرًا.

في صبيحة اليوم الخامس عشر، إذ كنا نتأهّب للحضور في الحفل، غدا علينا رسول الملك - على فترة من الانقطاع - يحضرنا

---

(١) **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، ١/ ٧٤. [المعرّبة]



مجلسه من غد، ثم زوّدنا بصغير كيس وقال: الحمام جاهز، ادخلوه وتخّضبوا بخضاب الأمير هذا.

سبق أن عرفت الخضاب، إذ جئت اليمن في تجارة، وأنا في سن الكهولة فحملت منه إلى مكة الكثير؛ فعاد عليّ بطائل الأرباح.

طلبت من الغلام أن ينهي إلى سيف جزيل الشكر؛ إذ تمثّلنا في خاطره. ثم عرّجنا على الحمام، فتخضب الرفقة كافة دوني.

بادرنا إلى النوم مبكّرين، ثم أفقنا لدى الفجر وارتدينا خاص الثياب. عند الطلوع، كنّا على أهبة الاستعداد للمشاركة في الاحتفال.

في الدور السابع من القصر سيقام حفل التتويج، حيث قاعة أوسع من فسيح الميادين. توزعتها نوافذ من الأبنوس، مطلية بزيت الأخشاب، منها يتملى البصر مجالي صنعاء.

في أعلى السقف، رخامة كبيرة، شفافة كالقوارير، تُستشف من ورائها السماء، وما فيها، في أشد وضوح.

تدلّت من السقف قناديل بلورية، ونصبت على الجدران مصابيح من الفضة أو النحاس، وصفها لنا بعض الغلمان، فقال: إذا أسرجت ليلًا، انبسط نورها واسعًا وامتد على بعد مرحلة.

صيّر على كل ركن من أركان القاعة تمثال أسد من شَبه[1]، أجوف البطن، طافح الجسم، فإذا هبّت الريح إلى ناحية منه، اندفع فيه الهواء، فسمع له زئير كزئير السباع.

بينما كان الغلمان يختلفون في زيّ موحّد إلى الحضور، تعالى

---

(١) الشبه: النحاس الأصفر. [المعرّبة]



اللغط من جهة الشمال، فانتفض إليه من في القاعة واثبين...

ألا، قد وصل الامير...

بدا سيف أكثر هيبةً مما عهدناه في لقائنا الأول بالبستان. جاء محفوفًا بكبار اليمن والفرس، وقد لفّت هامته عمامة سوداء مزركشة بخيوط الذهب، تعلوها ياقوتة ضخمة. على عوده سربال وعباءة، ناصعتان كالعاج. توكأت يمناه على عصا مرصّعة، وتقلّد سيفًا زمرّديًا. كان وقرًا رزينًا، يلوّح للضيوف بالرأس، ويلمّح إليهم بالبصر مرحّبًا. الشعر منه واللحى نالا السواد بما أرسل إلينا من الخضاب!

اتّجه سيف إلى عرشه في أعلى القاعة ثم شخص منتصبًا أمام الحضور، والبسمة مرتسمة على شفتيه. وأشار إلينا بالقعود، فاستوى هو على العرش، ثم اتخذنا نحن مستقرًا على جانبيه، مستندين إلى النمارق، لكن سراة الفرس واليمن - عدا القائد الإيراني وهرز - لاثوا به والتفوا حوله.

كنت جالسًا في الجانب الأيمن، على مقربة من سيف، بينما الأسئلة ما زالت تلحّ عليّ: ألم يئن له أن يجلّي عليّ ما يكاتمه، ترى هل نسي ما فاتحني به؟».

كان مضمّخًا بالعطور، وسواد المسك على الجدائل منه وسحنته يلوح. على يمين عرشه، عمود من عقيق أحمر، يبلغ صدره طولًا، له رأس من الياقوت، محشوّ بخالص المسك، وعلى اليسار منه عمود آخر، صنو الأول، إلّا أنه من الفضة يعلوه تَوْر[1] من ذهب أحمر.

---

(١) تَور: إناء يشرب فيه. [المعرّبة]



وفي أدنى العرش، على اليمين، أريكة منخفضة القامة، اتكأ عليها رجلٌ في السبعين، كأنّه الجبل، ضافي اللحية والضفيرة، ينمّ السلوك منه والملامح عن جلالة المقام والشأن. مهيب الطلعة كالكماة والأساور، مدجّج بالدروع. هو القائد الفارسي وهرز كما اتضح لي بعدُ.

تقدّم عبد المطلب الآخرين في الجلوس، ثم إنه استهوى الحضور بقامته المديدة الممشوقة. كان مشرق الناصية، وضاء الوجه كاللجين. قد اجتمعت فيه - حقًا - مهابة الأنبياء وجلالة الأمراء.

انبرى سيف بالحديث، فحمد الرب أولًا، وأثنى عليه، ورحّب بالضيوف شاكرًا لهم الحضور وقام وهرز كذلك، يسبّح اللّه... ثم حُمل بعدُ إلى القاعة صحفة عليها تاج وترس ورداء ملوكي، قيل إنها هدايا كسرى أنوشيروان، عظيم الفرس.

حلّ سيف العمامة، فتقدّم إليه وهرز ليتُوّجه، ويخلع عليه الرداء، ويقدّم إليه الترس الفضي، ثم قام بخطبة نطق فيها بلسان أنوشيروان، أثنى خلالها على بسالته وصلابته وأشاد بصداقته للفرس.

حان وقت التسليم، فأعطي الدور أولًا لعبد المطلب، فنهض برزانة ووقار، يتبعه سراة قريش، والحضور به منبهرون، يتداولون - بإعجاب - أمره، ويتساءلون عن الشيخ البهي الطلعة.

خطا عبد المطلب خطوةً، ثم خطب خطبةً وقال:

إن اللّه تعالى - أيّها الملك - أحلّك محلًا رفيعًا، صعبًا منيعًا،



باذخًا[١] شامخًا، وأنبتك منبتًا طابت أرومته وعزت جرثومته[٢] وثبت أصله، وبسق فرعه، في أكرم معدن وأطيب موطن. فأنت - أبيت اللعن - رأس العرب وربيعها الذي به تُخصِب، وملكها الذي به تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي إليه يلجأ العباد، سلفك خير سلف، وأنت لنا بعدهم خير خلف، ولن يهلك من أنت خلفه، ولن يَخْمُل من أنت سلفه، نحن - أيها الملك - أهل الحرم وذمته، وسَدَنة بيته، أشخصنا إليك الذي أبهجك بكشف الكرب الذي فدحنا[٣]، فنحن وفد التهنئة لا وفد المرزئة[٤].

لاحت بوادر الانشراح على سحنة سيف المستبشرة، وعينه المتّقدة، فأحسن على عبد المطلب الثناء، ثم قام إليه المجتمعون واحدًا تلو الآخر ينفحونه بالمدح والتهنئة، نيابةً عن الأقوام والقبائل.

آن وقت الغداء، إذ انتصف النهار، فمدّت الأسمطة بصنوف الطعام. ثم ندب كبير الخدم من حضر، إلى مأدبة العشاء في باحة القصر.

قام سيف بعدُ من مكانه، فاتبعه الآخرون، وحذوا حذوه.

---

(١) باذخًا: عاليًا. [المعرّبة]

(٢) الأرومة والجرثومة: الأصل. [المعرّبة]

(٣) فدحنا: أثقلنا. [المعرّبة]

(٤) **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، ١/ ٧٦. [المعرّبة]

«برز الهلال في السماء كسيف عربي، وشبّت النجوم كشذرات ألماس مخيطة على برقع الليل الفاحم. وأخذت هبّات النسيم العليل تداعب غصون الصفصاف وأفنانه.

وسط الظلام الدامس، تسطع صنعاء بين المشاعل والمصابيح، كأنها جزيرة الضوء والنور. عمّت الأفراح الكون والمكان... الميادين، السكك والدروب.... عمرت الناس الدعة والمسرة، فضجّ كلٌ بالغبطة والبهجة فتصاعد إلى عنان السماء رنين المزامير ودقات الطبول، وتعالت صيحات الرقص والزغردة، إلّا أن غمدان... في شأن آخر:

ثمة حوض دائري فسيح استقرّ إزاء واجهة القصر، حيث السلالم. ينبعث الماء من نافوراته الصغيرة بفتور، ثم يأخذ سبيله إلى الانتكاس. وعلى أرجائه تسبح بطات صغيرات وتتزلق كخفيف الزوارق. وعلى الحوض آرائك وبسط وآخر من شكلها نمارق.

كان سيف قد اتكأ على أوسع الأرائك، يحفّه وهرز وسراة القوم، وقد أسند مرفقه إلى نمرقة من النمارق. عليه ثياب ناصعة رقيقة، وعمامة غراء مرصعة بالزمرد. أما وهرز، فقد بقي كما كان عليه في النهار، ملازمًا لدرعه، جالسًا إلى جانب سيف، كراسي



الجبال وقد مدّ على الركبتين مرفقيه. توزّع أشراف العرب من اليمن وغيرها على بقية الأرائك، وهم فاكهون، وفي الحديث خائضون. كانت تتخلّل الأرائك مواقد نحاسية، منتصبة على قواعد، تشتعل فيها المشاعل، فتفسح للخيال بعض التحليق.

هناك، حيث أريكة سيف، رحبةٌ استنارت - كوضح النهار - بما أحاطتها من المواقد. وفي أقصاها أسدل ستار طويل... من زاوية ما، انبعث عزيف عود عذب رفيق، فأضفى على الليل خيالًا مثيرًا آسرًا.

اتخذ ركبنا القرشي مقامه عند الجانب الأيمن من سيف، بينما لم ينقطع الغلمان والإماء عن الضيافة والاحتفاء بالضيوف في لين وأدب. أمّا أنا، فما زالت أجيل الذهن في السرّ: ليت شعري ألم يئن الأوان ليفوّض إليّ سيف ما يضمره، ترى ألم يحن حينه... ألا يتذكر ما وعدني؟

صفق سيف بغتةً، فانقطع الحضور عن الضحك والحديث، وتوقّف المطرب عن العزف والغناء، فإذا بعجوز ربع القامة، يدخل الباحة قد ابيضّ منه الشعر واللحية بياض اللبن، ثم إنه نثر على كاهليه الضفائر والجدائل، كان متكئًا على عصا مدبّبة الرأس كدبوس صغير، مدّثرًا بسربال ناصع، منتطقًا بنطاق فاحم... فراح الرجال يرمقونه في صمت، وهدوء.

انبرى العجوز يتكلّم بعد أن استأذن الملك، فحمد اللّه ثم فاض في الحديث بصوت جهوري صحل...

ما لبث أن عرفنا أنه يريد سرد بطولات سيف حتى هزيمة



مسروق بن أبرهة، مختزلًا حكاية الأحباش وغاراتهم، والظفر بمن تبقّى من ملوك اليمن؛ فقد كنّا ملمّين بالذي جرى وحدث. اكتفى هو بالحديث عن مصرع أبرهة، وما عزم عليه سيف من استرداد اليمن».

«القصة تعود إلى قديم الأزمان، إذ حكمت حمير عقودًا، جيلًا إثر جيل حتى صار المُلك إلى زرعة ذي نواس.

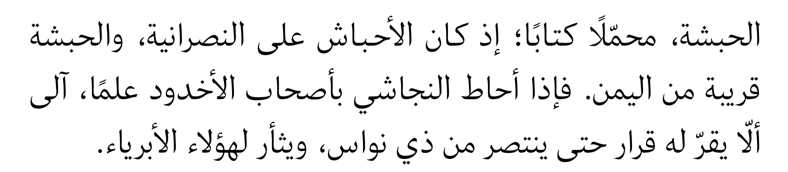
دان زرعة هذا باليهودية، وتسمّى يوسف، بينما راحت في نجران تؤمن بالإنجيل طائفة أولو زهد وصلاح، وآخرون ممن تبقّى لم يفارقوا الأصنام والأوثان.

أخذ زرعة على نفسه ميثاقًا غليظًا أن يمتنع عن الطعام ويأبى الشراب حتى يحمل اليمن على شريعة اليهود، ويقيم في الأرض حكم التوراة. فسيّر جيشًا إلى نجران، وخيّر أهلها بين اليهودية وإباحة الدم، فاختاروا - على كره - الدم، فأمر ذو نواس أن تُخدّ لهم الأخاديد، وتضرم بها النيران، ويلقوا فيها واحدًا تلو الآخر، فاحترق منهم نيف وثمانون، فأحكم في الباقي السيف، وقتل منهم ألفين، بل عشرين ألفًا كما يقولون، لكن لم يرتدّ عن دينه أحد. (فعرفوا بعدُ بأصحاب الأخدود وانبرت الأفواه تتداول عنهم الحكايات)[1].

أفلت من هؤلاء المؤمنين رجل بجواده، فطارده جنود ذي نواس، ولكنّهم لم يتمكّنوا من القبض عليه، فقصد الروم - وكانت على المسيحية - واستنصر قيصرها. فأوفده إلى النجاشي ملك

---

(١) **الأخبار الطوال**، ص ٦٢؛ **نهاية الأرب في فنون الأدب**، ٩/ ٣٠٥. [المعرّبة]



الحبشة، محمّلًا كتابًا؛ إذ كان الأحباش على النصرانية، والحبشة قريبة من اليمن. فإذا أحاط النجاشي بأصحاب الأخدود علمًا، آلى ألّا يقرّ له قرار حتى ينتصر من ذي نواس، ويثأر لهؤلاء الأبرياء.

ثم جرى ما جرى مما تعرفون: دحر أرياط الحبشي ذا نواس، وسامه خسفًا، وأذاقه ذلًا حتّى انقاد للموت والهلاك، فانتُزع من حمير الملك والسلطان، ودال أمرهم للحبشة. إلّا أن أبرهة اشتط على أهلها عتوًّا لما استولى عليهم، فثار في وجهه الكمّي هذا، المسمّى سيف بن ذي يزن؛ ليدفع عنهم الهوان، ويستعيد لهم العزة والسلطان».

«طالما رأينا قصاصين، وسمعنا عنهم الحكايات، لكن غريب ما شهدناه الليلة تلك وسمعناه؛ فقد كان العجوز يسرد بعض القصة، ثم يخرج من وراء الستار رجال يؤدون أدوار سيف وقيصر وكسرى ووهرز وآخرين بملامحهم وملابسهم وسلوك الحديث»:

«- قيصرا، أنا سيف بن ذي يزن، من حمير، كانت الإمارة فينا حتى جرّت الحبشة جموعها من وراء البحر، واغتصب منا البلاد، واستخفّت أهلها ردحًا من الزمن، فصبر الناس على الضيم إلى أن ضاق بهم الحال.

قيصرا، مسّنا الضرّ نحن وما ملكنا من المال والحسب، ورُكِبْنا أمورًا شنيعة، أُجلّ الملك عن ذكرها.

- لقد تلقّيتُ نداءك، يا رجل، لكنَّ بلادك بعيدة؛ وليس لجموعنا فيها إربة.

- قيصرا، ما جئتك لحاجة بي، بل أتيتك لتغيث المظلوم من

قومي؛ إذ حقيق على الملك أن يغيثهم ولو لم يستنصروه، فهو أهل الكبرياء والجبروت. وها نحن جئناه مؤمّلين، عسى اللّه أن يقصم على يديه ظهر عدوّنا، ويثأر منه.

- يبدو أنك أصغر سنًا من أن تحيط خبرًا بما فعل ملك منكم بالنصارى من أمثالنا. لقد أذاقكم اللّه العذاب، وثأر للمؤمنين الذين لم تنقموا منهم إلّا أنهم آمنوا به.

- خطأ وقع، ونحن منه دومًا على خجل، وقد ذاق وبال أمره من ظلم، وحلّ العقاب بالقوم - إن أساء - وغفر اللّه ما سلف.

- أنى نجعل الكرة على الحبشة، وهم إخوتنا في الدين، ونديل قومكم منهم، وأنتم على غير ملّتنا. كلا، هيهات هيهات. فاجهر أنت الآن بما أصابك من المكروه، لأكتب إلى من يكشف عنك كربه...

خاب سعي سيف؛ إذ لم ينل عند هرقل ما طلب[١]. فقصد أنوشيروان عظيم الفرس[٢]، وكشف له عن حاله:

- أيها الملك، بلادي أخصب البلدان وأكثرها خيرًا، وليست كما يلي الملك من بلاد العرب؛ مما سمّتها الروم واليونان ربوع السعادة، وعرفت بالخصب والعمارة، وغزارة المطر والنضارة. ثم إن اليمن طريق التجارة إلى الهند، وإليها السبيل من كل حدب وصوب، يحمل منها إلى الأقاصي، ثمين الجواهر والأقمشة والبخور

---

(١) تاريخ الرسل والملوك، ١/ ٤٤٦. [المعرّبة]

(٢) **السيرة النبوية** لابن هشام، ١/ ٦٣.



والجلود وإليها دون البلدان يصل لؤلؤ بحر فارس، وحرير الصين، وعاج الحبشة، وذهبها. فإن رأى الملك أن يصدّق ظنّنا ويحقق رجاءنا، يوجه معي جيشًا ينفي هذا العدو عن بلادنا، ويزيدها إلى ملكه.

- لا ريب أنك ضقتَ ذرعًا بما نالك من الظلم، إلّا أنه من سياسة الحكم أن يُدبَّر أمر المُلك، ثم يبادر إلى غيره.

هذا، وإن بلادك قد بعدت عنّا؛ فهي بين البحر والفيافي الجرداء، فأنى أعرّض الجند لمخاطر اليم والصحراء؟ لي فيما سألت نظر.

أمر له كسرى بخير الإنزال والإكرام، ثم انشغل بعدُ بالروم، وضرب عن ذكره صفحًا. فلم يزل أميرنا مقيمًا عنده حتى مرت به عشرة أعوام، فإذا بعث إليه من يذكّره بوعده، أجازه بعشرة آلاف، وكسوة حسنة. غاظ الأمر سيفًا، فجعل ينثر الدراهم على خدم أنوشيروان، فحمل العيون إلى كسرى الخبر.

- لقد جئتَ شيئًا نكرًا، فمثلي لا يُصنع بعطائه ما صنعت. ما الذي حملك على ما فعلت!؟

- لم أنثر في الخباء حبوة الملك وقاحةً مني أو زهدًا فيما بذل، بل جاء ذاك حمدًا على ذكرى الملك إياي إثر طويل ردح من الزمن. الملك أدرى أنني لم آته طلبًا في المال؛ فما ربوعي التي جئته منها إلّا الفضة والذهب، ولا يجدر أن يحمل التمر إلى هجر.

جئته لا للبذل والعطاء، بل ليمنع عن قومي الضيم، ويدفع عنهم الذلّ والهوان. كان أملي أن يوجّه معي الملك جندًا لأنتصر

ممن ظلم، وألحق بملكه عامر البلاد، من دون أن يرهقه من أمرها عسرًا أو عناءً.

كظم كسرى الغيظ وقال: رويدًا، سوف أنظر في أمرك. ثم أشار عليه بالانصراف، واستدعى الوزير وقال: إنه بعيد الهمّة، لا يجوز منا له الخذلان؛ فهو عار، ولا يحسن أن نغرّر بالجند، فانظر فيما نفعل!

- أيها الملك، للرجل علينا حق؛ فقد انتظر عشرًا من الأعوام... هناك في السجون رجالٌ، نفر من الجند، ذو بأس ونجدة، قد حبستَهم للقتل، فلولا بعثت معه من له منهم في الجسم بسطةً، فإن هلكوا، كان الذي أردت، وإن ظهروا على الأحباش، زدتَ ملكهم إلى الملك.

- أحسنت، افعل ما تشاء!

أطلقوا من السجن سراح السجناء، واختاروا منهم الكماة، ثم ألحقوا بهم من الترك والديلم فرسانًا، فقوّد عليهم كسرى من الديلم أسوارًا، يقال له وهرز، ذو حسب ونسب، له بالملك صلة القربى. رجل أيُّما رجل، كان كسرى يعدله بألف - على أنه بلغ من الكبر عتيًا - فإذا وجّهه إلى جانب عدوّ، أثنى عليه قائلًا: قد وجّهت إليهم ألف أسوار!

أمر وهرز أن يصنع على جرف بحر فارس، من الفلك ثماني، تحمل كلٌّ مئة، وراح يمرّن الرجال على الحرب والقتال... ثم انطلقت جموعهم من المدائن صوب الدجلة، حيث مصبّ بحر فارس، ليركبوه نحو اليمن، فإذا بالأمواج تموج بهم، فتغرق سفينتين؛



فخرجوا بسواحل حضرموت، ونزلوا في موضع يدعى مثوبا.

- ها نحن واليمن!

- ألا قد آن الجلاد، وحان القتال... لكن أين يقع هؤلاء - يا أسوار - من جيش الأحباش!

- لا تهن يا رجل ولا تحزن؛ فكثير الحطب يكفيه قليل النار. هلمّ يا سيف، ما عندك؟

- ما شئت من العرب، من الجياد والفرسان، سأجعل رجلي مع رجلك، حتى نستغشي الهلاك أو نكرع الفتح.

- أنصفتَ... وأحسنتَ...! فاجلب عليهم بخيلك ورجلك ما استطعت.!

استنفر سيف من في قبيلته وقبائل اليمن من الفرسان، وراح يستنجدهم، فاجتمع له بضع آلاف.

حملت العيون إلى مسروق الأنباء، فخفّ بثلاثين ألف من العرب والأحباش.

اصطف الخميسان، خميس مسروق العرمرم، بعيد الجناحين، لا يرى طرفاه، وآخر ضئيل، لا يناهز أربعة آلاف.

فلما نظر مسروق إليهم، طمع فيهم، فارسل إلى وهرز من يلقي عليه القول: ما جاء بك، وليس معك إلّا من أرى، ومعي من ترى! لقد غرّرت بالمهجة وبمن معك من الرجال. ثلة قليلة أربأ بنفسي عن النزال بها. إن شئتَ، أذنتُ لك بالرجوع، فلا يصيبنّكم

منّي مكروه. ارتدّوا على آثاركم، وارجعوا أدباركم، وإلا ناجزتكم!

طالب وهرز أن يضرب له الأجل، وهو يريد المماطلة، عسى أن يلتحق بهم نفر آخر من اليمن... لكن ما انضمّ إليهم إلّا القليل.

انقضى الأجل إلّا يوم واحد، فأمر وهرز الجيش أن يحشر مستعدًا للقتال، فاستعرضه، وألقى بين العرب منه والعجم كلمةً، ثم أخذ يجرّب ما كان عليه من السلاح والدروع والسيوف والأقواس والخوذات والأتراس وأمر بحرق السفن التي كانت تبعث في قلوب الفرس ذكرى الأهل والديار، وأشار عليهم أن يلقوا في البحر كل ما أتوا به من الزاد والخباء، إلّا آلات الحرب وبلغة من الطعام وما عليهم من الثياب.

- لقد حرّقتُ السفن؛ لتعلموا أن لا سبيل أبدًا إلى الأوبة، وألقيت في البحر الزاد؛ كي لا يطمع أحدٌ في البقاء بالصحراء، ثم إنه يغيظني أن يصير ذلك كله إلى الأحباش إن ظفرت بكم. فليبحر من شاء منكم بلا سفينة، وليقطع البيداء بلا زاد؛ ليس أمامكم إلّا خياران، النصر أو الردى!

فإن ظفرتم فلكم الحسنى، وليس لكم في زخارف الدنيا من بغية إذا نالكم الهلاك. إن كنتم قومًا تقاتلون معي وتصبرون، فأخبروني؛ فأنا لست ممن يمكّن الخصم من نفسه بالأسر أو الفرار.

- بلى، سنقاتل معك حتى الموت أو الظفر.

- نحن أهل اليمن قلوبنا معك، ناهيك عن سيوفنا، حتى نموت أو نظهر على الأعداء.



وفي فجر غده، عبّأ وهرز الجيش[1]، فجعل البحر من خلفه والعدو قدّامه، ثم قال: اثبتوا واصبروا فإنكم بين خلّتين، إما النصر أو الموت كرامًا. أوتِروا قسيكم، وارموهم بالنشاب رشقًا، إذا أمرتكم، وليأتِ من أهل اليمن من يدلّني على مسروق.

- ها، أنا أعرفه جيدًا، يا أسوار!

- حسنًا، أين هو، يا سيف، دلّني عليه!

- ذاك، صاحب الفيل، ها هو قد عقد على الهامة تاج ذهب كأنه خوذة كبيرة، بين عينيه ياقوتة مثل البيضة.

- اتركوه... اتركوه؛ فالفيلة مركب الملوك!

- ... يبدو أنه يريد النزول... أجل، قد تحول على فرس.

- اتركوه؛ فالفرس مركب الكبار... لكن ترى ما حمله على ذلك؟... ما هو مقصوده؟

- كأنه يقصد إذلالنا، يريد أن يقول إننا أقل شأنًا من أن يركب لقتالنا الفيلة...

- انظر إليه - يا أسوار - يبدو أنه نزل عن ظهر الفرس ليتحول على بغلة.

- على ابنة الحمار!؟

- نعم، يا أسوار!

---

(١) **البدء والتاريخ**، ١/ ١٩١ - ١٩٣. [المعرّبة]



- ها قد ذلّ ملكه...، إذ تحوّل على الصغير من المراكب، آتوني بنشابة مع قوس، ثم تلبّثوا قليلًا: إن ثبت صحبه واقفين، فقد أخطأت الرجل، وإن استداروا عليه، فقد أصبته، فاحملوا عليهم مغيرين.

كان مسروق منتشيًا بسطواته، مغترًّا بانتصاراته، بينما حنّكت الحروب وهرز الفارسي، فكان كميًّا، نشّابًا منقطع النظير، على أن الشيخوخة قد أعيته، فكلّ منه البصر.

لمّا همّ وهرز أن يشدّ وترالقوس - ولا يشدّها غيره - أمر أن يعصّب منه بيض حاجبيه، ثم أخرج نشابةً مسمومةً فوضعها في كبد القوس، واستهدف الياقوتة بين عينيه، حامدًا الرب - أسوةً بالفرس - ثم سرّح النشابة؛ فانقضّت عليه كشهاب لاهب، وصكّت دماغه، فإذا الأحباش تلوذ به والفرس تنهال عليهم راشقين كما أوعز إليهم قائدهم.

للفرس بعيد عهد بالنشاب، لكن الأحباش واليمن استغربت القتال به؛ فآلة حربهم كانت السيوف أو الفؤوس أو الرماح.

تفرقت جموع الأحباش شذرَ مذرَ، فغارت عليهم الركبان من الفرس والعربان، وساق كلٌ زمرًا من أسرى الأحباش...

أبدى أميرنا سيف بسالةً وبطولة؛ فالتحق به جند مسروق من اليمن. فلما رأى وهرز ذلك، أمر أن يكفّوا عن الأعراب، ويطاردوا الأحباش، فيلقوا عليهم القبض، أو يصرعوهم، حتى آلت الأمور إلى ما نحن اليوم له مجتمعون.

مساء الجميع بخير... ودام ملك الأمير!».

«أمسك القصاص العجوز عن السرد لسانه، فأغدق عليه الصحب والحضور الإطراء، ثم قام أمية بن أبي الصلت شاعر العرب الشهير، ينشد قصيدته في سيف ووهرز والكتائب:

لِيَطْلُبِ الوِتْرَ أمثالُ ابنِ ذي يَزَنٍ رَيَّـم في البحر لـلأعـداءِ أحـوالا
حَتّى أتى ببني الأحْـرارِ يَحْمِلُهُمْ أنـك لَعَمري لقد أطولتَ قلقالا
غُـرٌّ جَحَا جَحةٌ، بيضٌ مَـرَازبـةٌ أُسْدٌ تربّبُ في الغْيضاتِ أشْبالا
للّه دَرّهُـــمُ مِـنْ عُصبةٍ خرجوا ما إن ترى لهم في الناس أمثالا
يَرمُون عن شدفٍ[1] كأنّها غُبُطٌ[2] في زَمْخَرٍ[3] يُعْجِلُ المرميّ إعجالا
أرسلْتَ أُسْدًا على سُودِ الكلاب فقد أضحى شَرِيدُهُمُ في الأرض فُلّالا
فاشرب هنيًّا عليك التاجُ مُتّكئا في رأسِ غُمْدانَ دارًا مِنْكَ مِحلالا[4]

أشاد به الحضور جميعًا وأثنوا عليه، فأجازه سيف، ونفح القاص والممثلين جزيل العطاء، ثم قام هو والآخرون من بعده.

في ذاك المساء أيضًا، لم تسنح لسيفٍ الفرصة كي يجلّي عليّ السّر؛ فخالجتني الهواجس، وأنا أريد الإخلاد إلى الفراش، فحرمت الرقاد في شطر من الليل؛ فالأوبة قريبة؛ والإقامة قد طالت بنا في صنعاء وها هو الحفل قد قام، ومن غدٍ سيشدّ الضيوف رحالهم إلى الديار، فهل من دليل للبقاء؟».

---

(١) الشدف: القسى الفارسية. [المعرّبة]
(٢) الغبط: جمع غبيط وهو الرحل الذي يشد عليه الهودج فتركبه النساء. [المعرّبة]
(٣) الزمخر: النشاب وقيل السهام. [المعرّبة]
(٤) **الديوان** لأمية بن أبي الصلت، ص ١٧٣. [المعرّبة]

«أفقت مع الفجر على جلبة الرفقة، وهم يستعدون للرحلة، فقمت معهم أعدّ العدّة.

وعند الفطور، أهاب بي غلام، فمضيت إليه، فأخبرني أن الأمير يدعوني فانطلق بي إليه.

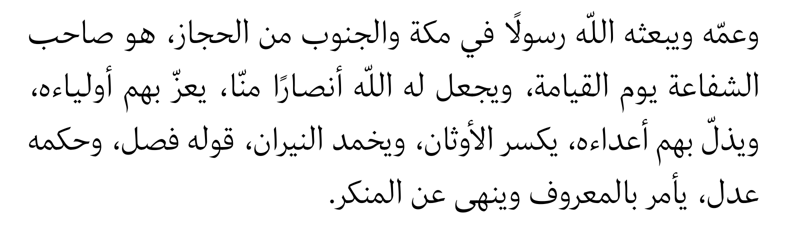
كان سيف قد انفرد بنفسه في غرفته المتواضعة، فلما دخلت عليه أكرمني، ودعاني إلى جواره، ثم قال: لقد صرفتني عنك زحمة الأعمال، ولم تسعني الخلوة بك، فإذا بلغني أنك على أعتاب الرجوع، استدعيتك لألقي إليك ما ينبغي قوله قبل فوات الأوان.

قلت: شكرًا يا أمير، وسمعًا لك وطاعة!

قال: فليكن هذا السر العظيم مطويًا حتى حينه!

قلت: هو ذاك.

قال: إني وجدت خبرًا عظيمًا في الكتاب المكنون الذي اخترناه لأنفسنا، واحتجب إلّا على بعض الكبار من الأحبار... أن في الحجاز اليوم غلامًا ينفرد بصباحة الوجه وجمال الخلق، بين كتفيه شامة كالخز الأدكن، مات أبواه أو قد يموتان، يكفله جدّه



وعمّه ويبعثه اللّه رسولًا في مكة والجنوب من الحجاز، هو صاحب الشفاعة يوم القيامة، ويجعل له اللّه أنصارًا منّا، يعزّ بهم أولياءه، ويذلّ بهم أعداءه، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

سكت سيف هنيهةً عن الحديث، ثم غاص في أفكاره، متأملًا، وخلّى بينه وبين العبرة، فقال: يا ليت الأجل يمتدّ بسيف كي يكون له عونًا وينصره بالغالي والرخيص. كنت أسمّيه وأدعو إليه، لولا خوفي عليه من الأعداء.

اعثر عليه، يا ابن الأخت، واحرسه، واحذر عليه من اليهود، ألدّ الخصام.

ساورني على آمنة القلق، فالتفتُ إلى سيف، قائلًا: شكرًا لك - يا أمير - على ما أطلعتني من السرّ، أظن ظنًا أنه حفيدي محمد، ففيه العلامات، على أن أمه ما زالت على قيد الحياة.

قال سيف: طوبى لك، يا بن هاشم؛ ثم طوبى لك، ما أسعدك يا شريف! أشهد أنني به آمن، وبما أتى به من رب العالمين. ثم تنهّد بحرقة وقال: يا ليتني أدركته ففديته بنفسي ومهجتي. فما زال يردّد قوله حتى ضمّني إليه، ولثم وجهي، ثم أذن لي بالخروج...

إذا اردنا القفول، أمر لكلٍ منا هدايا. لي ٩٠٠ مثقال من الذهب و٩٠٠ مثقال فضة، وملء الكرش عنبرًا، ولرفقتي مثل ما حُمّلت».

ولّى محمد وجهه - كدأبه عند الأصيل - شطر المسجد الحرام، راضيًا، وإن مسّه اللغوب ونال منه الإعياء، فطغى على مشرق سحنته الانشراح، بعد أن قضى يومه في إعانة مسكين، فامتلأ قلبه دعةً وارتياحًا.

كان محمد ينحدر برجليه الضئيلتين في دروب مكة، فيمعن في السعي إلى جده، فتُضاعِفُ الانحداراتُ حثَّ أقدامه التي لم تعرف استواء الطريق أو اعوجاجه، فهي دومًا في وثبة وإرقال؛ إلّا أن الركبتين منه كانت تنثني أحيانًا تحت عوده الثقيل، فيتوقّف طرفاه عن الحركة والانطلاق.

يستوعب محمد بنظراته مكة، فيراها بركة ماء، رشقت بغتةً بحجارة سوداء، فامتدت بها الأمواج في حلقات. بقعر الوادي ذاك، المستند إلى جرد الجبال السود والحمر والأرجوانية، استكانت الكعبة كأنها شذرة: بناء مربّع، شامخ، ملتفّ ببرد يماني فاحم، يحيطها فناء رملي مربّع، وأروقة تطاول الممشوقين من الرجال، ومن حوله دور رفيعة العماد، قصيرة السياج، شيدت بمصقول الحجر أو غير مصقوله، مشوي الآجر أو غير مشويه، مكعب الحجم، تطلّ على الكعبة بنوافذها وأبوابها، كأنها العيون أو الثغور. تربعت الدور حول الحرم في حلقات صغيرة، ثم اتسع منها الشعاع شيئًا فشيئًا.



الحلقة الأولى ضمت دور قصي وذويه من الأبناء والأحفاد، لما كانوا عليه من علو الكعب ورفعة الشأن، وقدم السكن، ثم اتخذت من بعدهم بطون قريش وغيرها - حسب القدم وجلالة المكانة - مواضعها بين الحلقات. أما دار قصي، فقد نال من الضخامة والسعة حتى صار دار الندوة[١] من بعد وصية أوصى بها قصي.

شتان بين الدور في الأزقة والدروب: ذاك كبير، وهذا صغير، بعض مرصوص بالمرمر أو المجزّع من الحجر، وآخر مرصّع بشتى الصدف البحري الزاهي.

هنا وهناك، انفردت نخلات، اشمخرّت بهاماتها بين الباحات، فتلامسها هبّات النسيم عند الأصيل؛ فيهتزّ لها سعفها الخريفي هزات.

نشّف محمد بأهداب كوفيته البيضاء نداوة وجهه المغسول، ثم وازن على الرأس عقاله الصغير الأخضر، فداعب - بلطف - وجهه المحمّر من الحركة المتصلة، نسيم عليل أخذ في الهبوب إثر الغروب.

مدّ محمد النفس في زفير وشهيق، فاتخذت أنفاس الخريف إلى رئته السبيل.

---

(١) بنى قصي داره، فسميت دار الندوة لأنهم كانوا ينتدون فيها فيتحدث القوم ويتشاورون في حروبهم وأمورهم، ويعقدون الألوية، ويزوّجون من أراد التزويج. وكان أمر قصي عند قريش دينًا يعملون به ولا يخالفونه؛ **أنساب الأشراف**، ١/ ٥٨. [المعرّبة]



كأنّ المدينة انتعشت من جديد، بعد أن خفّت عليها وطأة الشمس. فانسلّ الناس إلى السكك والدروب.

كان محمد سائرًا وطريقًا ضيقًا، انهمك به التجار بين الحجرات والخباء ببيع التوابل والعطور، والقماش والثياب والنعال، وأوانٍ حجرية، وقِرب وأكواز العسل. إلّا أن المتجوّلين من الباعة هنا وهناك، قد بسطوا السلع على البسيطة أو عرضوها للمارّة على المصطبات.

في زاوية ما من الطريق، لاث الصبية بثيابهم الرثة بحلواني عجوز. ليستبدلوا الفليسات بقطع مما يبيع. وهناك على القارعة، بائعة لبن، تسقي بعض الأعراب أقداحًا خزفيةً من الحليب؛ فتستهوي المارةَ نكهة اللبن من حيث لا يدرون.

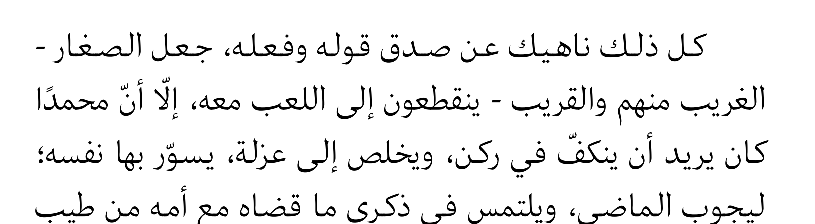
ثمة زنجية بالجنب من البائعة، تزعق على مراوحها البدوية الزاهية. وعلى الطريق، حفاة من الصغار، قد سدروا في الشغب واللعب؛ فلفت مرحهم - للحظات - أحداق محمد النجلاء، إلّا أنه سرعان ما عزف عنهم، وانصرف لسبيله...

«لم يك محمد مثل لداته، يتلهّف إلى لهو الأطفال، ولا سيما بعد أن تضاعف يتمه، إذ رحلت عنه أمه في ريعان الصبا. فلم تكد نفسه تنازعه إلى شيءٍ من ذلك».

كانت تلفّ وجهه غواشي الكآبة، ولمّا يناهز الثامنة، وكان منطويًا على نفسه، قلما تنفرج شفتاه الرقيقتان. كان حسن المخالطة - في ساعة اللعب وغير اللعب - طيّب الخلق، ليّن السيرة، بعيدًا عن القسوة والبطش، لا يعتريه مثقال ذرة من الأنانية، ولا يؤثر نفسه



من دون الصبية بشيء، بل يتنازل لهم عن حقّه.



كل ذلك ناهيك عن صدق قوله وفعله، جعل الصغار - الغريب منهم والقريب - ينقطعون إلى اللعب معه، إلّا أنّ محمدًا كان يريد أن ينكفّ في ركن، ويخلص إلى عزلة، يسوّر بها نفسه؛ ليجوب الماضي، ويلتمس في ذكرى ما قضاه مع أمه من طيب الأيام العجلى، نسيان يتمه الساحق.

راحت - في الآونة تلك - حاضنته، بركة الشابة، تشمله برعاية لا تفتر، فلا تنفك تتحدث إليه، وتسلّيه، خوفًا من أن تذهب لذعات الحزن بنضارة ذاك البرعم الغضّ، وأخذت تجدّ الجدّ كي لا تخلّي بينه وبين الوحدة، بل تحثّه لينطلق مع أترابه إلى المرح في الزقاق. أو تطلب إلى الصغار ليأخذوا به لاعبين. فيتلقون الطلب في لهفة، ولا سيما حمزة بن عبد المطلب الذي كان ينقطع إليه الساعات الطوال.

وحمزة هذا من أبناء هالة - آخر أزواج عبد المطلب وابنة عم آمنة - كان يناهز محمدًا في العمر، رافقه؛ فتوثقت بينهما الصداقة، خاصةً بعد أن آبَ محمد من رحلته الممضّة تلك، وأكثر من الاختلاف إلى دار هالة.

كان السراة بالحي، وصغار الأقرباء والأباعد يُصفونه الحب والمودة. وكان عمه الزبير ظريفًا، دمث الأخلاق، رائع الشباب، شديد النشاط، يرقصه، ويداعبه كلما مرّ به. وعمه أبو طالب يذهب به إلى داره المتواضع، فلا يأتل في الحدب عليه، فصار مهوى محمد، يلتمس عنده من عطف الأبوة ما افتقده منذ الطفولة،



ويتوسم فيه حنان الأمومة. أمّا جدّه، فقد شغفه حبًا، وكان يخفّ إلى اللقاء به، والحديث معه.

عند مدخل السوق المؤدي إلى باب بني هاشم، التقى محمد بحفص بن مرة، جالسًا عند عطار، يتجاذب معه الحديث. حيّاه محمد تحية المساء، والبسمة العذبة لا تراوح شفتيه.

كان حفص فظًّا، عبوسًا، غليظ القول إلّا مع محمد. أجابه بادئ الأمر بجفوة حتى إذا تعرّف إليه، انبسطت أساريره، فرفع عقيرته قائلًا: طاب وقتك يا حلو العشرة، طاب وقتك يا جميل الطلعة، رافقتك السعادة على الدوام!

أجابه محمد في لين: شكرًا! وأنت كذلك، يا عماه، رافقك الحبور على الدوام، رافقك السرور. ثم مضى لسبيله، وقد عاودته ذكرى ما جرى بينه وبين حفص قبل فترة يسيرة.

إلى جدّ محمد، سيد مكة كان أولو الفضل والسعة يدفعون خرجًا لرفادة الحاج والسقاية، وإدارة البلدة إلّا حفصًا، فقد كان يأبى الدفع، على أنه ذو حظ عظيم من الأموال والأنعام، وله في الطائف جنة تؤتي أكلها ضعفين، وفي السنة تلك - كالمعتاد - ضنّ على جدّه بما كان عليه من الخرج، وتنصّل - كلما طالبه - بذريعة ما.

فإذا حان وقت الحج، انطلق عبد المطلب إلى دار الندوة ليطّلع على الحساب، ويوعز إلى عماله ما يلزم من الإيعاز.

ودار الندوة هذه، كانت تجتمع بها قريش إذا همّت بأمر أو أرادت رأيًا، أو قررت اتخاذ قرار، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصي إلّا ابن الأربعين، وكان يدخلها ولد قصي كلهم أجمعون

وحلفاؤهم، ثم إنه كان يؤذن بالدخول للمرأة عند عقد القران، وللصبي عند الختان، والجارية إذا أرادت أن تتدرّع.

كان محمد عند جدّه يوم دارالحديث عن حفص بدار الندوة، قال بعضهم لا طاقة لنا به، ولا حيلة لنا في أمره؛ فهو شحيح مقذع، يعنّف بمن نبعث إليه، ويغلظ عليهم، فينفضّون عنه بلا رجعة.

قال عبد المطلب ببسمة: ألا نرسل إليه ابني محمدًا هذه المرة؟

حذره النادي عمّا عزم، فردّ عليهم: فلنجرّب!

هذا، وقد أدرك محمد يومذاك من العمر التاسعة إلّا نصفًا، لكنه انصاع لما أمر جدّه، فانصرف إلى دار حفص، فرأى بابه مفتوحًا على مصراعيه، فلم تطاوعه نفسه بالدخول، بل قرعه غير مرة، ونادى صاحب الدار بأدب واحترام، فما لبث أن سمع حفص الطرقات، فأهاب به: أدخل، أيًّا كنت!

كان حفص لدى مدخل الفناء - إذ دخل محمد - جالسًا على كرسيّه وقد علاه الغضب والحنق.

حيّاه، فلم يردّ، بل بادره بالسؤال: من أنت، وفيم؟

- أنا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب.

عادت إلى محياه إشراقة، فسأله بلطف: لم تقل فيم جئتَ؟

ما إن همّ محمد بالجواب، حتى جاء الحادي بالبشرى أن قد وضعت الناقة الحمل.



«بلغني حفيد عبد المطلب، وأنا في غضب، شارد البال، مفرّق النفس؛ فناقتي الغالية كانت تلتوي من أوجاع المخاض، وقد استعصت عليها الولادة، حتّى داخلني عليها وعلى ولدها خوف التلف والهلاك.

كنت داخل الفناء، مغرقًا في الذهول والوجوم، إذ طرق سمعي عذب صوت يناديني باحترام من وراء الزقاق.

لم تجر العادة يومذاك أن يُنادى رب الدار، ويستأذن بالورود. عادة بغيضة، طالما أعنتنا، ولم نتجرأ أن نتصدى لها؛ فمن ذا الذي ينكر على ضيفه العزيز قبيح فعله أو يمانعه!؟

طبت نفسًا إذ آنست من غلام في عمره اللطف والأدب، ثم إنه بعث فيّ مزيد رضا لمّا حطّ بداري القدم، فلاحت لي وسامة سحنته، وشنّفت سمعي طلاوة حديثه.

لم ينبس ببنت شفة حتى جاءني الحادي يبشّرني أن قد وضعت الناقة بأمانٍ؛ فغمرتني البهجة، وباشرني اليقين أن الصغير الحبيب ذاك هو حامل بركة؛ فعاهدت نفسي من فوره أن ألبي أيما طلب...

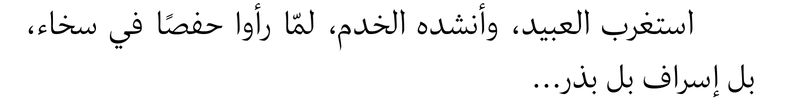
قال: يُقرِئك جدي السلام، ويسألك الوفاء بالوعد.

هشّت إليه نفسي، فقلت: كلأتك الآلهة ورعتك، يا لَلفصاحة ولطف البيان، سأفي بالوعد وزيادة، وهل يُضَنّ على سائل مثلك!؟

شكرني شكر الرجال، فسألته: أمعك أحد؟ أجابني: لا، فأشرت على بعض الغلمان أن يزوّده بخمس من الإبل، ويركبه السادس



هدية».



استغرب العبيد، وأنشده الخدم، لمّا رأوا حفصًا في سخاء، بل إسراف بل بذر...

«لمّا عاد حفيدي بالإبل، بُهت كل من حضر دار الندوة، وعقدت الدهشة منهم اللسان، فإذا - بعد لأي - يحرّك أحدهم شفتيه، قائلًا: هذا الذي على قريش يقترّ خَرْجه مكفهرًا، أخذ اليوم...!

سأل بعضهم: حفص أعطاك؟ صاحيًا كان أم سكران؟

ابتسم محمد، ولم يرد عليهم بجواب، فراحوا يحسنون عليه التقدير والإطراء».

ها هو فناء الحرم بحصباه وصنوف الأصنام، صغيرها وكبيرها، قد اشتملت بزاهي الثياب، نفر ناهد سامق، وآخر قد أسند الظهر إلى جدار الكعبة.

على اليمين ممتدّ بساط، قاتم اللون، من شعر الماعز، قد افترش لرجل أبيض الرداء، ناصع اللحية والجدائل نصاعة اللبن، اتكأ على نمرقة وبر. رجل ضخم مهاب، يبعث عوده على الغرور والثناء، وإن وهن منه العظام. ألا هو عبد المطلب، جدّ عطوف لحبيب صغير.

تبادل الجانبان بسمةً، ملؤها الحنان، قد عهدتها الشفاه: بسمة عجوز على أعتاب الأفول، وصبي بزغ فجره الصديع، بسمة جدّ وحفيد.



انسلّ محمد بين ثنايا المتحلّقين بعبد المطلب، فذهب حتى جلس على البساط، فهشّ له جدّه، وفسح له موضعه الذي قد خُصّ به منذ أمد بعيد، منذ رحلت عنه أمه، وخفض له عبد المطلب جناح الكفالة. أجل، موضعه الذي طالما كان أعمامه يؤخرونه عنه. حتى زجرهم ذات مرة بقوله: دعوه يجلس حيث يشاء؛ فإنه يؤنس مكانته، اتركوا قرة عيني؛ فهو راحة فؤادي، ومبعث سكينتي.

ثم مسح ظهره ورأسه في لطف وحنان، وقبّله في شوق ولهفة؛ فانهمر إلى سويداء قلبه تيار من العشق الأبوي، سارٍ مكتوم، وعلت كآبةَ سحنته بسمةُ الانشراح. أما محمد فقد ألقى بعوده الضئيل على جده الهرم، مسندًا إليه الظهر.

ما إن التقى عبد المطلب بحفيده، حتى انشغل عن السراة، وأعرض صفحًا عن الحوار معهم، لينقطع إلى محمد بالحديث:

- أين كنت منذ الفجر يا بني، لقد غبتَ عني!؟

- شغلنا البناء، أنا وعمي حمزة، وبعض الصبية.

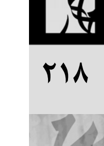
- بناء...؟ أين...؟ لمن...؟

- بكوخ عذيب بن مهدل.

- ذاك الأعمى المسكين؟

- نعم!

- حياك اللّه، يا ولدي، أحسنتم يا بني الإحسان، هلم فصّل لجدّك الحديث، ماذا فعلت؟



- بينما كنت مع حمزة والغلمان في لعب، وقع بصري على عذيب، يقيم جداره فالتفتُ إلى من معي، قائلًا: لولا نساعده؛ فعذيب لا يسعه أن يستأجر من يعينه على البناء!؟

وافقني الرفقة، فرحنا نأخذ التراب والمدر في حجورنا. لكن ما أن ملأتُ حِجري حَجرًا وهممت أن انتصب حتى...

- حتى ماذا يا ولدي؟

همس محمد بصوت خفيض في أُذن جدّه، وقد انتابه الخجل: كأن لاكمًا لم أتبيّنه لكم ظاهر يدي فانحلّ إزاري، وتساقط الحجر، وإن لم تك لكمته وجيعة، ثم سمعت نداءً يصيح فيّ: ارخ إزارك؛ فإنك لست كأحد من الغلمان، ولا ينبغي أن يظهر على عورتك أحد[1].

أسدلت الثوب، وأدنيته من رجلي، ثم جعلت - من بين أصحابي - أحمل المدر والتراب في زنبيل أخذته من عذيب.

قبّل عبد المطلب رأس حفيده الصغير، وربت على كتفه في لين، ثم قال: أحسنت... أحسنت، لكن قل لي، ماذا تناولت في الظهيرة؟

- طلبنا إلى بركة أن تأتينا غداءنا، أكلنا وعذيبًا، فشكرنا الرجل وأثنى علينا كثيرًا.

- ما قال، يا ولدي؟

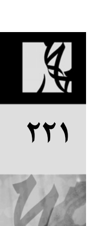
---

(١) **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، ١/ ٦١.



- أطرانا وقومنا، فقال: حفظتكم اللات والعزى، بورك فيكم، لقد رفعتم جداري، ثم أطعمتموني، لِمَ لا، وأنتم من قوم مطاعيم، أهل الغوث، كساة، بناة!؟. ثم قال: باللات، إنني منذ أشهر لم أذق مثل هذا الطعام قط.

انبسطت أسارير عبد المطلب سرورًا، فقال: لقد أحسنتَ يا ولدي قولًا وفعلًا. ثم انبرى يتمتم بخيبة: واحسرتاه، قد طفلت شمس عمري وآذنت بالغروب، وها قد أوشكتْ أن تتوارى بالحجاب، يا ليتني بسطتُ عليك جناح حدبي ما امتدّ بك العمر؛ فأرى بأم عيني ما تناله من محمود المقام وجلالة الشأن والجاه...



- يا بُنيّ، لا تخلُ بنفسك في الدار، فيكسف منك البال، أخرج مثل عمك مع الغلمان إلى الزقاق!

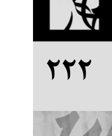
تأملّ محمد في جدّه بحزن وأسى، وقال: لا يقرّ مني البال إلّا إذا انقطعتُ إليك في الدار.

أمسك عبد المطلب عن الكلام، وانطبعت على شفتيه بسمة الثناء إلّا أنه سرعان ما خبا شهابها الخاطف، بعد أن أومض سحنته المرهقة التي نالت منها الشيخوخة؛ فانطوى على ما كان ينتابه من الأوصاب والأوجاع.

دخلت هالة الغرفة، وعدّلت متكأ عبد المطلب، ثم ثنّت تحت ساعدي زوجها وسادته التي استند إليها، وقالت: آتيك بمغلي الأعشاب؟

رنا إليها وقال: لا جدوى من العلاج؛ فالسيل قد بلغ الزبى، البلية هذه المرة من صنف آخر. هي الشيخوخة، ولا ينجع فيها إلّا...

ما إن أراد أن يتفوّه بـ (الموت)، حتى أهابت به هالة أن محمدًا في الحجرة.



لقد كان عبد المطلب يعرف كم من المودة يكنّ له حفيده؛ فمنذ آبَ من يثرب يتيمًا، لم يجد من دونه موئلًا يعتصم به. فكان يقرّبه إليه ويُدنيه. ويدخل عليه إذا خلا أو نام...؛ فضاق كلٌّ بالفراق ذرعًا، ولم يصبر بعض عن الآخر يومًا. كان لا يأكل إلّا بحضور محمد، فإذا حضر، قدم لجدّه الطعام، وسقاه الشراب. كان يناوله خيزرانه، أو يضع دون قدمه النعال.. لكن يبدو أن الأيام كانت حبلى بالمفاجآت وصار القدر له بالمرصاد، وحاسته السادسة راحت تنذره بموت معجّل في قادم الأيام.

كلا، لا يهاب عبد المطلب الحِمام؛ فقد عاش مليًا، موفور النعمة، ولا يشوبه من الموت قلق ولا اضطراب؛ فالموت ليس هو الفناء كما يزعم بعض العربان. لم يأخذه بعمله الصالح الغرور، بل داخلته الطمأنينة، وغمرته السكينة؛ لأنّه عايش العفة والطهر والنقاء. إلّا أن همّا مقلقًا أخذ يداهمه: «ترى، ما مصير محمد من بعدي...؟ أيطيق نائبة من جديد، هذا اليتيم الرقيق، الدرة العصماء؟».

لا مناص من القضاء، ولا اعتراض على القدر. هذا ما تبنّاه عبد المطلب في السر والعلن. لقد عاش طويلًا، وعركته الأيام وحنّكته المصائر، فعرف أن الكون يطوي أسرارًا وأسرارًا، كلّ عن إدراكها واهي الأفهام. فكم من خطبٍ عزَّ أن يذعن له الإنسان، بل انقضّ دونه ظهره، لكن ما إن مضى حينه، حتى أينعت بذوره المرّة، وآتت طيب الأكل والثمار... ترى هل يُدرك قلبه ذلك، فحكاية القلب حكاية مِقَة وتعلّق ببقية عبد اللّه الباقية، حكاية شغف قد استعرّ في أطوائه، فكيف يخمد العقل أواره؟

«آه، يا حفيدي الصغير، يا لحزنك المتواصل السحيق، سلّاك



اللّه عنه! ليت شعري، لم لا تطول بك صحبة من تمنحه الحب، لم تحرم صحبته أبدًا. إجأر إلى رب الكعبة وادعه مبتهلًا - في عجز وخشوع - أن يشرح لك صدرك ويضع عنك وزرك، عوضًا عمّا أحاط عودك الضئيل من الكرب العظيم».

تمالك عبد المطلب نفسه، فكاتم دمعةً طفرت من عينيه على حين غفلة من محمد، فكفكفها بإبهامه، ثم وقع منه البصر على محمد، مقرفصًا لدى الباب، قد ألصق الفخذين ببطنه، محتبيًا بيديه، مسندًا الذقن على الركبتين، وهو ينعم إليه النظر بعين عسلية، مشدوهة، طافحة بالغم.

يا لَذكاء هذا الغلام، ويا لَفطنته! يصعب على عبد المطلب أن يستر عليه سرّه، بل يستحيل، ولا يجدي نفعًا كلّما فكّر وقدّر؛ فلا مفرّ من الموت الوشيك، سيحلّ عاجًلا أم آجلًا، فعليه إذن أن يمهّد له رويدًا رويدًا؛ كي لا تنقضّ عليه الكارثة فتقصم منه الظهر.

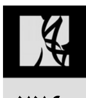
- هالة!

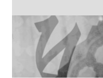
أدارت إليه رأسها، وهي ترتّب الحجرة.

- قولي لِأبي طالب، وبناتي يجتمعوا إليّ الليلة.

توجّست من كلامه خيفةً؛ فقد كان يؤذن بالشرّ؛ فحاولت ألا تعير طلبه اهتمامًا، ولا تحمله على محمل الجدّ؛ فرماها بنظرة صارمة تنذر بتفاقم الحال.

انطلقت لإنفاذ ما أمر، فالتفت عبد المطلب إلى محمد يسأله: كيف حالك يا بني؟ قال محمد والعبرة تخنقه: عاهدني يا





جدّي على الصحة والشفاء!

تظاهر عبد المطلب بالسلامة، وأنى له ذلك؟

- أتعرف يا ولدي أنني عشت مثلك يتيمًا؟

زحف إليه محمد ليجلس إلى جواره، فقال، متلهفًا: لكنك لم تخبرني بذلك!

- أجل، يا ولدي، أنا أيضًا ولدت يتيمًا، ثم ماتت عني أمي، وأنا في عمرك.

- يا لَلعجب... إذن، كنتَ مثلي؟

التمعت عين عبد المطلب الوانية؛ وطالعته في سخرية، فقال: أنتَ مثلي، لا أنا مثلك!

انفرج ثغره الصغير عن بسمة خافتة؛ فأبرق في أحداق عبد المطلب ثناياه الناصعة فمدّ إلى حفيده العذب يده الباردة المتغضنة؛ ليضم إليه راحته الدافئة.

- أجل يا عزيزي الصغير، كانت طفولتي مثل طفولتك، أو كادت. أنا أيضًا ألمّت بوالدي وعكة، فمات، وهو في طريق التجارة إلى الشام، إلّا أنك الآن بين العشيرة والديار، وأنا إذ ذاك شطّ بي النوى عن الأحباب ممن كنت أستريح إليهم وآنس بهم.

ثم أضاف، متأوهًا: ثبتُ للقضاء - على أية حال - وأذعنت للقدر كما يذعن الرجال، ونازلت الصعاب، وصارعت العناء، وتمكّنت من ناصية الشدة، بعد أن طرحتُها أرضًا.



لم تك المسألة البتة بالسهولة التي أتحدّثُ عنها؛ فقد تكلّفتُ مشقةً لا آخر لها، وكابدتُ أهوال الحزن، والعاقبة لي. فلولا ما عراني من الشدائد، لم يصر شيبة الصغير، شريف قريش وسيد مكة. ما أقوله الآن يصدر عن طويل تدبّر في ما مرّ عليّ من مرّ الحياة. حكاية الغموم، يا ولدي، حكاية فصل الشتاء. فلولاه لما حل الربيع، وإذا اشتد الشتاء وطأةً، ازداد الربيع غضارةً ثم ثمارًا.

- لم تحدّثني أمي إلّا عن ولادتك في يثرب!

- نعم، ولدت بها؛ إذ كانت أمي منها، فهي ابنة عمرو بن عائذ المخزومي من سلالة شريفة، تدعى بني النجار. ويثرب - كما رأيتها - قد توزعتها كثير من القلاع. عشت صباي في قلعة بني قيلة الواسعة، بين بني النجار.

كانت أمي طيبة، كريمة، اشترطت على والدي، لدى العقد، المقام بدار قومها وأن يكون بيدها الأمر، فتفارقه إذا كرهته، فانقاد أبي للشروط. فلما آنت رحلة الشام، ودّع أبي، هاشم، عروسه، ولما يزل في كفها خضاب العرس، وانطلق مع الركب؛ إذ كان سيد قريش وقائد عير مكة، وهو الذي سنّ الرحلتين، رحلة الشتاء والصيف. فتداركه المرض في ربوع الشام فلازم الفراش؛ مما تخلف عن الركب هو ونفر من أهله، فأوصى أن يبقى الرضيع - إن وضعتْه أمي - إلى جوارها بيثرب، حتى إذا اشتد عوده، أودعته ذوي أبيه بمكة.

وبذلك ولد جدّك يتيمًا فنما ونشأ، حتى ناهز الثامنة.

حكى لي عمي المطلب أيام الشباب، إذ كانت إليه سدانة

الحرم ورئاسة القوم: أتاني رجلٌ من بني الحارث ذات يوم، وأنا بدار الندوة، فقال: جئتك من يثرب، حيث رأيت من العجب العجاب ما ينبغي بيانه.

قلت: هات!

قال: في بعض سكك يثرب، انشدّ بصري إلى غلام يتناضل مع الصبيان، كان يختلف عنهم خُلقًا وخَلقًا، فلبثت واقفًا، أتملى منه النظر، فبهرني حسن جماله. أحسن الغلام الإصابة، فانبرى يرتجز كالكماة، معدّدًا مآثر قومه.

فتقدّمت إليه لأسأله: من أنت، يا بطل؟

قال: أنا شيبة بن هاشم بن عبد مناف.

سألته: هاشم في مكة، وابنه في يثرب!؟

قال: مات أبي؛ فجفاني عمومتي، فبقيت مع أمي وأخوالي في يثرب.

قال الحارثي: يا بني عبد مناف، أراكم قد غفلتم عن عزّكم، وتركتم مصباحكم يستضيء به غيركم.

فقال عمي: واللّه لقد غفلتُ عن وصية أخي، فأمر - من فوره - أن يعدّ له قلوصًا[1]، ليرقل بها إلى يثرب...

لمّا وصل، كنت أول من التقى به، كانت عليه حلّة عصفرية

---

(١) القلوص من الإبل: الفتية المجتمعة الخلق. [المعرّبة]



اللون وقد شدّ وسطه بنطاق أرجواني مما كان يتحزّم به النجباء من قريش. كنت آنذاك بعرصة أمام قلعة بني النجار، أتفاخر بقومي، وأنا أباري الغلمان في رفع الصخور والجلاميد: أنا ابن هاشم، أنا ابن سيد البطحاء...

بدا لي الرجل غريبًا، فأناخ قلوصه ثم قصدني، وهو يصب الدموع الغزار، فقال: هلمّ، يا بقية أخي الباقية، تعال إليّ!

ضمّني إليه مقبّلًا، ثم عاوده البكاء. فلما هدأ جأشه، وقرّ منه البال، قال: أتريد أن أذهب بك إلى ربوع ذويك؟

أجبته في جذل وقلق: نعم!

لمّا تناهى إلى أمي الخبر، عاتبته، قائلةً: أنى تفرّق بين والدة وصغيرها، وتشتّت الشمل!؟

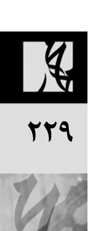
قال عمي: إنني أصبو أن أعهد اِليه من بعدي سدانة الحرم، ورئاسة القوم. ثم أعاد عليها وصية أبي، فلم تملك له خلافًا، وأذعنت للأمر بين زفرة ودمعة وحسرة.

ران على عبد المطلب الصمت، فراح محمد يرمق أقصى الفناء، والشوق يحدو به لمعرفة المزيد، ثم طرف بعينيه كمن استفاق بغتةً من سبات عميق، فسأل في لهفة: لقد كنت في يثرب تدعى شيبة، فمن سماك إذن عبد المطلب؟.. عمك؟

اتصلت عين عبد المطلب الغائرة بعين حفيده المشرقة، فابتسم ابتسامة باهتة، ثم أشار إلى جفاف شفتيه وقال: سأقصّ عليك حكايتها بعد أن تسقي جدك قدح ماء.

انطلق محمد صوب الفناء، فتناول القدح الخزفي المنكوس على الكوز، وصب مما فيه من الماء، ثم عاد إلى الحجرة، يمشي الهوينى، خوفًا من أن يتصيب، فلما شربه، قال: والآن إليك الحكاية...

يقال إنني ولدت وفي رأسي شيبة، فضية اللون، فسميت بها، فإذا مضى بي عمي إلى مكة، جلست على عجز الرحل، بينما كانت عليه فاخر الحلل، وعليّ طمر الأسفار، فاستغربت مكة حالي، وتحرّت أمري، فسألت عمي عنّي، فلم يرد جوابًا، بل كاتمهم - إلى حينٍ - خبري، فظنوا أنني عبد ابتاعني، فسميت عبد المطلب.



انطلق حمزة بمحمد لأمر من أبيه، فالتفت عبد المطلب إلى بناته وبنيه صفية وبرة وعاتكة والبيضاء، ثم العباس وأبي طالب والزبير والحارث، وحجل ومقوم وأبي لهب وضرار، فخاطبهم بقوله: دعوتكم في حنادس الليل، لتسمعوا آخر وصاياي.

أجهشت البنات بالبكاء، وعلا منهن النحيب، واستعبر زبير وانهمرت في مآقي أبي طالب العبرات، فراحوا يحملقون فيه بحرقة، تأخذ بالخناق.

- لقد أتاني اليقين فها هو نحبي سينقضي عما قريب، ولم يبق إلّا حشاشة.

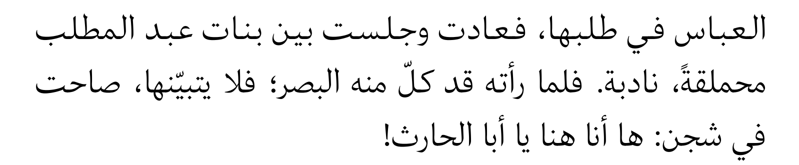
غصّ أبو طالب وصرخ: أبي... أنت...!!

قاطعه عبد المطلب ليقول: إن الموت سبيل لا بدّ منه، وقد حقّ عليّ الآن أن أوصيكم، فاستمعوا إليّ ما أُمهلت لئلا تكونوا من بعدي في غُمّة.

إليك يا هالة، أولًا!

لم تك هالة داخل الغرفة، بل خرجت في حاجة، فذهب





العباس في طلبها، فعادت وجلست بين بنات عبد المطلب محملقةً، نادبة. فلما رأته قد كلّ منه البصر؛ فلا يتبيّنها، صاحت في شجن: ها أنا هنا يا أبا الحارث!

- ألا أوصيك بمحمد؛ فهو سبط عمك، امنحيه حنان الأمهات، واحتضنيه وضميّه إليك، وأحيطيه بعناية لا تغفل؛ فهو رجاء بني عبد مناف، ويتيمة قريش العصماء، بل العرب جميعًا.

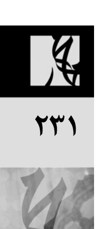
قلّب عبد المطلب كليل البصر بين الأولاد، فقال: يا بني، أنتم خيرة ولد إسماعيل وزبدة سلالته، أولئك الذين اصطفاهم رب الكعبة، فأسكنهم حرمه، وخصّهم بجيرته. ها أنا سيد قريش وسائقها ألقي عليكم وصيتي: إن الرئيس عليكم من بعدي الزبير، سلّمت إليه مفاتيح الكعبة وسدانتها، ولواء نزار. وإلى أبي طالب سقاية الحاج وكفالة حفيدي محمد.

خذوا عنّي ذلك، ولا تخالفوا قولي، ثم أوصيكم ثانيةً بمحمد، كونوا عند إعزازه وإكرامه، فسترون منه أمرًا عظيمًا عاليًا.

ضجّ الأبناء - بين كره ورضا - وقالوا: قبلنا أمرك، طال عمرك، سمعًا وطاعةً.

أضاف أبو طالب: سمعنا وأطعنا غير أنك كسرت قلوبنا بوصيتك، وأزعجت أفئدتنا بقولك.

- يا أبا طالب، عليك بالغلام، احفظه واستمسك به؛ فإنه فريد وحيد، وكن له كالأم الرؤوم، بل زيادة. إحذر أن يصل إليه شيء يكرهه، أوصيتكَ به أنتَ يا أبا طالب؛ لأنك من أمه وأبيه.



ثم راح عبد المطلب يتفقد بركة، فإذا حضرت عنده، قال لها: أنتِ يا بركة طيبة وأمينة، وقد تعلّق بك محمد، فلا تغفلي عنه وأظهري عليه حدبةً وواسيه!

- أبشر، يا مولاي...!

مسح عبد المطلب العبرات، وكفكف دموعه بمنديله الأبيض ثم سكت ولم ينبس ببنت شفة؛ فانبعث من صفية نشيد شجي:

فلو خُلِّدَ امرؤٌ لقديم مَجْدٍ ولكن لا سبيل إلى الخلود
لكان مُخلّدًا أخرى الليالي لفضل المجد والحسب التليد[1]

أثنى عليها عبد المطلب، وقد اجترحه الوهن والهزال، فقال: أحسنت نظمًا يا ابنتي وإنشادًا؛ فقد أدخلت السكينة على هَرِم عاش طويلًا، وأحسن قليلًا.

فأعولت ام حكيم البيضاء، وبكت أباها، قائلةً:

ألا يا عينُ جودي واستهلّي وبكّي ذا الندى والمكرمات
ألا يا عينُ ويحك أسعفيني بدمع من دموع هاطلات
وبكّي خير من ركب المطايا كريم الخِيم محمود الهبات
وَصولًا للقرابة هزبريًا وغيثًا في السنين الممحلات
وليثًا حين تشتجر العوالي له تزرق عيون الناظرات
عقيل بني كنانة والمرجى إذا ما الدهر أقبل بالهنات
ومفزعها إذا ما هاج هَيْج بداهية وخصم المعضلات

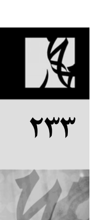
(١) **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**، ٢/ ١٤٧. [المعرّبة]

فبكيه ولا تسمي بحزن وبكّي ما بقيت الباكيات[١]

انخرط في الصراخ والعويل، زوجه والبنات والبنين؛ فقال عبد المطلب بصوت خفيض، أعيى على الجالسين سماعه: كفكفوا العبرات، وهوّنوا على النفوس، فلا بدّ من هذا المصير، ارجعوا إلى الدور؛ فإن الأهل في انتظار.

تقدم إليه كلٌّ في ضراعة ونحيب، فأمطروا منه الوجه قبلةً واليدين. فلمّا همّوا بالخروج، رأوا محمدًا يهرول ساعيًا نحو الغرفة، فاندسّ بين العمّات والأعمام، وشقّ طريقه حتى جدّه، فعانقه وحطّ على صدره رأسه، وبكى شجوه، فعاودوا معه العويل.

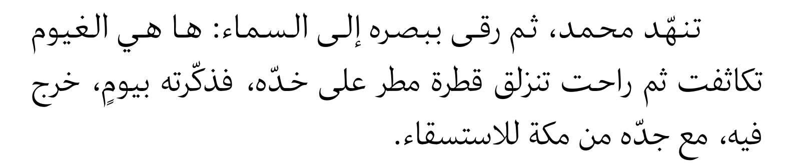
(١) المصدر نفسه. [المعرّبة]



الليل ساج. صامت. كدر. كئيب. ووجه القمر قد توارى في سحاب صفيق، والهواء خامد. راكد. ثقيل. ومكة غارقة في سبات عميق وأولاد عبد المطلب هناك في ديارهم رقود. وهالة وعباس عند عبد المطلب هجوع. ومحمد في المنفى؛ فقد اضطروه هو وحمزة إلى الغرفة المحاذية. وها هو حمزة شأنه شأن محمد قلق على أبيه. انخرط الإثنان في البكاء بين عتمة الغرفة، وحلكتها الهامدة، إلّا أن النوم تمكّن من حمزة فاختطفه، فبات محمد والليل، بات والظلام القاتم، قد وكل به الأرق والسهر، بينه وبين النوم بون شاسع؛ فهما غريبان لا تربطهما صداقة ولا ألفة.

ضاق محمد بهواء الغرفة ذرعًا، وثقلت عليه وطأة الأنفاس، كأن الشجى ضيّق عليه الخناق، فخشي احتباس الأنفاس، خشي الاختناق إذا ما استمرت به هذه الحال. وأنى له ما يبلّ به حلقه، فقد رقأ وجفّ كل شيء حتى مآقيه!؟ فقام من فراشه وانسحب من الغرفة برفق ولين، موليًا وجهه نحو الفناء. وقف ماثلًا أمام غرفة جدّه، يقلّب هنيهة الطرف فيها: هناك سراج على الرف، ينبثق من ذبالته ضوء شاحب. وجدّه، كان نائمًا على جنبه في سكون ودعة وقد وضع يده كالطفل تحت حنكه. ومن البعيد كان يردد «طائر

الخبل»[١] نواحه الحزين.



تنهّد محمد، ثم رقى ببصره إلى السماء: ها هي الغيوم تكاثفت ثم راحت تنزلق قطرة مطر على خدّه، فذكّرته بيومٍ، خرج فيه، مع جدّه من مكة للاستسقاء.

يوم انثال السراة على عبد المطلب، فقالوا: يا حافر زمزم، ويا ساقي الحجيج، تتابعت على مكة ثلاثة أعوام، قحلت فيها الضرع وأجدبت الأرض، فاسأل الآلهة تنزل الغيث وتنشر الرحمة؛ لطالما بك أغدقت السماء علينا قطرها.

عاد جدّه إلى الدار ليغتسل ويتطيّب، ثم يأخذ محمدًا معه. فما أن خرجا إلى الزقاق، حتى شهدا أفواجًا رابية تتدفق نحو جبل أبي قبيس.

قرّ الناس بذروة الجبل، فاعتضده جدّه ودفعه على منكبه، ثم ضمّ يده إلى يده، وشخص بها إلى السماء وعجَّ إلى اللّه بالدعاء: «اللّهم سادّ الخلّة، وكاشف الكربة، أنت عالم غير معلّم، مسؤول غير مبخل، وهذه عبداؤك وإماؤك بعذرات حرمك يشكون إليك سنتهم التي أذهبت الخفّ والظلف، فاسمعنّ اللّهم، وأمطرن علينا غيثًا مريعًا مغدقًا...»[٢].

أعول عبد المطلب، بل تمادى في العويل، وألحّ الناس في

---

(١) طائر يصيح الليل كله صوتًا واحدًا يحكي: ماتت خبل، على زعم العرب. [المعرّبة]

(٢) **دلائل النبوة**، ٢/ ١٦؛ **وأسد الغابة**، ٦/ ١١٢. [المعرّبة]



الأنين ثم همّ هو ومحمد بالرجوع، فإذا بأول قطرة تتدحرج على وجنة محمد.

السماء بسترها القاتم لفتت نظر محمد، فأخذ يتأمل في ظلمتها الكثيفة، كأنما يريد أن يروزها تمحيصًا. فذكّرته ببادية حليمة حيث كان ينشدّ إلى سمائها ولا سيما في الظلام. ويسرّح النظر طويلًا في أفقها السحيق، في الأبدية المدهشة، بينما كان يغطّ في أفكاره؛ متدبّرًا:

من أين جاءت هذه النجوم التي لا تعدّ ولا تحصى؟ أزلية هي أم حادثة...؟ متى أحدثت؟ ترى هل الكائنات خلقت نفسها أم جاءت من العدم. ليت شعري من خلق هذه النجوم، والقمر والشمس، والأرض والجبال والأنعام والدواب والبشر؟ كيف كان بارئها... لا بد أن الذي خلقها أشدّ منها قوةً وعلمًا وفضلًا...؟

سأل جدّه ذات مرّة:

- أين أبواي الآن؟

- ابني، هما في الآخرة.

- وكيف يعيش الناس هناك؟

- بُني، لهم الحسنى إن أحسنا، وعليهما ما اكتسبا من الظلم والسوء.

وذات يوم قطعا طريقًا حتى بلغا البادية، فالتقيا برجل، عليه ثياب رثة، منهمك بالحفر، وعلى بعد خطوات منه، امرأة مرمّلة في التراب، قد ضمّت إليها طفلتها، تذرف دموعًا صامتة. فسار عبد





المطلب بمحمد نحو الرجل:

- أنعمت صباحًا!

- وأنعمت!

- فيم أنت يا رجل، أنساعدك؟

- شكرًا لك، أنا مشغول بسدّ فقري وحاجتي.

لم يقف محمد على كناية الرجل، لكن جدّه هزَّ رأسه ثقيلًا، واعتصم بالسكوت برهة.

بعد أن فرغ الرجل من الحفر، صرخ في المرأة، مزمجرًا:

- ائتي بالصغيرة!

ظنَّ محمد أن قد ماتت البنت، فهمّا بدفنها. فتأسف وأسال الدمع من العين. فإذا الطفلة تجهش بالنحيب، ويعصف بالمرأة النواح. كان بكاؤها غريبًا؛ فقد كانت تنفث به العجز والاستغاثة. بكاؤها كان دوي الحقد، دوي الحنق المكتوم، المكبوت، كان صرخة اعتراض على الدهر.

- ألم اقل لكِ يا امرأة، ائتي بالرضيع، أسرعي؛ فقد تأخرتُ اليوم أيضًا عن عملي!

ضمّت المرأة رضيعها إلى صدرها بحرارة، والنواح يطاردها، فسأل محمد جدّه في حزن وأسف: ماذا يريد أن يصنع بالرضيع؟

التفت إليه الرجل - وبدا كأنه يراه أول مرّة - فقال بلين: أريد



أن أدسّها في التراب.

تساءل محمد في سهوم واستغراب: تئدها، وهي حيّة!؟

- أجل، يا ولدي!

- لكن لماذا؟

- لأنها بنت. ألم تر الناس يئدون بناتهم!؟

- ولماذا!؟

- لأن البنات في الصغر يزدننا فقرًا إلى فقر، وإذا تقدّمت بهن السن، فهن سبّة وعار.

عقد لسان محمد - من شدّة الغم والغيظ - عن الكلام، فانطلق جدّه يقول: لكنهن شرف لنا وقوة.

لم يتوقّع الرجل سماع ما سمعه، فتمهّل قليلًا وعيّ عن الجواب، فبادر إليه عبد المطلب بالسؤال ولم يفسح له بالحديث:

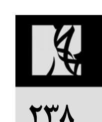
- ألم تكن لك والدة!؟

- نكّس رأسه وتلكّأ في الردّ: بلى.

- ألم تكن زوجك بنتًا يومًا ما!؟

- بلى!

- ترى أللرجال حياة دون النساء؟ وكيف بالنساء، هل يعشن دونهم؟





- هذا ما ألفيت عليه آبائي العرب.

فكّر محمد مع نفسه وقال: «بهت الرجل؛ فتشبث بآبائه... أوَلَو كان آباؤنا لا يعقلون شيئًا ولا يهتدون...!؟».

قال جدّه: يبدو أنك ضقت بالحياة ذرعًا، لا تحزن، يا رجل، فهي لا تمضي على منوال واحد، انصرف إلى الحرم، واستعن برب الكعبة واسأله الرخاء بعد الشدّة!!. ولمّا لاحت بوادر التردّد في وجهه، ألحَّ بالقول عليه: ارعوِ يا رجلُ، تعال نرجع إلى المدينة، فعسى أن أجد لك مخرجًا...

أبرقت السماء الحالكة، فتألق الفناء نورًا وسنًا وجلجل هزيم الرعد فانهمر وابل المطر.

اشتدت وطأة النعاس على أجفان محمد، فقام ليرجع إلى الغرفة، ويغفو قليلًا.

«مات عبد المطلب عن عمر ناهز مئة عام، وبعض قال مئة وعشرين وآخر يرى مئة وأربعين. على أية حال، ارتفع من دار هالة العياط والصياح فجر ذاك اليوم، ففاضت مكة عويلًا بسككها وأحيائها والجيرة بالجنب لدار عبد المطلب. فارتقى الناعي منيف موضعًا، ونعاه نائحًا: أيها الناس، ألا مات الشرف.. ألا ماتت السماحة!

خيّم على مكة الغم، فترك الناس أعمالهم، وخفوا إلى دار هالة، ناحبين.

داخل الدار، غسَّل زبير وأبو طالب جسد عبد المطلب - كدأب العرب - بالسدر والماء. ثم كفّناه بلفقين من الكتان اليماني، وحنّطاه بمزيد مسك، فاحَ أريجُه في الحي كلّه، فحملاه على كبير نعش، وخرجا به.

كان مشهد مكة يومذاك رهيبًا: النساء تنثر الشعر، وتشقّ الجيب وتدقُّ الرأس وتلطم الوجوه. بعضهن تنقر على الدفوف، وترنّ بالمراثي، نائحة. الرجال كذلك ضجّوا كالأطفال، باكين. إلّا أنني لم أرَ أحدًا أشدّ حزنًا من حفيده اليتيم، محمد. رأيته حاسر الرأس، ناثرًا الجدائل الفاحمة على كاهله الحاني وهو يشيّع جثمان جدّه في حرقة وأسى. كان كاسف البال، مفجوعًا؛ فتوجستُ خيفةً



أن يزول عقله ويفقد رشده».

«ليت شعري ما الكون؟ ولم هبطنا إلى الدنيا التعيسة هذه، ثم نعود مرغمين؟ لِمَ وصلناها على كره، ونخرج منها مضطرين؟ أين الغاية وأنى إليها السبيل؟

تُرى لم المنية تعاديني؛ فتذهب بسندي يوم حاجتي وتخطف كل وليجة يطمئن إليها قلبي، ثم بلوعة الفراق تبتليني؟».

انطوى محمد على نفسه، معتلج الهموم، غامرًا في غمرات الكروب، وهو يمشي وراء النعش، وقد احمرّت منه الأحداق والخيشوم. كان وسط المشهد المدهش ذاك، يعيش الغربة والانفراد بالغم. ولما استردّ وعيه، أحس بمعاناة الوحشة التي اكتسحت منه الأعماق.

القبر قد حفر قبل وصول المشيعين، ثم وضع الجثمان على شفا الحفرة واحتشد القوم حوله في صفوف متراصّة؛ مما لم يتمكّن محمد أن يتغلغل بينها، فانتحى، وجلس منقبضًا على صخرة.

قام حذيفة بن غانم[١] يبكي عبد المطلب، ويذكر فضله. ثم رثاه كذلك مطرود بن كعب الخزاعي[٢] بقصيدة. وقام من بعده الزبير، يقول: لم ينفك أبي يوصينا بتكريم شأن الحرم، ويقول لنا: إن الكعبة كانت معظمّةً منذ القدم، فإياكم وانتهاك الحرمة!

---

(١) اقرأ أبياته الشعرية في كتاب **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**، ٢/ ١٤٩. [المعرّبة]

(٢) **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**، ٢/ ١٥١. [المعرّبة]

ثم نهض أبو طالب من مكانه وقال: لقد سنَّ سيّد قريش خلال حياته الطيبة، خمس سنن حسنة، أجريت له من بعده:

حرّم نساء الآباء على الأبناء، ووجد كنزًا فأخرج منه الخمس وتصدّق به، وحفر زمزم ليسقي بها الحجيج، وسنّ الدية في القتل مئةً من الإبل، وأخيرًا لم يكن للطواف عدد عند قريش فسنّ عبد المطلب سبعة أشواط.

وهو - كما تعلمون - لم يشرب الخمرة، بل منها اشمأزّ، وحرّم الزنا، ونهى أن يطوفوا عراةً ويستقسموا بالأزلام وقام بكثير مما تحيطون به علمًا من الأعمال...

نزل الزبير في الحفيرة، واستلم الجنازة من الحارث وأبي طالب، ولمّا أرادت الجموع المحتشدة أن تنفضّ، راح محمد إلى جدّه العطوف ليودّعه الوداع الأخير، إلّا أن الزحام حال دونه، وأخذ عليه السبيل.

امتدّت فجأةً إلى كاهله يدٌ حنون، ورنّ في أذنه صوت رفيق:

- أين أنت يا حبيبي؛ أنا أبحث عنك منذ مدّة! هذا ما قالته بركة حاضنته الحنون، المواسية للهموم؛ فهي آخر ما تبقى له من أبويه.

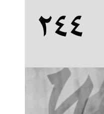
لما استقرّ محمد في حجرها، انقشعت عن قلبه الكئيب غيوم غمومه الصفيق، فبزغت شمس دنياه بعض حين..

آخر نجيمات الليل السابحة في سماء الصباح الباهتة أدركها الشحوب، واحدة تلو الواحدة. وسُجُف الظلام أخذت ترقّ شيئًا فشيئًا لتستشف من ورائه الكعبة ودور مكة. ونسمة شمالية تجري برخاء وبرد خفيف فتسرّي عن عيون المبكرين في الأسحار أثارةً من الغفوة والهجعة. وهناك في البعيد يدوي صياح الديك، فيشقّ الصمت الجاثم على المدينة.

انسلّ محمد، بسرعة، وهو غارق في الأفكار؛ فقد استيقظ مع الفجر ولم ير عمّه إلى جنبه في الفراش. تفقّده في باحة الدار الصغيرة، فلم يجد له أثرًا فذكّرته زوج عمه أن إيلاف رحلة الشام قد آن، وأبو طالب قد انطلق ليلتحق بالركب.

قد هام أبو طالب بمحمد وشغف به حبًّا، فلم يكن ليصبر على فراقه ساعةً من ليل أو نهار، هذا ما أحسّته منهما فاطمة ولامسته حقًّا، فلمّا رأت الضيق يطفو على وجهه الصغير، وتنازعه لهفة الشوق، أذنت له بالذهاب ليودّع عمّه قبل الانطلاق.

«كان زوجي أبو طالب. مولَعًا بمحمد أشدَّ الولع، ففي ما مضى من السنوات الأربع، لم يهنأ له بال ما لم يخرج معه محمد. وكان يرعى يتيم أخيه رعاية كالئ لا يغفل قط. ويؤثره على أولاده،



عقيل وجعفر وابنته الصغيرة؛ فيدنيه إليه في فراشه كل ليلة إذا أخلد إلى النوم، كيلا يستشعر الصبي العزلة والوحدة أو يفيق في موهن من الليل، مأخوذًا مذعورًا من الحلكة».

لا زالت بركة وليجة محمد. وها هي فاطمة زوج عمّه، تلك العقيلة الشريفة من بني هاشم أخذت تمنحه من الحب البالغ؛ مما جعل بعض الغريبات ينحين عليها باللوم، لأنها تؤثره من دون أولادها بحنان فائق.

لا ينسى محمد أبدًا يوم كان محزون الفؤاد، كاسف البال. فانكفأ في ركن، يكتم ما يطويه لفراق أمه من لواعج الأحزان، ويذرف من العينين دموعًا مرّةً بكماء. لم يكن محمد يصرخ كالأطفال، بل كانت أصداء بكائه تتردّد في الأعماق، فهو يدافع الكآبة ويغالب العبرة، كي لا يظهر على أمره أحد من البشر. تذكّر يوم كانت الدار خاليةً إلّا من زوج عمّه المنهمكة بغسل الوبر ونفشه على السطح، فأحس فجأةً يدًا دافئةً تلامس منكبيه، وصوتًا سال عطفًا ورأفةً يستقر في أذنيه:

- لِم أنت باكٍ ياحبيبَ فاطمة؟

حاول محمد أن يكفكف العبرات، وينقطع عن النحيب؛ فعلى صغره، لم يرد أن يشرك الآخرين فيما ينغّصه ويهمّه، لكنه لا يدري لِمَ لمِ يتمالك نفسه، ويستمسك من حزنه، فأجهش بالعويل، وأرخى لغصته المكبوتة العنان، من دون أن يرقأ دمعه المنحدر على الوجنيتن، وذلك لمّا ضمّته فاطمة بين جناحيها الدافئتين، ومسحت بأصابعها الرقيقة دموع عينيه.

- أبكي على أمي، يا زوج العم!

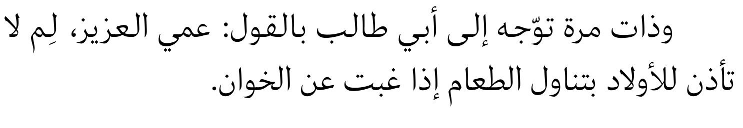
- بأبي أنت وأمي، لا تحزن، لك مني عوض عنها.

أجل، هي كانت له أمًا رؤومًا، عطوفًا، إلّا أنَّ لأبي طالب محلّه الخاص في قلبه؛ فقد كان يشّم منه رائحة جدّه، ويلمس فيه خصاله ويمثّل له أبًا لم تكتحل عيناه برؤيته. في عمّه الفقير المقلّ لكن السخيّ بعاطفته، كان يرى أباه وأمه وجدّه، فيهون عليه اليتم في جنبه، وها هو أبو طالب قد عزم على مفارقته، والرحيل عنه إلى تجارة الشام.

«كَلِفَ والدي بابن عمّنا، بل هام به وتيّمه حبه، ومحمد أيضًا مسّ شغاف قلبه وَجْد عمّه، وبادله ودًّا بودّ. والغريب أنني كنت أكنّ له حبًا جمًا ولا أجد في صدري حاجةً مما أوتي، ولم تأخذني نوبات الحسد، على أنني آخر العنقود، وأصغر منه سنًا. وكذلك أخوتي، شأنهم كان شأني؛ فمحمد ليس كأحد ممن حولي من الصغار: كان جميل الطلعة، طلق الوجه، لا يحرص على طعام ولا يشره إليه.

لمّا حضر جدّنا الوفاة، انضمّ هو إلينا في دارنا. كان أبي آنذاك فقيرًا معوزًا، لا يسعه أن يهيئ لنا من الطعام شيئًا مذكورًا، ومائدتنا هي أيضًا لم تضمّ ما يُقيم أودنا، وعلى ذلك لم يكن والدي يبسط يدًا إلى مأكل أو مشرب ولا يأذن لنا بذلك إلّا بعد حضور محمد، وكان يهيب بنا صارخًا: كما أنتم حتى يحضر!

وإذا حضر، فاستقرت منه نظرة على ضآلة الطعام، تبلّغ بالقليل وقنع بالزهيد، فيحرّضه والدي على الأكل بإلحاح وإصرار».



وذات مرة توّجه إلى أبي طالب بالقول: عمي العزيز، لِم لا تأذن للأولاد بتناول الطعام إذا غبت عن الخوان.

ردّ عليه مبتسمًا: كلا، يا ولدي، كلا... أنت خفيف المؤونة، بل مبارك؛ فإننا لم نكن قبلك - يا حياتي - نملك من المال شيئًا يذكر، وها هي المسكنة تخفّ علينا بحضورك ثم تخف. هذا ما يشهد به الجميع حتى ابني الصغير جعفر.

لاحت على محمد أمارات الاستفهام والعجب فعاجله بالقول: ذات ليلة، إذ بت في دار أبيك مع الحاضنة بركة - وقد اعتاد محمد على ذلك - قال جعفر بعد تناول العشاء: ياليت ابن عمنا كان معنا الآن! سألته مستفسرًا لأجتلي ما في ضميره: لماذا؟

ردّ بلحنه الطفولي: معه نشبع، بل نُفضل من الطعام بحضوره. قال ذلك، بينما لم يكن عشاؤنا تلك الليلة أقلّ من مثيلاته...

لقد كان محمد - منذ أمد - على علم أن ملجأه الوحيد ومأواه الوثيق على وشك الرحيل إلى الشام، فاسودّت الدنيا في عينيه وأحسَّ أن المدينة بمن فيها قد ران عليها متراكم الغبار، غبار الغربة، غبار الوحشة، ورنّقت سحب الهمّ الصفيقة في سماء قلبه، وطالت عتمة قاتمة أفق حياته. أجل، منذ ذلك الحين أخذ يبكي دمًا، لكن الخجل ساوره؛ فلم يتجرأ أن يسأل عمّه الانصراف عن رحلته، والبقاء معه، ولم يتمكّن أن يطلب مرافقته؛ فليس من دأب العرب في رحلات التجارة أن تصطحب الصغار، ممن لم يبلغوا مبلغ الرجال.

خلّف محمد وراءه مدخلًا من مداخل السوق، وشقّ طريقه



في بعض الأزقـة حتى بلغ مسفلة مكة، حيث منحدر السيول، ومجمع الأكـواخ الصغيرة، المدرية، الأكـواخ المقفعة بين أحياء البؤساء، ومن لفظتهم قبيلتهم من المنبوذين والمطرودين، الذين آووا إلى قريش لاجئين.

هناك بين أكمتين منخفضتين تنهَدُ هضبة متسعة، يغصّها ما يربو على الألف من الإبل. ينوء بعضها بجسيم الأثقال، ويترنّح آخر تحت رحالٍ خشبية، غطّتها حشايا الصوف أو جلود الشاء.

كلٌّ منهمك في أمر ما، هنا وهناك: منهم من يعدّل الرحل على ظهر الجمال، وآخر يقوّم الأثقال، وثالث يعلف البعران، وثلة تتجاذب أطراف الكلام، أو تودّع الأهل والأقرباء، ونفر من الحداة التف حول منديل افترشه للفطور بين الإبل والأحمال.

عند الضواحي، فوق سطوح تلك الأكواخ المدرية المقفعة، اشرأبت أعناق الأمهات والصغار الحفاة لتطّلع على ما حولها. تشابكت جلبة الناس والـدواب، فلم تكن تصل إلى الأسماع من بعيد إلّا صوت منعقد كثيف، لا يمتاز ولا يستبين.

اعتلى محمد صخرةً، وأدار اللحظ يمنةً ويسرة، خاسئًا وهو حسير؛ فاندفع إلى طليعة الركب، وانتحى جانبًا على الطريق، علّه يرى أبا طالب إذا فصلت العير.

آذنت الطبول بالرحيل، فحلّت الإبل جثوتها، وقامت تخبّ مضطربة. سلك نحوُ مئتي رجل وما يناهز ألفي بعير السبلَ الفجاج وقطعت جميعًا الهضبة المنبطحة بين يديها، ثم اهتز العير من كل جانب؛ فانحلت عقدة القافلة، إذ دلفت أوائل الإبل رويدًا رويدًا ثم



توالت المراكب تسير بهوادة، بعيرًا تلو بعير في خط ممتدّ طويل.

أرسلت جلاجل الجمال رنينًا مبهمًا بادئ الأمر، ثم تناسقت نغماتها وتناسقت، فأخذ إيقاعها السبيل إلى سويداء الصدور؛ فانبعثت فيها ذكرياتها الهامدة وخواطرها العتيقة، وتدفّقت إليها هموم قاتمة وأتراح وأحزان.

ما كان نصيب محمد من كل ذاك إلّا حزن عنيف... سحيق، وعبرات نضخت في مآقيه، لم يعد يملك لها دفعًا مع ما كان ينفق من الصبر الجميل.

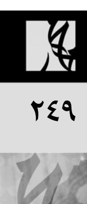
بزغت الشمس، فمست بأشعتها الذهبية قمم الجبال، فتوهّج الجوّ من اللّهب، واضطرم من شدة الحرّ، على أن الربيع لم ينصرم بعدُ، ولمّا تمض على تباشير الصباح إلّا سويعات.

وقع بصر محمد على عمّه بغتةً، وهو يتقدّم القافلة، وصفّ الإبل الممتد بعوده الرجولي الجسيم، وعباءة ململية شفيفة، زهرية اللون، وكوفية وبرد مفوف[1]، كلٌّ من الكتان اليماني، وعقال فاحم أخذ من هامته مستقره. كان أبو طالب راكبًا مرقالًا، ضامر الكشح، لطيف الأذن والرأس، أثيث الشعر والعُرف.

«أنا أيضًا كنت أضيق بفراقه ذرعًا؛ فهو كلّ ما تبقّى لي من أخي، لكنني لم أرغير الرحلة بدًّا، ولم أجد سواها مخرجًا من شظف العيش وضنك الحياة؛ فعزمتُ على الرحيل إلى الشام بما كان في يدي من الوفر القليل.

---

(١) برد مفوف: رقيق مخطط. [المعرّبة]



التقيت بابن أخي فور انطلاقنا. كان واقفًا على هامش الطريق، منكفئًا محسورًا، يتخّطى الركب ببصره، وهو كاسف البال، حزين، فما أن رآني، حتى اندفع إليّ متشبثًا بعنان بعيري. كان يبث العويل في الفضاء ويبكي من الصميم ويلحّ عليّ بالقول: خذني معك يا عم، خذني».

رثى لحاله أبو طالب ورقّ له قلبه، فنزل عن مركبه، والدمعة تترقرق في عينيه، ثم انتحى به جانبًا ليقول: يا حياتي إنني أيضًا لا أقوى على الصبر عنك ساعةً واحدةً! ثم التفت من فوره إلى غلام في الركب يأمره: انطلق الآن بجواد إلى داري وبلّغ أم طالب أن محمدًا انضمّ إليّ في ركب الشام؛ فلتجمع ثيابه في صرة ثم ائتني بها.

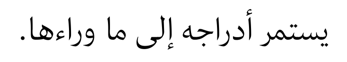
التقط أبو طالب بسبّابته الرقيقة دموع محمد، وهي تطفر من مؤقه، وجعله ردفه على البعير...

ما هي إلّا لحظات حتى انقشعت عن سماء صدر محمد سحائب الغم والأسى والتمعت سحنته الحبيبة، واستشرقت كالشمس...

خلّف الركبُ وراءه جبال شمال مكة الجرداء بعد أن مرّ بالمعبر، ثم انحدر كنهر رفيع ينسال في عراءٍ نشب فيه حريق.

قد مرّت على أول رحلة قام بها محمد وآخرها، سنوات ست، لم يفارق مكة خلالها إلّا بضع مرّات، إذ أصحر مع بني عمّه لرعي القطيع والأغنام.

في رحلته الأولى زار يثرب، ولكنه في هذه سيعرّج عليها، ثم



يستمر أدراجه إلى ما وراءها.

سمع محمد عن الشام وحواضرها الكثير، وها هي الفرصة الآن أتيحت له ليرى بأم عينيه ما سمع عنها وما لم يسمع.

استغرب محمد ما رأى في الركب الجديد، فعلى مناكب رجاله كنائن النبال والقسي، ناهيك عن البيض، وهذا مما لم يعهده في رحلته تلك مع أمه وبركة، حيث توقّف بهم المطاف عند يثرب؛ فبادر عمَّه بالسؤال عن السبب والدليل.

- هؤلاء جميعًا رجال حرب شجعان، استأجرهم القوم تخوّفًا على بضاعتهم ممن يأخذون عليهم السبيل، على أن قريش تستظهر أيضًا بحلفائها الأقوياء من القبائل القاطنة على الطريق وعلينا أن نقدّم لهم كل عام من المال والمتاع لنستظل بسيادتهم، ونستعين بكماتهم، وعلى ذلك نلتزم نحن أيضًا الحيطة والحذر، فنعير - بأنفسنا - العير حراسةً لا تفتر...

الشمس بزغت شيئًا فشيئًا في كبد السماء، وأخذت تلحّ بأشعتها الشرسة على الصحراء. والجمال غدت تخبّ خبًّا بعريض الخطوات، فتنثني الرُكب الخلفية منها قليلًا تحت وطأة عودها الثقيل؛ فيتموّج لها على الأرض شعرها الأثيث.

زاغت مكة عن بصر محمد رويدًا رويدًا وغابت بمعالمها إلّا ما لاح في البعيد السحيق من جبال فاحمة لامعة بدت هي أيضًا قاتمةً بعد أن اكتسحها عثير الإبل القاني.

فاض بالمكان حلو حداء كان الحادي يرسله بصوت خفيض، مفعم بحنان وحنين، يلّف الصدور بسحابة حزن غامض رقيق:

- هيد... هيد... هيد...!

- يا جملي... يا نجيب!

اصبر... اصبر على الحِمل... اصبر اصبر على العبء... اصبر اصبر على العناء...!

كانت نغمات الحادي تتناغم مع نقل أخفاف الإبل وهزّات رأسها الدائبة، الرتيبة. نغمات تملؤها شوقًا غريبًا، يزيل عنها النصب، وينسيها كل شيء؛ الجوع والظمأ والقيظ، ويحثّها على الخطى والمضي حثًّا عنيفًا.

انطوى محمد غارقًا في أفكاره، ينعم النظر مرّةً في قدّامه، ثم يدير فيما حوله لحظه: ثمة، على اليسار قراريط، ذاك المرعى الذي انطلق إليه بضع مرات مع القطيع، وهناك في البعيد تلال... ربوات منخفضة، لكنها كثة... كثيفة، قد فغرت فاهًا كالأفعوان لتبلع الركب والطريق وتقذف بهم في غيابات الحلق. ثم جبال وجبال سود، بيض، وربما قانية، وثنيات وعقبات لا عهد لها بالهضبات على امتداد ثلاثين فرسخًا...



يـا مَــنْ، لأقــوامٍ فُـجـعْـتُ بهِم — كـانـوا مُـلُـوكَ الـعُـرْبِ والـعُـجْـمِ

فاستأثَر الـدهـرُ، الـغـداةَ بهم — والـدَّهــرُ يـرمـيـنـي، ولا أرْمــي

لـو كــانَ لـي قِـرْنًـا أنـاضِـلُـهُ — ما طـاشَ، عند حفيظةٍ سهمي

أو كـان يُعْطي النصفَ قلتُ له — أحرزتَ قِسْمَكَ، فالْهُ عن قِسْمي

يـا دهــرُ، قـد أكـثـرت فجعتنا — بسراتنا، وقـرعـتَ فـي العظم

وسَـلَـبْـتَـنـا مـا لـسـتَ مُـعْـقِـبَـه — يا دهرُ، ما أنصفتَ في الحكمِ[1]

أبيات زهير كان يترنّم بها غلام زنجي بصوتٍ يسيل رقةً وشجًى؛ فأرهف لها سمعُ محمد وإحساسه، واستهوته وهو على وعيه؛ إذ المنيّة فجعته هو أيضًا بسراته وسلبتهم من يده.

وهناك هناك أرض كفات، جامعة للأموات، قد ران عليها الغبار، مقبرة صغيرة على شفا قرية جرداء ضئيلة.

أمعن محمد النظر في المكان، فلم يستغربه، بل انكشف عن بصره الغطاء، فتمثّلت أمام عينيه الأبواء، وآمنة الحنون، وراودته ذكرياته في السادسة من العمر.

يا لَبساطة الطفولة وسذاجتها... ويا لعذوبة الكون في كنف الأم! هاجت في ذهن محمد خواطر تلك الأيام الغضّة القصيرة

---

(١) **الديوان** لزهير بن أبي سلمى، ص ١٢٣. [المعرّبة]



التي قضاها مع أمه، إذ كان يعود إلى الدار فيراها على انتظار، وقد أعدّت له الطعام فتستقبله بقبلات حارّة تطبعها على وجنتيه وتمسح على رأسه بدافق الحنان، ثم تغسل منه الرجلين واليدين، وتقدّم له الطعام وترغّبه فيه، لكنّه الآن...!

... قَذًى بَعَيْنيكِ أمْ بالعينِ عُوّارُ — أم ذَرّفَتْ إذ خلتْ من أهلها الدارُ

كـأنّ عيني لـذكـراهُ إذا خطَرتْ — فيضٌ يسيلُ على الخدّيْنِ مِدرارُ

تبكي لصخرٍ هي العَبْرَى وقد وَلِهتْ — ودونه من جديدِ التربِ أستارُ[1]

ها هو غلام آخر ينشد أبياتًا للخنساء بحرقة وصوت شجي كسير.

تذكّر محمد والدته، فاستنزف من العينين دموعًا سخية، وصبّ عبرات سجاما.

كم أضنتها الوحدة وكم تجرعتْ الاغتراب! وها هو قبرها اليوم قد انزوى في مكان سحيق، مما تعذر عليه أن يلتمس لقلبه العزاء، ويهوّن عليه خطب الفراق.

استرعت حال محمد انتباه أبي طالب، فراح يمسح رأسه في رفق وحنان، وهو يصعّد الآهات. سأله: أتعرف أين مثواها؟

- نعم

أوعز أبو طالب إلى القافلة بالمضي، ثم لوى بعنان بعيره نحو المقبرة ليعرّج باليتيم على قبر أمه...

---

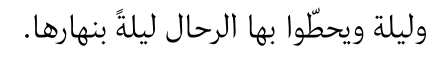
(١) **الديوان** للخنساء، ص ٤٧. [المعرّبة]

الرحلة الطويلة انتهت أو كادت، والعير - بعد حوالي شهر - وصلت إلى نهاية الجزيرة، وبلغت مشارف الشام.

ألقى الركب كعادته عصا الترحال على الضفاف الجنوبية من يثرب ثلاث ليالٍ فانثال إليه للبيع والشراء أهل المدينة ومن يحيطها من أوس وخزرج ويهود بني قريظة وبني نضير وبني قينقاع، فسنحت بذلك لمحمد الفرصة كي يتردّد مع عمّه على من يمت إلى أبيه بصلة القربى، ويزور قبر والده بدار النابغة.

خلّفت العير وراءها قاعًا افترشته صخور بركانية حادّة. فاحمة في الجانب الجنوبي والشرقي من يثرب، ومرّت بواحة خيبر الثرثار، ثم انعطفت نحو يابسة صلبة، وانتهى بها السبيل إلى شفا «نفوذ»، تلك الرمضاء الممتدة.

ها هي الأرض تعاود أنفاسها من جديد على مقربة من بني سليم وذلك بعد أن قطع الركب طريقه وسط بيداء الردى، فاتخذ الجمع عند بني سليم مستقرهم لينالوا يومًا ما في كنف ضيافتهم قسطًا من الراحة ويزيلوا عن أجسامهم وعثاء تلك الليالي القاسية العجفاء، ثم يقدّموا لهم أتاوة قريش السنوية، ويزوّدوا قربهم القاحلة بالماء. ثم يواصلوا الطريق إلى أحياء بني غطفان ليصلوها بعد يوم



وليلة ويحطّوا بها الرحال ليلةً بنهارها.

وبذلك انقطعت القافلة عن السهول، واستمرت أدراجها بين جبال متلاصقة متسلسلة على اليمين، وأخرى قمم متبعثرة تتلاصق أحيانًا، فلا يبدو الركب إلّا سائرًا في فجّ عميق.

الجوّ ثمة ألطف من بطاح خلّفوها وراءهـم. وعلى جانبي الطريق ينابيع ماء ناضحة، نبتت لها شجيرات هنا وهناك، فسفّت لها الطيور صغيرها وكبيرها، فرادى وأسرابًا، وأخذت تحلّق بلين ورخاء فوق الوادي والذراري. كأن المكان كان مربع قومٍ ما؛ فقد توزّعه رسم المراجل، ورماد المواقد، وبعر الإبل والبعران. وعليه لفّ الموضعَ صمتٌ غامض ورانَ عليه سكون عميق، لا يشقّه إلّا رجع صدًى يدوّي في الخلأ الدهش بعد أن يصطدم بالجبال وينتشر في الفضاء، فيتردّد ويتردّد حتى يخفّ ويهدأ.

كان محمد يؤثر الهدوء والعزلة، ويرغب في الخلوة؛ فطابت نفسه إلى ما لامسه من لطف الجوّ ورقّته، بعد تطوافه الطويل بوديان باسرة عابسة، إلّا أن هاجسًا غريبًا ساوره، فتوجّس منه شرًّا. إحساس غامض انتابه فشعر أن الموضع الوديع وهذا المكان الخلاب يتنفس باللعنة الأبدية. فتراخت من حيث لا يشعر على عينيه الحور أسدال الحزن والكآبة.

ما إن همّ أن يسأل عمّه عن الوادي، حتى سمع صوته يتعالى، منشدًا بنبرة رجولية. ونغمة شجية:

فـي الـذاهـبـيـن الأوّلـيـن مـن الـقـرونِ بَـصـائِـرْ
لـمّـا رأيــتُ مــواردًا لـلـمـوتِ، لـيـس لـنـا مَـصـادِرْ
ورأيــتُ قــومـي نـحـوهـا تـمـضـي الأكـابـر والأصـاغِـرْ



لا يــرجــع الــمــاضــي إلْـيــ ـيَ، ولا مــن الــبــاقــيــن غــابِــرْ
أيــقــنــتُ أنـــ ـي لامــحــا لــةَ حــيــثُ صــارَالــقــومُ صــائِــرْ[1]

- لمن هذه الأبيات، يا عماه؟

- لقُس بن ساعدة، يا ولدي!

عرف محمد بذكائه ووقادة ذهنه أن أبا طالب لم ينشد الأبيات هذه عبثًا؛ فهو ليس ممن يستشهد بقولٍ باطلًا؛ إذ كان ذوّاقة، طالما نظم الروي، واستهوته القصيدة والكلام الجزل الفخم...

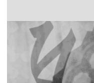
استقرأ أبو طالب ما كان يدور في خلد محمد ويجول في عقله الصغير، فتداركه بقوله: يُدعى المكان هذا وادي حجر. كانت قبل ألفي عام، بل قبل نبوة إبراهيم أرضًا عامرة، كثيرة الخيرات، قطنها قوم ثمود - قوم أولوا بأس شديد - برخاء بال ووفرة نعم، فحقّ عليهم العذاب، فأصبحوا جميعًا في ديارهم جاثمين، هالكين. ثم أشار إلى الجانب الأيمن، حيث الكهوف والشعاف، فقال: هناك كانت حاضرتهم، قد نحتوا من الجبال بيوتًا عارمة. أمعنْ النظر ترَ آثارهم باقية!

نقّل محمد بصره إلى حيث أشار، فرأى قرب القمة، حيث ينحدر السفح بعض انحداراته، مداخل حالكة، وفوهات مدلهمّة ومنافذ محفورة، كأنها القبور.

الأبنية شيّدت برصانة؛ فلم تعفُ معالمها على مرّ الليالي

---

(١) **البيان والتبيين**، ١/ ٢٥٤؛ **الأوائل**، ص ٦٧؛ **تاريخ مدينة دمشق**، ٣/ ٤٣٢ و٣/ ٢٥٤ و٧/ ٣١٩؛ **العقد الفريد**، ٤/ ٢١٥. [المعرّبة]



والأيام. إلّا أنها قد أحيطت هي ومداخلها بما انهار عليها من الجبال من الصخور والأحجار وبما لفّها من الأعشاب الطبيعية النابتة هنا وهناك. تمثّلت البيوت المنحوتة في الجبل محاجر قاتمة وبدت جماجم جوفاء ترميهم بنظرات سمجة وتحملق فيهم بصلافة.

- لقد زرتُ تلك الديار في سابق رحلاتي؛ فقوافلنا لم تنفكَ تحطّ رحالها سويعات في هذا الوادي. عاش فيه قوم ذوو مرّة، شديدوا المحال والقوة. لكن اليوم استحالت مبانيهم إلى أنقاض خلقة بالية، مهجورة موحشة، تأوي إليها حيوانات البوادي: الثعالب والضباع، والبوم والنسور. إلّا أن نقوش الأصنام والطيور لا زالت في بعض السفوح وعلى جدران الدور. كنت أود أن اذهب بك إليها لولا غسق الليل والغروب.

كان الموضع كما وصفه أبو طالب: وادٍ محاط بجبال شامخة تحول دون نور الشمس، فلا تستقبل الهاوية ضوءها مبكرًا عند الفجر، والشمس تتعجل للملمة أشعتها إذا الغسق وقب. والليل فيه يتقّدم، فتغطّ حاضرة ثمود وما تبقى من حفرها ومنافذها في حلكة الظلال الوارفة.

لم يشقّ سكون الجبل إلّا نواح شجي، أخذت بومة ترسله في الفضاء فيتردد بضع مرات؛ فتنتعش أخواتها رويدًا رويدًا، ثم تطلق هي أيضًا أنةً تلو الأنة، فيتضاعف التشاؤم في الأعماق من تلك الديار، القفراء المنكوبة.

لفّ محمدًا الحزن والغم، واعتلج بصدره الهم من الغروب المتعجل بين الأطلال الموحشة الكئيبة، فتمنى لو استعجلوا بالخروج، وباتوا في وادٍ غيره...



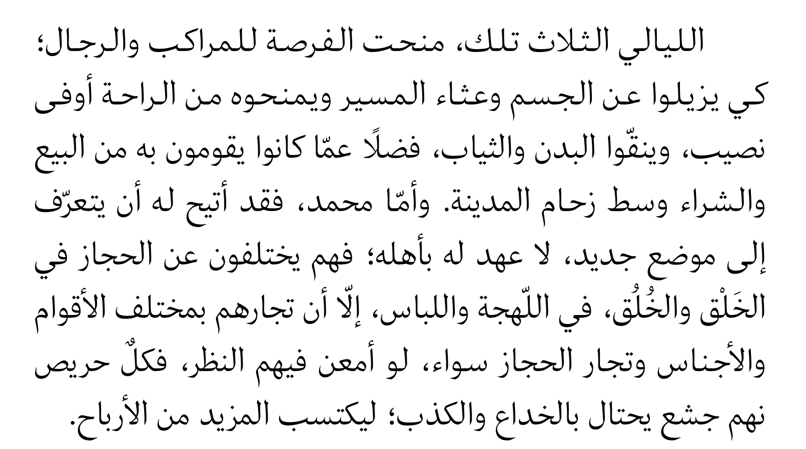
على جانب من سوق دُومَة الجندَل[1]، كان محمد جالسًا على حزمة سلع، وقد استقرت نظرته على المارّة ممن كان يتجاذب الحديث أو يتاجر.... السوق كانت نافقة رائجة، اكتظت بالمتاع. راح إليها يتجر ببضاعته الخاصة، لفيف من تجار العراق والشام والحجاز.

منذ ليال ثلاث، حطّت القافلة رحالها في السوق هذه، وبسطت أمتعتها للعرض أو تبادل البضاعة مع تجار الشام والعراق، بينما التفّ حولهم أهل المدينة للتطلّع أو الشراء.

أذعنت العير للسرى، فقطعت وادي حجر ومبوأ ثمود حتى بلغت ربوع الشام، ثم انعطفت نحو الشرق، فوصلت - بعد ليلةٍ - دومة الجندل، حيث تلك البقاع الخضراء... الغضة النضرة، بمائها الغزير ونخيلها الكث الكثيف. كأنها زمردة تتلألأ وسط سهول حرّة، تربط الحجاز بالشام والعراق.

---

(١) كانت أسواق العرب عشرة أسواق، يجتمعون بها في تجاراتهم، ويجتمع فيها سائر الناس، ويأمنون فيها على دمائهم وأموالهم، منها دومة الجندل، يقوم في شهر ربيع الأول. لمزيد من الاطلاع راجع: **تاريخ اليعقوبي**، ١/ ٢٧٠؛ **كتاب المحبر**، ص ٢٦٣؛ **معجم البلدان**، ٢/ ٤٨٨. [المعرّبة]

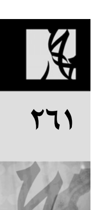


الليالي الثلاث تلك، منحت الفرصة للمراكب والرجال؛ كي يزيلوا عن الجسم وعثاء المسير ويمنحوه من الراحة أوفى نصيب، وينقّوا البدن والثياب، فضلًا عمّا كانوا يقومون به من البيع والشراء وسط زحام المدينة. وأمّا محمد، فقد أتيح له أن يتعرّف إلى موضع جديد، لا عهد له بأهله؛ فهم يختلفون عن الحجاز في الخَلْق والخُلُق، في اللّهجة واللباس، إلّا أن تجارهم بمختلف الأقوام والأجناس وتجار الحجاز سواء، لو أمعن فيهم النظر، فكلٌّ حريص نهم جشع يحتال بالخداع والكذب؛ ليكتسب المزيد من الأرباح.

مع أن محمدًا تكلّف المشقة والعناء، ولقي من سفره الوهن والكلال، ونال منه الإعياء كل منال، لكن شعورًا بالرضا كان يداخله ويسبر أغواره؛ فمحمد أراد أن لا يفارق عمّه؛ فوطّن نفسه على هذا السفر الشاق، وانصاع للنصب والأتعاب، لكن قلبه الآن راح يهيج صبابةً إلى مكة، وروحه صارت ترفرف شوقًا إلى حاضنته بركة وزوج عمّه وبني عمومته الشفقاء الرحماء، وبدأ يتلّمس ما كان يطويه من حب لتلك الديار الفظة وما يحيطها من اليابسة وقاحل القفار. ومع وطأة الحنين تلك، كان شوق المعرفة يحدوه خلال الرحلة؛ فهي سِفر حافل بالتجارب، وكل ما في الطريق يرفده بالعلم: ظواهر المدن وبطاحها، الناس، الطقوس والعادات، رحاب السهول تلك، والوديان الوعرة، والطبيعة الخلابة، ثم النجوم الزاهرة التي كانت تشبّ في الصحراء، إذا جنَّ عليه الظلام، وتملّكه المنام.

- ألا تزور وَدًّا يا محمد!؟

هذا ما لهج به زيدٌ بن عمرو من بني عدي، الذي التحق بالركب من مكة ببضاعة مزجاة يسيرة. وهو الذي توسّم فيه محمدٌ -



على صغر سنه - ما لم يتوسّمه في الآخرين من التجار.

كان زيدٌ يخلص خلال الطريق إلى نفسه، متأملًا متدبرًا ويزهد في الحديث ما وجد إلى ذلك سبيلًا. وقد سبق أن التقى به محمد في مكة بضع مرات. كان يطوف الكعبة بطريقة خاصة، وينبذ الأصنام؛ فانصرف عنه المشركون من أهل مكة، وولّوا عنه الوجه، مستهزئين، يسخرون منه، قائلين: «إنه يدّعي البحث عن الحقيقة». لكن، أنى يدعو الآن محمدًا إلى عبادة ذلك الصنم!؟

انبهت محمد؛ فلم يَعُدْ يملك جوابًا لما استشعره من عظيم القرف، إلّا أن زيدًا ظن أنه لم يسمعه، فعاد إليه بالسؤال.

أجابه، بجفوة، مقرّعًا: لا، لا أزور!!

- لكن الركب سيشدّ المطايا ليخفّ اليوم إلى وَدٍ فوجًا تلو فوج.

كان محمد على علم بالموضوع؛ فمنذ سويعات نفض العير يده من التجارة، وأخذ يحزم المتاع، لينتحي به وبما حمّله من الهدايا نحو ربوة استقرت عند حافة المدينة، تتطلع عليها بقلعتها وحصونها الشاهقة من كل جانب. وكان محمد يعرف أيضًا أنّ في القلعة معبد ودّ؛ فعمّه سبق أن أخبره بذلك ثم سمع طفلًا من دومة الجندل يقول عن ودّ:

«هو صنم حجري كأعظم ما يكون من الكماة، ضخم مديد، بعنق طويل، قد انتصب واقفًا، تدلّى من رقبته سيف، وتنكّب قوسًا وكنانة، وحمل في يمناه حربة، فيها لواء، وعند قدمه صندوق طافح بالحجر. كل ذلك منحوت من الصخر».

اجتاحت محمدًا أسئلة كثيرة، وألحّت عليه؛ فتشبّث بذهنه بعضها وتعلّق: ترُى كيف يعبد القوم أصنامًا صنعتها أيديهم من الحجر والطين والتمر والعجين...، بل كيف رغبوا عن ملّة إبراهيم النبي؛ فانقلبوا إلى بئس العاقبة وسوء المصير...، ليت شعري كيف كانت مناسكه. شريعته. ملّته؟

- لِم لا تزور كما يزورون؟

- ليس لي في ذلك رغبة!

- أحسنت يا ولدي، ليت شيوخ القوم يملكون عقلك.

- أصحيح ما يقال إنك تركتَ - منذ أمدٍ - عبادة الأوثان؟

- أجل، يا ولدي!

- لماذا؟

- التفكير... أجل التفكير وطويل التدبر هو الذي بلغ بي إلى ذلك؛ فأنا منذ سنين طوال أجوب الأقطار، أسأل الحكماء، وأستفسر العقلاء، على أمل أن أظفر بجواب.

جلس زيدٌ على حزمةٍ أمام محمد وجهًا لوجه، وقال: لقد بَصُرْتُ بما لو بَصُرَ به كل ألمعي لبيب، لعزف هو مثلي عن الأوثان وعبادة الأصنام.

لمّا رأى زيدٌ انشداد محمد إليه وأنه قد أعاره أذنًا صاغية، قال مثل داعية يهزّه شوق التعليم: كنّا على دين إبراهيم الحنيف وابنه إسماعيل - عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ - وكان البيت مطهّرًا من الرجس والأوثان،



والعرب ينثالون على مكة في الموسم، ويخفّون إليها من كل حدب بالجزيرة وصوب، آمّين البيت الحرام ليؤدّوا الحج الإبراهيمي، حتى تملّك أمر مكة عمرو بن لُحّي[١] - عليه اللعنة الأبدية - رجل من أشراف خزاعة، عزيز بين قومه، يطعم الجائع، ويسدّد الدين عن المسكين الدائن، فهوت إليه الأفئدة وأطاعته فيما يأمر، فلما سفه نفسه ألقى عليه الشيطان قوله ووسوس إليه وزيّن في عينيه أن يحرّف ملّة إبراهيم، ويتخذ من دونه دينًا، فقدم بهبل إلى مكة، ونصبه في الكعبة، ثم حمل أوثانًا سبعًا إلى منى، ومكّنها في شتى بقاعها. وعمرو هذا أدخل في تلبية إبراهيم[٢] ما ليس منها، ويقال إن إبليس أوعز إليه بذلك وأمره، إذ تمثّل له عجوزًا، راكبًا جملًا أشقر؛ ثم دانت القبائل العربية للأصنام، فسلّم عمرو ساداتها أوثانًا يحملونها إلى أهليهم ليشركوها باللّه....

طفلت الشمس ومالت للأصيل. وخفَّ ما كان يدوي في سوق دومة الجندل من الزحام والضجيج.

---

(١) كان أول من غير دين إسماعيل عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ، فنصب الأوثان وسيّب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحمى الحامية عمرو بن ربيعة، وهو لحيّ بن حارثة بن عمرو بن عامر الأزديّ. وهو أبو خزاعة؛ **الأصنام**، ص ٨؛ و**السيرة النبوية**، ١/ ٧٦؛ **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، ٢/ ٢٩ و٣٠؛ و**أنساب الأشراف**، ١/ ٤؛ و**تاريخ اليعقوبي**، ١/ ٢٢١ و٢٥٤؛ **جمهرة أنساب العرب**، ص ٢٣٤. [المعرّبة]

(٢) تلبية المسلمين اليوم هي تلبية إبراهيم «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك...»، وقد سبق أن حوّلها عمرو بن لُحي بوسوسة من الشيطان إلى «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلّا شريك هو لك، تملكه وما ملك». [الروائي]. راجع: **السيرة النبوية**، ١/ ٧٨. [المعرّبة]





أغلقت الدكاكين، واحدة تلو الأخرى، وبدأ يلملم البضاعةَ الغرباءُ من التجار ثم شرع أبو طالب كذلك يشدّ المتاع مع عدد من الأجراء، ويعدّ العدّة للرحلة والسفر في قادم يومه.

نقّل زيدٌ بصره عن السوق، ثم التفت إلى محمد ليقول: أجل، هكذا، يا ولدي، أشرك الموحدون باللّه وألقوا بأيديهم إلى الشقاء، إلى التهلكة والضلال....

بدت على محمد بوادر الاستعجال، فعاجله زيدٌ بالقول: قم، يا ولدي؛ فإنك تريد - كما يبدو - أن تكون في عون عمّك، قم واذهب إليه، بارك اللّه فيك...!

أخذت وطأة السموم تخفُّ رويدًا رويدًا بعد دومة الجندل؛ فرقّت لها حواشي الطبيعة، وطاب الجو والفضاء، ثم لاحت ملامح الحياة، بل برزت معالمها، وانتعش العراء بعد الجفاف، بعد التباب والهلاك، واستروح القحل عطر النشاط، فلم يَعُدْ يبدو للعيان إلّا القرى والأرياف، إلّا حشد السوام، البقر والماعز والشاء، وتلك البساتين والمزارع والحقول، والأنهار والسواقي والعيون، وأناس ببشرة شامية ناصعة، رقيقة، نضرة، وقامة دبّت فيها السمنة، وعودٍ بضّ ناهض أميل إلى البدنة من أجسام الحجازيين، وأقل نشاطًا وخفّة، وأضأل منهم وقادة ذهن وفراسة. لكن سرابيلهم أكثر تنوعًا، وأزهى لونًا، وأرقّ ملمسًا.

لم تكد تمرّ على الرحلة في وادي الشام بضع ليال، حتى لامس محمد الفوارق بين أهله والأعراب في السحنة والبنية والطباع. وإن لم يلتق إلّا بفئة قليلة منهم فأدرك أنّهم ليسوا على بساطة الحجاز وما كان عليه أهلها من الصدق والإخلاص، بيد أن الشوام كانوا أكثر ليونةً، وأحلى عشرةً وأقوى على الصبر والاحتمال.

لم ينفك محمد - بذكاء وحصافة - يتصفّح ما حوله، ويدمن النظر فيه؛ ليختزن ما يشاهد في ذهنه، ويحتفظ به في ذاكرته،



ويتزوّد تجارب تملؤه رضًى وارتياحًا؛ فتزيل عنه الوعثاء، وكل ما لاقى من العناء، ثم إن مرافقته لعمّه كانت تطيّب خاطره، وتبعث فيه كل الدعة والانشراح.

كان محمد جالسًا فوق حمل بعير، لا يحفل بلفحات الشمس ولذعاتها، وقد نزع عن رأسه كوفيته، وأودعَ فاحم الجدائل لبليل الأنسام المتسلّلة إلى خضر السهول.

كان يقتفي أثر عمّه، ويجري وراء مركبه، غارقًا فيما يستثير انتباهه، وقد علت وجنته الغضّة الوردية حمرةٌ أرجوانية شفيفة، وإن لم تلسعه الشمس لسعاتها المعهودة.

كانت الإبل كحلقات السلاسل تنحدر تباعًا، برفق وصبر وهوادة. وها هو الإرهاق قد أخذ يبدو جليًّا على محيا الركب، بعد أن أضناهم بُعد الشقة وطول السفر. والجمال كذلك لم تكن على سابق عهدها؛ إذ انبرت تنقل أخفافها بفتور وتثاقل. وبين حين وآخر كان أحدهم يطلق صرخة احتجاج على ما مسَّه من النصب واللغوب، فيشقّ الصمت وسكون السهول. ثم... يحين الوقت لقائد العير كي يرفع صوته ويعلن: ها هي بُصْرَى[١]...!

اطلع أبو طالب على محمد من فوق الجمل، ثم قال، وهو ينوء بصدره: هنا في شرق الشام حاضرة كبيرة، فيها سوق رائجة[٢].

---

(١) **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ص ١٥١.

(٢) **معجم البلدان**، ١/ ٤٤١؛ **عيون الأثر فى فنون المغازي والشمائل والسير**، ٢/ ٥١.

نظر محمد إلى عمّه نظرةً ملؤها الحمد والحب والثناء.

بلغ الركب مشارف المدينة ولما يدخلها بعدُ؛ فلاح من البعيد سواد الجنان والعمائر المحيطة... تقدّمت بهم الخطوات، فشاهدوا على اليمين بستانًا صغير الشأن والحال، مهجورًا، تمرّ خلاله ساقية، منهمرةً إلى حقولٍ انبطحت في أسفل منها. وعند منقطع الشجر - حيث إلى بصرى السبيل - تربّعت راسية، تسامق منها بناء أنيق منيف، لفّه البياض من كل جانب، يعلوه سطح منحدر، يشبه الأبراج الصغيرة، تطلّ بجميع نوافذها على درب القافلة. شبابيك خشبية قاتمة تخللت ناصع الجدران؛ فبدت أحداقًا تترقّب أوبة سِفر من الأقصى البعيد.

أوعز أبو طالب إلى العير بالوقوف؛ فأدار الرجال هامات الجمال نحو مترامي السهول حيث مجمع النخيلات بالبستان. انكمشت لفافة الإبل في الفسحة، وتداخلت رويدًا رويدًا، ثم انزوت نياق كل قبيلة في موضع ما وانتحت جانبًا لتنيخ....

«كان ذاك البناء المطلّ من الربوة صومعةً، لم تبلغ من العمر عتيًّا؛ إذ لا تناهز الأربعين، شيّدها عظيم الرهبان، بحيرى، ومنذ ذلك الحين، انشطر عن دنيا الناس، وآثر هو ونفر من أتباعه أن يقضوا بها العمر في النسك والعبادة.

كان قد ذاع صيت الصومعة وبحيرى واسعًا، يوم حلَّ ركبنا عند السفح، فالناس كانوا يتجاذبون عن راهبه الأحاديث، وتتداول ألسنتهم الحكايات تلو الحكايات؛ فأمّه القاصي والداني، وهرع إليه من يلتمس نيل البركة أو الدعاء. لكن بحيرى كان يرغب في الخلوة


إلى نفسه، منكفئًا، فيعتزل الناس، إلّا في القليل النادر، حيث تقتضي الضرورة».

انفتحت بوابة الصومعة فورَ استقرار العير، فبرز منها فتى ضامر الخصر. واتجه نحو البستان حيث مربعُ الأشراف من مكة، فرحّب بالقوم ونفحهم بالتحايا، ثم سأل عن رئيس الركب وزعيمه، فدلّوه على أبي طالب. انطلق إليه ليقول: أقرأ عليك تحية سيّدنا بحيرى وتهانيه وأدعوك ومن يلازمك إلى مأدبة غداء في الصومعة، وذلك بعد أن ترفّهوا عن الجسم شيئًا، وتمنحوه من الراحة قسطًا. فمرحبًا بقدومكم وأهلًا وسهلًا بكم في صومعتنا.

تملّك أبا طالب وصحبه الاستغراب، فقال أحدهم: إن هذا لشيء عجاب! الراهب الكبير - يا للسعادة - يلقي بالًا إلى المساكين!

- منذ بعيد الآماد، نلقي رحلنا لليلة وضحاها في هذا المكان، لكنني لا أتذكّر يومًا أن الراهب شملنا برعايته، وأعارنا اهتمامه!

لم يحر الفتى الراهب جوابًا، فطأطأ رأسه، وأخفض بعينيه العسليتين إلى الأرض. فتدارك أبو طالب الموقف الحرج؛ فغيّر مسار الحديث وصبّه في مجراه الصحيح؛ إذ قال بصوت يسيل رقةً وليِنًا: بكل فخر واعتزاز. للراهب بحيرى الشكر والثناء. الحقيقة أن صحبي اندهشوا لغرابة عنايته؛ فإنه لا عهد لهم برعايته.

ساور الراهب رضًى، وطاب نفسًا مما تفوّه به أبو طالب برفق ولطف، فقال: أنا أيضًا في حيرة من أمر أستاذي، لكن لا بدّ له من هدف أو دليل؛ فهو لا يقوم - على ما عرفته طيلة تعلّمي - بأمر إلّا



عن قصد حكيم، وإن استغلق فهمه بادئ ذي بدء على الآخرين.

أيّده أبو طالب بقوله: أجل، طالما سمعنا ما يغدق عليه من كلمات الثناء والإطراء.

شعر الراهب الشاب أن الفرصة سانحة ليكشف الستر عمّا طواه من مستور الأحاديث، فقال: لا تزعموني مغاليًا، متحيزًا على أني طالب علمه ونصراني؛ فإني لم أرَ - أبدًا - بين الرهبان وغيرهم أكثر منه علمًا وأعظم ورعًا.

بلى؛ إنَّ بحيرى قد نال في المعرفة والورع مقامًا محمودًا، وكان قد سبق إلى علم ما ورد في التوراة والإنجيل عن الماضيين، وأحاط بأحوالهم خبرًا لم يحط به أحدٌ من العالمين.

كان أبو طالب على معرفة بما أشار إليه الفتى الراهب، فالتفت إليه بالقول: إقرأ على بحيرى تحايانا، وألقِ عليه منّا السلام، وبلّغه أن الأمر أمره، سنلبّي الدعوة[1].

---

(١) راجع، **المعارف**، ص ٥٨؛ **عيون الأثر**، ١/ ٥١ - ٥٥. [المعرّبة]

في قاعة كبيرة، مُدّ سماط طويل، ضمّ متنوع الطعام، من اللبن والجبن والزيتون والليمون، ثم المشوي من اللحوم.

اتخذ كبار الركب مجلسهم حول المائدة، فقام بحيرى، يغدق عليهم عبارات الترحيب.

تضوّعت نكهة الطعام، وفاحت رائحته، فانبعثت الشهية في الجياع من رجال الركب إلّا أنَّ الأهمّ من ذلك فرصة اللقاء براهب شامي يشار إليه بالبنان، فضيافته تحملهم على الفخر والاعتزاز، وإن لم يكونوا على شريعة من دينه؛ فلبثوا مشدوهي البصر ينعمون النظر في ملامحه؛ لتبقى ماثلةً في خواطرهم؛ فينقلوا صورته إلى أهليهم إذا رجعوا.

«كان بحيرى ممشوق القوام، عليه رداء القساوسة الأسود الطويل، كأنه مفصّل على جسمه الهزيل، بكمّين فضفاضين للغاية. وتحت الرداء دثار يبدو أبيض اللون، وعلى الخصر ما يشبه النطاق. قد نشب الشيب في ضفائره وطويل لحيته. كان وجهه هادئ القسمات، تطغى عليه إشراقة، تبهر ذوى الأبصار، فتغمرهم مزيدًا من الوداعة والسكينة. نظراته ملؤها الطهر والنقاء، تسبر الأغوار، فتشعُر إزاءها أنَّ روحك قد تجردّت وتعرّت».





تخطى بحيرى ببصره الوافدين، فتمتم مع نفسه، قائلًا: إذن أين المنشود المطلوب؛ فهو العماد لا من حضر!

ثم التفت إليهم قائلًا: يا معشر قريش، كأنكم خلّفتم وراءكم أحدًا وتركتموه ظهريًا؟

- نعم، جئناك على بكرة أبينا إلّا غلامًا صغيرًا، تركناه عند متاعنا.

همس بحيرى، متمتمًا: بل هو كبير عظيم، أعلم منّا جميعًا وأرجح عقلًا وأحزم.

كان أبو طالب جالسًا دون بحيرى، فالتقطت أُذنه ما انفتحت به شفتاه. فلمّا أشار على فتاه الراهب أن يدعو محمدًا، قرّ أبو طالب بالًا وهشّ سرورًا.

«حين وصل ابن أخي، شدّ بحيرى ناظره إلى محياه، ولبث شاخصًا إليه، ثم أجلسه إلى جواره، ولاطفه، محتفيًا به كل الاحتفاء.

تناولنا جميعًا الطعام ثم شكرنا بحيرى والرهبان. وإذ هممنا ترك المقام، استملهني بحيرى أنا ومحمدًا.

كأنه أراد أن يناجينا، ويهمس إلينا بأسرار كانت هي الغاية من صنع الطعام، فانتظرته مليًّا حتى ينبس ببنت شفة.

ترك الركب المكان، فدعانا بحيرى إلى غرفة. فإذا جلسنا فيها، انبرى يسألني: ما هذا الغلام منك؟

- ابني.



شمله الاستغراب وتملّكه العجب؛ فقطّب الجبين، وأدنى الحاجبين الموغلين في الكثافة وقال: لا، ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًّا، لا بدّ من أن يكون يتيم الأبوين منذ نعومة أظفاره!

قلت متعجبًا: صدقت! أنا عمّه، لكنني أؤثره على أبنائي».

- ما اسمك، يا بني؟

- محمد.

- أجل، هو ذاك: محمد أو أحمد... أسألك بحق اللات والعزى قل لي...

- لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما.

- هو ذاك، هو ذاك! إذن أجبني بالله صادقًا.

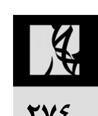
- ثق يا أيها الراهب العظيم وكن على يقين أن ابن أخي لم يجرّب الناس عليه كذبًا؛ فهو يبغض الكذب أشد البغض، فاسأل ما شئت!

- الحق ما تقول، يا شريف، لا تضق بكلامي؛ فإني لا اسأل إلّا لحاجة في نفسي، والآن، يا محمد، قل لي ماذا تفضّل؟

- الوحدة والعزلة.

- وبم تفكّر في العزلة؟

- بالخلق والكون، بالحياة والممات، بالآخرة ومثل ذلك...





- مثل؟

- ....

- وما أحب الأشياء إليك في الكون؟

- الطبيعة.

- ومِن الطبيعة؟

- السماء والنجوم.

- هل تحلم كثيرًا؟

- نعم.

- وبعد؟

- أرى أحلامي تتحقق في اليقظة.

- وماذا ترى في المنام؟

- .... [١]

بغتةً تعانقت النظرات من أبي طالب والراهب العجوز، فالتمع في عينه الزرقاء الذابلة بريق أمل وانتعاش، فقال بلهفة: لم يبق عليّ إلّا أن أقوم بعمل آخر: أتأذن لي أن أنظر ما بين كاهليه؟

التفت أبو طالب إلى محمد، فلم يرَ منه ردة فعل، فأخذ

---

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٨١. [المعرّبة]

بتلابيب سرباله، وفتحها، ونزع عن كاهليه، فراغ إليه بحيرى ينظر ما بينهما، فلمّا وقع بصره على تلك الشامة بلون الخز الأدكن، فاضت عيناه عبرةً، وأجهش بالبكاء صارخًا كالصغار، مقبّلًا موضع الشامة، والدموع تنهمر منه تترى، فقال: السلام عليك يا سرّ الكتب السماوية، يا وعد المنتظرين، السلام عليك يا أرقّ الأرواح وأرهفها، السلام عليك يا مظهر لطف اللّه... والذي نفس بحيرى بقبضته، إن هذا لهو الذي بشّرت به التوراة والإنجيل، وأخبر عنه السلف من الأنبياء والمرسلين. وأخيرًا... التقيت به، آه... يا لسعادتي الغامرة ويا ليومي المبارك!

ثم خرَّ ساجدًا، وقال: حمدًا لك يا ربِّ حمدًا، لقد قرّت عيني برؤيته وانقضى أجل انتظاري، ذاك الانتظار البعيد على مدى السنين والأعوام.

تذكّر أبو طالب أحلام أبيه عبد المطلب إبّان ولادته، ومنام آمنة عند الحمل، وتردّد على خاطره كلمات حليمة واستحضر حديثها عن غرائبه وعجائبه، فاندفع في تفكير عميق...

عاود بحيرى الحديث، وتوّجه بالخطاب إلى أبي طالب:

- فيه جميع ما بيّنته الكتب السماوية وذكرته أخبار الماضين، هو أحمد، أو محمد، هو الفارقليط بعينه. بشراك، إنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم: معه مفتاح الجنة والنار، فيه عظيم الخير والبرّ، يحطم الأوثان، ويمزّق غشاوة الكفر والشرك عن العيون والأبصار. هو خيرة أبناء آدم وأولي الورع وآخر الرسل. تقول عنه الأخبار إن الأرض اهتزت طربًا يوم ميلاده، وتظلّ مستبشرةً بوجوده



حتى تقوم الساعة. وضجّت باكيةً من قدومه الأبالسة والأوثان ومن كان لها تبعًا، وستبقى صارخةً حتى القيامة.

ثم تأوّه وأضاف: لقد ناهزت السبعين، ومنذ أمدٍ أترقّب ظهور نبي وأترصّد دعوته؛ فقد قرأت في أنباء السابقين، وسمعت عن كبار الدين أن سيمرّ يومًا ما بهذه البقاع، فجئت إليها، وألقيت بها رحلي. ومنذ ذلك الحين، أنا هنا بالمرصاد، علّه يمرّ، فأنال صحبته، لكن البارحة عيل صبري، فجأرت إلى ربي، سائلًا اللقاء بالنبي، ثم رأيت رؤيا غريبة، تبشرني أن انتظاري صار على وشك الانتهاء.

وها أنا منذ الفجر الصديع، أستشرف الطريق، فكلّ بصري، وابيضت عيناي من التعب فإذا بعجاج يتصاعد من بعيد، لاح خلاله ركبكم وقد كانت تعلوه غمامة، بيضاء كالحمامة. فإذا تقدم قفلكم، رأيت أن الغمامة تأبى إلّا أن تظلّل العزيز هذا من دونكم[١].

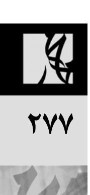
نازعني الشك أول الأمر، وخيل إليّ أنني غير مصيب لكنني أرسلت طويل النظر فقطعت باليقين أن رؤياي كانت صادقةً وأن المبشّر بظهوره بين ظهرانيكم.

تنفّس بحيرى الصعداء وقال لمحمد: أتمنى أن يُمَدّ في عمري، فأشهد رسالتك، وأجود بنفسي بين يديك.

لمّا رأى بحيرى أن الخوف قد استبد بأبي طالب، ودبّ فيه القلق، قال: هناك من اليهود والرهبان يعرفون عنه ما أعرف، فإذا رأوه خطفوه، أو بغوه شرًّا وربما نالوا من جوانحه، لكنهم لا يتمكنون

---

(١) **تاريخ الطبري**، ٢/ ٢٧٧. [المعرّبة]



من قتله؛ فهو بعين اللّه.

«وإذ عزمنا على العودة، أهدى بحيرى إلى ابن أخي علبة من القطائف وكوزًا من الزيتون المخلّل»[١].

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٨٠ – ١٨٢؛ و**تاريخ الطبري**، ٢/ ٢٧٧؛ و**دلائل النبوة**، ٢/ ٢٤ – ٢٨؛ **سبل الهدى**، ص ٨ - ٩. [المعرّبة]



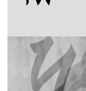
لمّا هم محمّد ليخرج بالقطيع، توّجه إليه أبو طالب بالقول: ولدي، إن خديجة قد أبلغتك رسالة.

- خديجة الطاهرة؟

- نعم، يا ولدي، إن بعلها قد مات كما تعلم منذ أمد[١]. وترك لها مالًا ممدودًا، وثراءً واسعًا، ترسله إلى أسواق الشام واليمن في رحلتي الشتاء والصيف، ومنها تحمل إلى مكة السلع والمتاع. كان غلامها ميسرة يعمل في مالها إلّا أنها جمعت العزم لتعرض عليك الخروج في تجارتها، كما أخبرنا ميسرة البارحة، إذ أصحرت مع القطيع.

غطّ محمد هنيهة في التأمل، ولفّه الصمت؛ فكثيرًا ما طرقت أذنيه كلمات الإعجاب بها والافتنان؛ فمن ذا الذي لا يعرفها في مكة؟ وها هم تجار البلد يقولون إن المتموّلين في يثرب واليمن والشام يشيرون إليها بالبنان. هذا وإن خديجة كانت بمكة تنفق في وجوه الخير والمعروف، تُرابحُ رجالَ المال من الطبقة الدنيا،

(١) حول زواج سيدتنا خديجة، راجع: **الاستيعاب**، ١/ ٤٤. [المعرّبة]



بل هم كانوا يتجرون بعريض أموالها. ونفر غير يسير من الملهوفين يستقرضها إذا أعيت به الدرب واشتدت به الحال، فلا ترابي أو تأخذ أكثر مما أعطت، على أن الربا كان ذائعًا في مكة يومذاك، بل كان نوعًا من أنواع البيع والشراء.

كان محمد على معرفة ما بميسرة، ذاك المولى الكهل، المربوع القامة الذي بدت على عريض صفحته السمراء أمارات الطهر والورع والنبل. لقد كان أهلًا لأن ينال ثقة تلك المرأة واعتمادها. لكن تُرى لِم عزفت عنه خديجة، وتريد أن تؤمّنه هو على مالها؟

إلّا أن هذا التساءل لم يأخذ بجماع تفكير محمد أو يشغل باله، بل كان يفكّر في عمّه والأعباء التي أثقلت كاهله، وما أخذ ينوء به من نكد العيش وضنكها؛ فقد تقدّمت به السن، وناهز النيف والخمسين، وهو لا يزال يعيل خمسًا ولم يعاود الخروج للتجارة ثانيةً بعد رحلته مع محمد إلى الشام، ثم إن أولاده لا يمكن عقد الأمل عليهم، فهذا طالب لم ترقّ له حواشي العيش بعدُ ليرفد والده ويعينه، وذاك عقيل يعيقه العمى، وهذا جعفر غلام غضّ الصبا لمّا يشتد عوده، والبنتان لا حرج عليهما. كان محمد يفكّر في الوسيلة التي يخفّف بها عباه على عمّه، كي لا يكون عالةً عليه، فخرج أول الأمر بأنعام عمّه، بضع ماعز وجمال، يرعاها في البادية، وبعد لأي استودعه الأعمامُ القطيع وكذلك الأقرباءُ، للرعي في الصحراء. وها هو الآن قد قارب الخامسة والعشرين، فعليه أن يقوم بمهنة أخرى يسعف بها عمّه، ويعينه على همّه فأطرق رأسه وقال: كما تريد يا عم، وتشاء.

قال أبو طالب برزانته المعهودة وذاك الطبع الرفيع: لا زلتَ



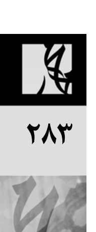
محمدي الصغير على أنك غضّ الشباب، وقد فاق عقلك عقل المحنّكين. أنا لا أطيق مفارقتك ساعةً من ليل ولا نهار، إلّا أن الأوان قد آن لتعدّ أنت العدة للزواج؛ فعمك - واخجلتاه - لم يسعه أن يشمّر عن الساق، ويحقق لك شيئًا من السعادة. أرجو أن ننال ما نريد بما تكسبه يدك في هذه الرحلة. على أية حال، الأمر إليك، إفعل ما تشاء. وأنا معك.

خجل محمد من كلام أبي طالب، فأغضى الجفون وتضاعفت وجنتاه حمرةً، فقال: مهلًا يا عماه، كي أنظر في الأمر!

- فكّر يا ولدي. وإذا عزمت، فتهيّأ للسفر، سأعهد اليوم الرعي إلى طالبٍ.

قال محمد: شكرًا لك، يا عم.

ودّع محمد أبا طالب، وخرج من الدار، فالأمر خطير وبحاجة إلى التأمل وإجالة الذهن. انطلق - كالمعتاد - صوب جبل النور وغار حراء، حيث كان ينشطر عن الناس إذا رغب في الخلوة إلى نفسه...



توقّف لدى سفح (النور)[١] ريثما يستريح عند صفوان قابع على قارعة الطريق؛ فقد أدركه الكلال بعد أن حثّ - على سنته - خطاه، وأمعن في قطع فرسخين من المسير، تحت وطأة الرمضاء والحرّ الشديد.

وفي هذا الموضع بعينه - يقال - إن جدّهم الأكبر إبراهيم راغ إلى ابنه ليذبحه قربةً إلى ربّه.

ترك وراءه ثبيرًا، ذاك الجبل الهرمي الشكل، الناهد أمام النور، أنيس غربته؛ ووحشته. جبل كلّما مدّ ببصره إلى قمته الناتئة المخروطية من باطن مكة، سرّى عنه الحزن، وشعر أن وقر الأتراح يتخفّف عن كاهله.

كانت أحجار الجبل وصخوره تلتهب في لظى بدايات الصيف، والعرق ينتفض كسواقٍ صغيرة من صدغ محمد الطري، لينهمر صوب ذقنه المتوازن، بيد أن قطراته النافرة تضلّ السبيل بين لحيته الفاحمة الكثيفة. وعلى ذلك كان جوّ المكان ألطف من مكة الغائرة

---

(١) الجبل الذي يقع في قمته غار حراء يسمى جبل النور، وهو يقع إلى الشمال الشرقي من مكة، راجع: **سبل الهدى**، المقدمة، ص ٤. [المعرّبة]



في قعر وادٍ علته الجبال المحيطة. وبين حين وآخر كانت تهبّ نسمات رقيقة، فتداعب الأشواك المنبثقة بين الصخور والأحجار.

نزع محمد العقال والكوفية، فتناثرت على كاهليه جدائله السود، ثم ولّى الوجه نحو سهول مكة الشمالية، حيث يمتدّ طريق يثرب في الصحراء كنهر هزيل، جفّ ماؤه، فتنقطع به الأسباب عند تراكم جبال قاتمة.

يا لطبيعة الخالق المتنوعة!

هنا شعاب جرداء عبوس، وهناك مزارع وجنات وحقول، ثم عيون شامية نضاخة...

التقط محمد صبيب العرق من الجبين، وقام ليلقي نظرة الوداع الأخيرة على مستودع أسرار غربته، وذاك الأنيس الأثير. انتزع أقدامه ثم دلف صوب القمة بجبل النور.

كانت الانحدارة وعرةً، حادةً، وإن لم تبلغ مئتي ذراع من الطول. غطّتها أحجار وأشواك وصخور، مما أعضل التسلق والصعود، لكن أمرها لم يستعص على محمد؛ فقد كان دأبه منذ الصغر وأيام الصبا أن ينطلق إلى ذروة «النور» ثم إن أقدامه قد اعتادت أن تضرب مع القطيع في الجبال والسهول؛ فصار لا يدركه البهر في مضايق الدروب، ولا يرهقه الكدّ واللغوب...

تطلّع محمد إلى الوراء، حيث مضيق منى، فج عميق كالشعاب والوديان، هامد... خامد، خال من المارة. وهناك... مكة... لا يصل منها إلّا غمغمة غامضة، بعيدة، لا تكاد تمتاز أو تستبين.



وفجأةً تلاطمت الهموم بصدر محمد، وعصر الألم فؤاده، إذ راودته ذكرى عبد المطلب؛ فهو كذلك، كان يختلف وحده إلى الجبل هذا، ويخلو إلى ذاته، بعض يومه، ويبيت ليالي رمضان في حراء، فيحمل إليه غلامه العجوز، عامر، الماء والطعام، مصطحبًا معه محمدًا الصغير في بعض المرات ليعاود جدّه اللقاء...

وطأ محمد القمة: فسحة مستوية بعض الاستواء في أربعين ذراعًا، تلفّ أقطارها سماء زرقاء، صافية كل الصفاء، وفيها تهبّ أنسام رقيقة برخاء، فينتعش عود محمد الملتهب ويستروح رَوْح الجنان.

تلبّث - كدأبه القديم - بالقمة هنيهةً، واستشرف حواليه: كان على الجانب الشرقي طريق يتجه إلى عرفات. وفي الجنوب الشرقي، ارتمت مكة في أحضان الآكام، وقد ضمّت بين أبنيتها المتراصّة، الكعبة، تلك الشذرة الكئيبة السوداء، وعلى سماء المدينة ران ركامُ غبارٍ أرجواني، شاحب، شفيف، لا يراوح مكانه، كأنه قطع من سحاب مركوم.

لا زالت دور مكة في بطن البلدة تبدو مشرئبةً، متحلقةً حول الحرم، وفي أعاليها زبى لا يعلوها السيل، اتخذ منها أولو الطول بمختلف بطونهم سكنًا؛ فسميت البطحاء. دور مشيّدة بالصخور، مرموقة، فخمة، معظمها ذو طابقين يزهو بينها دار خديجة الشامخ بطابقيه، وبما ضرب عليه من قبة حريرية خضراء.

«كان الطريق بين يثرب والشام بمرأى من يعلو سطح دارها. وتحت تلك القبة، عند العصر، كانت خديجة تستقبل الضيوف



الوافدة».

لا ينفك الناس يبدون الإعجاب بها، وبعضهم - على عادة العرب - يلقي الثناء عليها بالإغراق.

«امـرأة ذات صباحة وجـه، وبراعـة جمال، مع أنها بلغت الأربعين، وزفّت إلى اثنين، ثم أنجبت لهما ثلاثة. وعلى ذلك، كان علية العرب وسراة قريش مثل أبي لهب وعمرو بن هشام [أبي جهل] لا يكفّون عن خطبتها.

لقد سمع محمد - بنفسه - أن فتيان مكة ممن يصغرونها سنًا يتنافسون على طلب يدها، تغريهم بها وفرة المال، أو غير ذلك من الأسباب إلّا أن خديجة كانت ترفضهم جميعًا وتردّ أيديهم في أفواههم.

كانت كلمات الإطراء عليها والإعجاب بها تأتي محمدًا من كل وجهة وجانب، وهو لمّا يلتقِ بها بعدُ. فهي كما عرف - والحق قد عرف - أوسع نساء الحجاز ثراءً، لكن لم يدنّسها رجس الأثرياء الأغنياء، ولم يدانها أحدٌ في البذل والعطاء، ولا إغاثة المنكوبين، العاجزين... فبذلك لقّبها نفر «سيّدة قريش» وسمّاها بعض «الطاهرة» لما عاشته من العفاف والنقاء.

أخلد محمد إلى الأرض، ثم ولّى الوجه إزاء مكة.

كم هام بهذه المدينة حبًّا، وآثرها بالمودة... وكم تملّكه حنق على أهلها، وخالجه شعور واخز مما باشروه من الشين في الشعائر والعادات.



لا زالت الحياة جاريةً على هذا المنوال، لكنها لم تستند إلى تقاليد أو ثوابت ما، كما استندت على عهد عبد المطلب؛ فالرجل كان عظيم الخطر، مطاعًا في عشيرته وقومه، تدين الجبابرة لهيبته، فلا تتجرأ على البطش بالمظلومين. ولمّا قضى نحبه، أقام ابنه الزبير أمره، فدالت الأحوال؛ إذ لم يك كأبيه مهابًا في أعين الناس، وإن كان على خير وشجاعة....

امتدّ بصر محمد تلقاء الكعبة، وتذكّر قصة ذلك الغريب... إذ انطلق ذات عصر إلى الطواف، فإذا حشدٌ قد لاث بكهل نحيل هزيل. تقدّم منه خطوات، فعرف أنه من زبيد، قدم مكة بمتاع، فاشتراها العاص بن وائل من بني سهم، فحبس عنه حقّه، وأبى أن يدفع له الثمن.

كان الزبيدي يطلق أليم الصرخات، ويستغيث: لقريش لمظلوم بسلعته في مكة الأمان، يا لقريش لمظلوم نائي النفر والديار....

اعتلج الهمّ في صدر محمد؛ فأمعن في الفكر، وتريّث طويل اللحظات، يلتمس حلًا لهذا العاجز الغريب، الشاحط عن الدار، فلم يجد بدًّا إلّا أن يكلّم عمّه الزبير.

فإذا اطّلع الزبير على قصته، استدعاه، واستمهله يومًا؛ ليرسل إلى السراة العشر، ويدعوهم إلى دار الندوة ليلًا.

بعضٌ لبّى الدعوة، وآخر تنصّل، ومحمد رافق عمّه إلى النادي.

قصّ عليهم الزبير حكاية الزبيدي، ثم عقّب: لا يخلو ما حدث من أمرين، كلٌ قبيح، يضرّ مكة وقريش؛ فإن شاع النبأ وذاع، ستقول





العرب وغيرهم: ما هذا إلّا نيلٌ من الحرم، ومكة لم تعد في أمان، فلا تخفّ إليكم وفود التجار كما كانت تخفّ وتشدّ الرحال، فتمسّ تجارتكم الضرر والخسران. وفي الأمر أيضًا غضاضة من شأن قريش ومكانتها بين العرب، فكيف تدير البلدة، ومنها الظالم الباغي!؟

هاج من اجتمع وماج، وأدلى كلٌ بدلوه، فقال لهم الزبير: ما لهذا مترك، فلا بدّ من حيلة تحول دون التكرار.

صرخ أحدهم، قائلًا: حيلة؟ ومن لهذه الحيلة؟ أنى لنا شمّ الرجال من أمثال هاشم وعبد المطلب كي لا يتجاسر أحدٌ على البطش بالعجزة الغرباء.

لم يحزّ في الزبير طعنة الرجل، بل قال: منذ أمد بعيد؛ أُجيل الذهن أنا أيضًا في حيلة ما، لكن ترى أيجدر بنا أن نلقي اليد أمام المتجاسرين، إذا غاب عنّا الشمّ العرانين؟

أرى أن يتحالف من قريش فتيان شجعان ليكونوا مع المظلوم على الظالم.

شاطره أكثرهم الرأي، ورحّبَ محمد بما اقترح كلَّ الترحيب....

قال الزبير: فليفكّر ليلته هذه من يريد، وليبلّغ من يرغب في الحلف، ليلتحق عصر غدٍ بالنادي.

قام عبد اللّه بن جدعان فأعلن: بداري فليتعاقد الفتية الكماة عقدهم المبارك، وعليّ صنع الطعام!

أثنى عليه الجميع، مؤيدين.



وفي غدٍ، اجتمع بالنادي، حيث الميعاد، نفر من خيرة بني هاشم وأسد وزهرة وتيم والحارث بن فهر من بني نضير مع محمد والزبير، ثم بادروا إلى نحر بقرة وصبّ دمها في جفنة من نحاس، فأخرجتها إليهم أم حكيم البيضاء - عمّة محمد - ليغمسوا فيها اليد واحدًا واحدًا، ويحلفوا أن يتعاونوا ما بلَّ البحر صوفة[١] وما أقام حراء ورسا ثبير.

سرعان ما فاض بمكة نبأ ما عرف بحلف الفضول، وأكبر القوم شأن الفتية المتحالفين، وعظّموا ما راموا إليه.

وفي اليوم التالي، ما إن اشاروا على العاص أن يدفع السلعة حتى انقاد لهم خشية الحلف، فردّها إلى الزبيدي.

هنالك تنفّس محمد الصعداء، ولاحت البسمة على شفتيه الحمراء، ثم نهض من مكانه وراح.

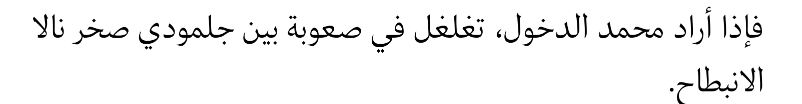
لم يكن محمد قد انضمّ إلى حلف قبل حلف الفضول، فامتلأ به رضًا حتى قال لأبي طالب ذات مرة: حلفٌ ما أحبُ أن لي به حمر النعم[٢]...

انحدر محمد من السفح الجنوبي شطر حراء، غار على ارتفاع أربعين ذراعًا من سفح النور. لم يكن مدّخلًا ولا كهفًا، بل فتحة انفرجت بين صخور انهارت - على ما يبدو - فشكّلت غارًا ما.

---

(١) صوف البحر: شيء على شكل الصوف الحيواني، واحدته، صوفة. يقال: لا أتيتك ما بلَّ البحر صوفة، يريد لا آتيك أبدًا. [المعرّبة]

(٢) **أنساب الأشراف**، ١/ ١٣٩؛ **أسد الغابة**، ٣/ ٧٤١. [المعرّبة]



فإذا أراد محمد الدخول، تغلغل في صعوبة بين جلمودي صخر نالا الانبطاح.

الفرجة ضيقة، يعلوها ويلفّ جدرانها حجارة أتقن صقلها. ارتفاعها يطاول الرجال، وطولها لا يسع إلّا لمستلقٍ على قفاه.

كان محمد أشدّ تعلقًا بحراء؛ فهو أنيس وحدته، بل مأواه، لدى تساقط الأمطار وتوهّج الشمس الملتهبة، وهبوب الرياح. ومن حراء كان يطلّ على كعبته الحبيبة قيامًا وقعودًا وعلى جنبه.

جلس محمد على قاعدة الغار وأسند الظهر إلى الجدار؛ فلامس في جوفه لطف الهواء. ثم أخذ يُرسل نظراته إلى سهل بين نور وثبير، قد غصّ بالأشواك، ومن دونه بسيطة جرداء، على عهد بها؛ فطالما غدا إليها وراح مع مواشي القوم وأسراب الأغنام.

قبل أن تشرق الشمس بنورها في كبد السماء، كان على القفل أن ينطلق من الميعاد، حيث منقطع المباني في أقاصي البلدة، لدى المعبر المؤدي إلى يثرب.

كان محمد يحيط بالرحلات التجارية علمًا جمًّا؛ فطالما سمع عنها ورأى، وإن لم يخرج فيها إلّا مرةً، أيام الصبا. وها هي عيره قد استعدّت للرحلة بعد أيامٍ انهمك فيها مع ميسرة والغلمان بشدّ الحزم الضخمة التي ضمّت إليها سلع الطائف من الجلد والصوف، ومسك مكة والعقاقير، وبضاعة الحبشة من الصوارم وجوز الهند والبخور، ثم العاج ونفيس الآبنوس. وكان فيها من متاع فارس: الفستق الناضج، وقطع السجاد الأنيقة، ولطيف القطائف، وظريف الحلي من الذهب والفضة. وفي أحشاء الحزم أيضًا، مسك الصين، والثياب الحريرية الزاهية، وأثمن لآلئ البحرين وعمان وما بهما من العنبر، وعلك اليمن والكحل والخضاب والزرابي والبُرْد، ناهيك عن صناديق الخشب والجلد والحديد التي ظلّت حبيسة دار خديجة، تنتظر ميسرة ليحملها بعد أن ينفضّ الركب من شدّ الرحال؛ فقد كانت طافحةً بالمسكوكات الذهبية والفضية، رومية منها وفارسية....



أمّا مزود محمد الجلدي، فقد ضمّ دثارين، يرتدي المتواضع منهما في الطريق، والفاخر يلبسه خلال الديار. وفي طواياه أيضًا قارورة معدنية محشّوة بدهن البنفسج والعطر، ومكحلة صغيرة، ومشط خشبي، ورزمة سواك، وإبرة وخيوط ومقراض، وقدح نحاسي صغير لشرب الماء....

غدا أبو طالب لبعض شأنه، ووعده بالعودة لحظة التوديع، وعقيل وطالب أصحرا مع السحر، وخرجا بالقطيع. فلم يبق بالدارِ إلّا فاطمة، زوج عمّه الرؤوف وابنتها. فودّعها، ومسح على رأس الصغيرة بحَدَب وحنان، إلّا أن فاطمة لم يهدأ منها البال. كأنها أم رؤوم، تودّع ثمرة الفؤاد، فازدحمت في حلقها غصص العبرات؛ مما تكلّفت البسمة، وهي ترافقه حتى الباب.

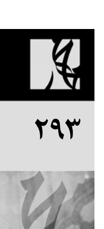
اتخذ محمد سبيله، بعد أن خلّف وراءه الباب الخشبي الصغير..: «إلهي، إليك توجهّت، وبك اعتصمت، وعليك توكّلت، اللّهم أنت ثقتي، وأنت رجائي، اللّهم اكفني ما أهمني، وما لا أهتم به، وما أنت أعلم به مني، اللّهم زوّدني التقوى، واغفر لي ذنبي، ووجّهني للخير حيث ما توجهت»[1].

وفي الطريق، التقى بأبي الحميساء. كان قد جاء ليودّع بعض أقربائه في العير. ألقى على محمد التحية بوجه متهلّل بشّ، فردّ عليه والبسمة تعلو شفتيه، ثم ترافقا....

«بعت ذات يوم للأمين سلعةً، فتواعدنا أن نلتقي فجر غده

---

(١) **بحار الأنوار**، ١٦/ ٢٥١. [المعرّبة]



بباب السوق، لأستلم باقي الثمن. فإذا بي أنسى الموعد، وأخرج من مكة في حاجة، ولم أعد إليها إلّا بعد ليال ثلاث.

فلمّا مررت في اليوم الثالث بالميعاد، رأيت محمدًا جالسًا على دكّة في انتظار، فتذكرت هنالك ما اتفقنا عليه.

انطلقت إليه، فأخبرني أنه كان يتردد على الموضع كل يوم، ولم ينفك ينتظرني حتى المساء، فأثار وفاؤه فيّ العجب العجاب، وخجلت من نسيان الموعد؛ إلّا أنه اتضح لي سبب تسميته بالأمين، ورفعة شأنه بين الناس».

انتهى بهما السوق إلى باب بني هاشم، فودّع محمد أبا الحميساء ثم دخل منه الحرم.

كان الحرم في غرّة الفجر خاليًا إلّا من أصنام بليدة، بشعة، جوفاء تفتقد زوّارها هنا وهناك، فأشاح محمد عنها الصفح في أسى وحَنَق وولّى الوجه نحو البيت الحرام، ثم استلم الحجر وهمَّ بالطواف، فإذا بنحيب لاذع، يتناهى إليه، فمضى نحوه، مندفعًا، فالتقطت أذناه ما كان يردّده صاحبه: اللّهم لو أني أعلم أي الوجوه أحبّ إليك، عبدتك به، ولكني لا أعلمه....

عرف محمد القائل من كلماته؛ وقد سبق أن رآه على تلك الحال. هو عمرو بن زيد. رابع الأربعة الذين التمسوا الحنيفية، فدارت أسماؤهم على الألسنة. وهو الذي رافق ركب قريش في رحلته، أيام الصبا.

«أمّا الثلاثة الآخرون، فهم: ورقة بن نوفل، وعبيد اللّه بن جحش، وعثمان بن الحويرث.





تنصّر ورقة وعثمان، وأقام عبيد اللّه على ما كان عليه، فلم يختر دينًا، لكن زيدًا أعلن على رؤوس الناس أنه يعبد ربَّ إبراهيم، وإن لم يعرف من شريعته شيئًا يذكر».

تريّث محمد قليلًا، ثم انبرى يطوف، فرأى زيدًا قد خلى إلى ذات نفسه، ساجدًا عند ركن من الكعبة، فلم تسمح له نفسه أن يتحدث إليه، ويخلّي بينه وبين عزلته، وإن كان يهواه ويطوي فيه وجده، فطاف سبعًا طواف الوداع في سكوت وهدوء، ثم انطلق....



استعدت قافلة خديجة للانطلاق، وقد لاحت بينها خمسمئة زاملة حمول، وبضع إبل رواحل ظعون. وقد تدلّت على الهامة والأذن منها شرابيب حمر من صوف. مع القفل - عدا ميسرة - خمسون أجيرًا قويّ البنية، خبيرًا، كثير الترحال، يشرف على أمرهم محمد.

«عهدت إليهم أن ينقادوا لأوامر الأمين، ولا يعصوا له أمرًا، وأشرت على الأمين أن يستشير ميسرة؛ فقد سبق أن خرج في تجارتي، وهو - وإن كان من الموالي - طاهر الطوية، حنّكته التجارب والأسفار».

أودع محمدٌ كلَّ رجلٍ عشرةً من الإبل، وسلّم ميسرة الإبل الخمس بما تحمله من المسكوكات واللآلئ والذهب والفضة.

لم تكد تباشير الشمس تبزغ بالأفق الشرقي من وراء الجبال، حتى دُقّت الطبول:

«رم، رم، رم...!

ألا، قد حان وقت الرحيل...!

قوموا! يا قاعدون، قوموا...!

أقيموا صدور مطيكم!

رم، رم، رم

الوداع... الوداع...!

رم، رم، رم...!

امتطوا الرواحل...!

رم، رم، رم...

اصطفوا...!

رم، رم، رم...

إلى الأمام...!».

«اعتادت قريش أن تختار من رجال قوافلها مقدّمًا، تستند إلى رأيه، وترجع إلى أمره، وتقدّم له يد الطاعة. وفي هذه الرحلة، التحق بالقفل سراة البطون من قريش، أذكر منهم: عمرو بن هشام من بني مخزوم، ومطعم بن عديّ من بني عدي، والنضر بن الحارث من بني النضر، وأحيحة بن الجلاح من بني زهرة، وأبا سفيان من بني لؤي، والأمين مقدّمنا من بني هاشم.

كان محمد يقود أكبر القوافل، وإليه انضمّ بالسلع نفر من بني هاشم. قدّمنا نحن وبنو هاشم محمدًا، ووافقنا حمزة، كميّ مكة، فأبى عمرو بن هشام الانصياع، فاستشاط حمزة غيظًا؛ فقبض على سيفه ليشهره في وجهه، فبادر إليه محمد، قائلًا: أغمد سيفك، يا عماه، ولا تستفتحوا سفركم بالشرّ، دعوهم يسيروا أول النهار، ونحن نسير آخره، فإن التقدّم لقريش... ثم سار الركب...».

كلٌّ حذر، مستعدّ للخطر... الطريق والقفل والكماة والإبل؛ فقد كان وقر العير من متاع الصين والهند وفارس والحبشة واليمن والبحرين وعمان والحجاز، يحرسه أبطال مدجّجون بالسيوف والخناجر والسهام وكنائن النبال....

تلاحقت روادف الإبل قُدمًا، وهي تبعد الخطى في اليابسة نحو يثرب. كانت تناهز ثلاثة آلاف، وقد أخذ حراستها ثلاثمئة.

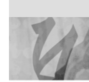
ما زال الركب يعتلج بصدره غمّ ما جرى لحظة الانطلاق، ويحزّ الحزن في نفوس الرجال والبعران؛ فها هم الركبان قد انطووا على أنفسهم، غارقين في صمت وسهوم، وتلك البعران المتباعدة تشي أحداقها بمكنون أسى بشري.

كان عمرو بن هشام في طليعة الركب، يعينه حليف بني مخزوم، عمّار بن ياسر. وعمار هذا كان فتًى من العبيد، وأمه مولاة أبي حذيفة.

سارت وراء ركب عمرو، قافلة خديجة العريضة، المنقطعة النظير، يتقدّمها محمد على ظهر بعير فاقع اللون، ومن ثمّ قوافل بني هاشم وبطون قريش.

راحت المطايا تترنّح ترنحَ المهد، فتبعث هزاتُها الأبدانَ الفاترة من الإبكار، على الغطّ في لذة الوسن والنعاس؛ فتنقطع منها الأرواح إلى الرؤى وسحيق الذكريات، مما زادها انتعاشًا... إلّا أن محمدًا ظلّ ينعم النظر في قبالته، أو يدير لحظه فيما حوله، مشدوهًا إلى السهل الحبيب المعهود، الذي طالما أنس برغامه



أيام الرعي.

على اليسار من القفل قراريط، مرعى قطيع محمد، ومسرح أفكاره التي طوت أبعاد المكان وآماد الزمان، على مرّ الليالي والأيام.

- طاب يومك يا أمين!

نظر محمد قدّامه، فرأى عمّارًا قد انسحب إلى الوراء، ليحرس مؤخرة ركب أبي حذيفة.

- وطاب يومك أيضًا، يا أخ!

ما إن طرقت عبارته سمع عمّار، حتى طفح الدم في وجهه، فغلّفت بشرته النضرة السمراء، حمرة مشرقة.

ما هذا الذي يسمعه!؟ فتًى عالي الشأن، رفيع الكعب، سري من سراة قريش، وحفيد سيّدها، ومقدّم أكبر القوافل، يخاطبه بالأخوة، يخاطبه هو، ابن العبيد الذي لا يقدّر إلّا بثمن بخس، لا يربو على سعر بعير...!!

خالجه مزيج من مشاعر السعادة والخجل، فأجابه بعبارة قصيرة، نمّت عن إحساسه: شكرًا لك يا سيّدي! فردّ عليه محمد ببسمة حنون.

ولمّا تقدّمه عمّار ببعيره، وأحسَّ من فعلته بالحرج، خاطبه محمد بالقول: لا حرج، يا عمّار، فبين الأحباب تسقط الآداب!

عاوده الحياء، وانتابه الخجل، فهذا محمد الأمين يخاطبه بالصداقة، يخاطبه هو، الذليل الحقير... يا لكرامة هذا الفتى

العطوف ويا لتواضع هذا الحبيب...!

«كلٌّ يعرف محمدًا، الحرّ والعبد، فيكنّ له الحبّ، ويُصفيه - مثلي - الودّ؛ فعيشه البساطة - وإن كان من الشرفاء النجباء - وتعامله التواضع، دثاره بسيط، لكنه طاهر. يخصف بيده النعل، ويرقع الثوب، لا يمشي في الأرض مختالًا فخورًا، مصعّر الخدّ. يباعد بين الخطوات، كأنما ينحط في صبب. يأكل على الأرض، ويجلس جلسة العبد، لم يكن يسند الظهر، بل يعتمد على الورك، أو يحتبي مقرفصًا، فلم يره أحدٌ، متربعًا.

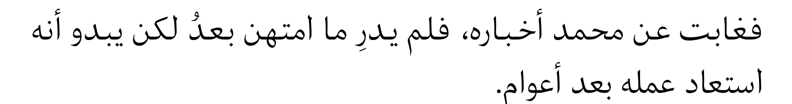
هذا وقد عرف بالصدق في مكة. وأنا ممن يشهد له بذلك. فطالما التقيت به، وأنا خارج بأغنام بني مخزوم.

في ذات مرة، قلت للأمين: هل لك في فخ؛ فإني تركتها روضة برق[١]؟ قال: نعم. فجئتها من الغد، وقد سبقني محمد، وهو قائم يذود غنمه عن الروضة. سألته مستغربًا: لِمَ، يا أمين؟! قال: إني كنتُ واعدتُك، فكرهت أن أرعى قبلك».

رأى محمد على قارعة الطريق قطيعًا، يبرح مكانه، فلوّح إليه الراعي بيده، ورفع عقيرته يحيّي على عادة الرعاة، فردّ عليه بأحسن منها.

لم يستغربه محمد، بل تذكّره بعد أن أطال إليه النظر. كان المغبّر الأشعث هشامًا، فتًى حرًا تعرّف إليه منذ سنوات، اضطره والده إلى الرعي، فتكلّف الانصياع، إلّا أنه انصرف عنها بعد أمد.

(١) البَرَق: الحَمَل، معرب فارسي. [المعرّبة]



فغابت عن محمد أخباره، فلم يدرِ ما امتهن بعدُ لكن يبدو أنه استعاد عمله بعد أعوام.

ما إن لمحه محمد، حتّى تردّد على خاطره ذكرى الشبيبة: ففي فصل الربيع، إذ تنمو الأعلاف الرابية في السهول، كان الرعاة يبيتون مع القطيع في الربوع. فإذا جنّ عليهم الليل، راحوا يجمعون أسراب الغنم لينتحوا بها جانبًا حتى الفجر، أو يودع بعضُهم الرفقة مواشيه ليعود إلى المدينة؛ فيمرح فيها ويسرح أو....

كانوا أربعًا. كلٌ عرّج ليلته على المدينة إلّا محمدًا. فلمّا حان دوره، سأله هشام والرعاة: ألا يريد الانطلاق إلى المدينة!

أجابه محمد: لا، ما لي فيها حاجة.

- ألم تتجول بطرقات مكة في هزيع الليل؟ (سأله هشام)

أجاب: لا

- عالم رائع... مدهش!

- المدينة تعجّ بالساهرين الشباب، ممن يرتادون دور اللّهو. (قالها أحدهم).

ردّ محمد: ما لي فيها رغبة.

سأله هشام: كيف أنت وولائم العرس ومجالس الفرح، هذي أيضًا تقام في الليل، ألا تهفو إليها؟

لم ينفك الرعاة يتحدثون إلى محمد بمثل ما مرّ آنفًا، حتى قال هشام: على كل حال، يجدر بك أن تجرّب الذهاب ولو مرة.



وافقه محمد، ثم اتخذ سبيله نحو مكة. فلمّا وصلها، دخل الدروب والسكك متجولًا، وهو يريد أن يجتلي أسرار الساهرين في جنح الظلام ويقف على جلية أمرهم؛ فيكتشف ما وراء سعيهم الحثيث ولهفتهم، من أسباب.

سمع من بعض الطرقات عزفًا بالغرابيل والمزامير، فسأل: ما هذا؟ قالوا: وليمة عرس.

سار إليها، واتخذ منها موضعًا، فضرب على أُذنه، ونام، فلم يستيقظ إلّا على حرّ الشمس.

رجع في تالي يومه إلى الصحب بالسهل، فقال له هشام: ماذا فعلت يا محمد؟

قصَّ عليهم ما حدث؛ فتندّروا عليه، ضاحكين....

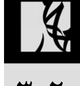
فلمّا تقدّم الليل، دار بينهم الحديث نفسه، وألحّوا على محمد ليعود إلى المدينة، فنزل عند إلحاحهم، وفي المرة هذه أيضًا، ضرب على أذنه ونام، فلم يشهد شيئًا، فرجع إلى مربع القطيع، وقصَّ على الرعاة القصة، ثم عقّب: ظني أنْ لا خير لي في مثل هذه المجالس. فلم يعد بعدها لشيء من ذلك[١]...

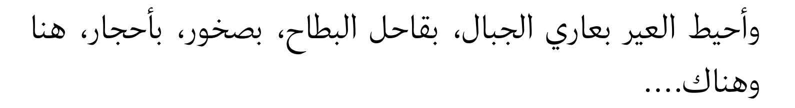
الركب طوى قاعًا صفصفًا، وخلّف وراءه أرضًا مستويةً جرداء، ثم فاض في فجّ عميق خلال جبال قهرتها لفحات الشمس ولهيبها.

زاغت مكة عن الأبصار، وغابت منها الشعاف والشعاب.

---

(١) **إمتاع الأسماع**، ٢/ ٣٤٦. [المعرّبة]





وأحيط العير بعاري الجبال، بقاحل البطاح، بصخور، بأحجار، هنا وهناك....

ها هو محمد يعاوده الحنين إلى عمّه وزوجه، فيجثم على صدره سحيق الأحزان... تذكّر ليلة أمسهِ، إذ اجتاح أبا طالب الهلع؛ فخاف أن يتخلّى عمّه عن رأيه، فيمانع رحلته.

- ياليت لساني - يا ولدي - كان ينعقد عن الكلام، فلم تنبس شفتاي بالموافقة على الرحلة!

- لماذا، يا عمّاه!

- أتوجّس عليك شرًّا من اليهود وبعض النصارى. ألا تتذكّر ما قاله بحيرى...؟

أخشى عليك في الغربة من مكر اليهود الماكر، وإن بلغتَ أشدّك ومرّت ثلاثة عشر عامًا على اللقاء بالراهب.

وثب ضبّ ضخم بين قدمي محمد ثم اتخذ سبيله زحفًا نحو صخور قانية. لبث هنيهةً، فأدار إلى العير برأسه المذنّب، ثم تسلّل بين الصخور، فبرز في اللحظة هذه، ميسرة، على ظهر بعيره، وصبيب العرق ينفضّ من سحنته السمراء الرجولية ثم دنا من محمد، وتلاصق من بعيرهما الجران، فقال ببسمة، ملؤها الاحترام: كأن شظايا تتطاير من السماء...!

قال محمد: نعم، الجو ملتهب، إلّا أنه في الحرّة الرمضاء أشدّ لهيبًا، كأنها تتوهّج بما تدّخر من الشظايا.

- أجل، يا سيدي، هو ذاك. لكن الحرّة هذه وجبالها، أنقذت



ذات يوم، سراة قريش من الهلاك.

لاحت في عيني محمد بوادر التعجب والاستفهام، فتداركه ميسرة بالقول: قبل تسعة أعوام، إذ هاجت في شهر رجب، حرب فجار[١]، كنت أنا وأهل مكة، نتاجر بسوق عكاظ، فإذا بلغط يتعالى بين قريش، استفسرت عن السبب والدليل، قيل إن آتيًا أتاهم سرًّا، فأخبرهم أن البراض بن قيس الكناني، قتل عروةَ الرحال من هوازن. فالتمس أشراف قريش المعاذير ليرجعوا إلى مكة، خشية أن تقتلهم هوازن عن آخرهم؛ فقد كانوا أقل منهم عددًا.

لاذت قريش - في ذعر - بالعودة، وأنا معهم. فرأينا هوازن من بعيد - ونحن على مقربة من هذه الجبال - رأيناها تجدّ في السير، تريد أن تأخذ علينا كل سبيل.

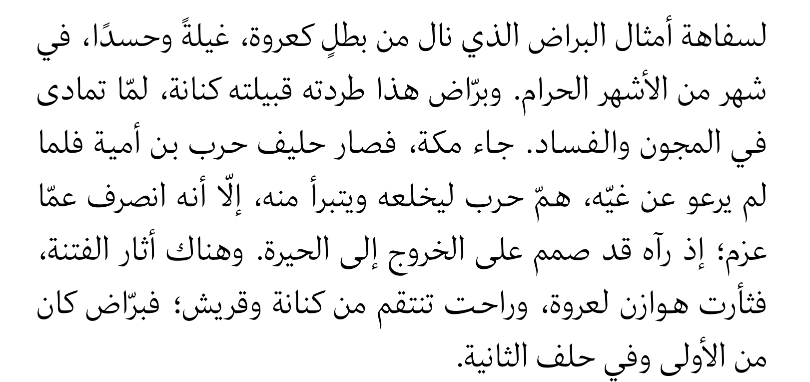
كانت حشودهم الرابية مثلينا، وتبعث روعًا بعد روعٍ فينا. صرنا منهم عند العصر قاب قوسين أو أدنى، فاحتدم بيننا القتال فشغلناهم بكرٍّ وفرٍّ حتى بلغنا الموضع هذا. فحالفنا جنح الظلام، فولينا بالفرار.

لم ننم ليلتنا قطّ، بل أمعنا في طريقنا بين الشعاف، حتى وصلنا ناحية الحرم بمكة، فنجونا منهم آمنين.

هزّ محمد رأسه في أسف؛ فطالما بات مغمومًا مما كان يسمعه من أحداث القصة. جدال طائش، زهقت فيه أرواح الجانبين

---

(١) لمزيد من الاطلاع على هذه الحرب، انظر: **السيرة النبوية** لابن هشام، ١/ ١٨٤. [المعرّبة]



لسفاهة أمثال البراض الذي نال من بطلٍ كعروة، غيلةً وحسدًا، في شهر من الأشهر الحرام. وبرّاض هذا طردته قبيلته كنانة، لمّا تمادى في المجون والفساد. جاء مكة، فصار حليف حرب بن أمية فلما لم يرعو عن غيّه، همّ حرب ليخلعه ويتبرأ منه، إلّا أنه انصرف عمّا عزم؛ إذ رآه قد صمم على الخروج إلى الحيرة. وهناك أثار الفتنة، فثأرت هوازن لعروة، وراحت تنتقم من كنانة وقريش؛ فبرّاض كان من الأولى وفي حلف الثانية.

لقد رأت قريش بحذافيرها أن مستهترًا كبرّاض لم يستحق قط أن تسفك له الدماء على مدى أربعة أعوام، لكن ما باليد حيلة؛ فالعرب ترى الخذلان عارًا صارخًا، وقد جرت العادة بينها أن أحدهم إذا أراق دمًا، اقتص ذوو القتيل من قبيلته - إن ظفروا بهم - ثم أسرفوا في القتل؛ إذ إن دماء القبيل دمه. فيتملّكهم حَنَق، وتثور فيهم شحناء، تحصد رؤوسًا كثيرة، وتأكل الأهل والعشيرة، على مدى العقود وسحيق الأعوام. ثم إنه بمزيد من الدماء، تضطرم رحى الحرب في حركة دائبة واصبة، لا تعرف السكون والاستقرار؛ فصاروا بالخيار بين أن يَفْترسوا أو يُفْتَرسوا، بين أن يَصْرعوا أو يُصْرَعوا....

لم يفتأ حزن محمد يتزايد، ويطغى على محيّاه، فاستسلم لصمت طويل، بعيد الأغوار، أثار به خوف ميسرة؛ فراح يبدّد كآبة محمد بقوله: أظن أنك - يا سيدي - لم تشهد يوم الفجار!

- أجل، لم أشهد ما تحدثتَ عنه، إلّا أنني خرجت إلى اليوم هذا في صحبة عمّي، إذ نازلتْ قريشٌ وكنانةُ قبيلةَ هوازن.

- أبو طالب شهد يوم الفجار!؟



- أبغض عمي الحرب هذه، فكان يقول: «لا أريد خوضها أنا وأهل بيتي»، فتصدّى له القوم بالقول: «غلبنا على أمرنا وابتلينا بما لم نأت به»، وأضافوا: إن النصر حليف قريش إن خرجتَ معها. فخرج عمّي شرط أن يكفّ القوم عن الظلم، فانتصرت قريش عامذاك. دخلتُ معه المعركة، فكنت أردّ عنه نبل الأعداء، أو أجمع له النبال إذا اعتاز...

- ألم تخف!؟

- لا، كنت على يقين أن المنية لن تنال مني ما لم يوافني الأجل، وإلا فلا مناص من الموت....

امتدّ على الركب ظل وارف، فرقى محمد وميسرة بالهامة نحو السماء... قطع من السحاب الداجن أخذت تحجب الشمس...

- سيدي، يدعى المكان هذا وادي الأمواه.

كان الركب قد استمر بأدراجه ثلاثًا بين تلك الجبال.

اطّلع محمد من البعير على ما حوله، ثم جاذب ميسرة القول: أجل، الرواسب - أينما تكن - فهي معلم على انحدار واسع للسيول؛ فعلينا ألا نحطّ هنا الرحال.

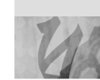
قال ميسرة بصوت يشي بالحزم والاتزان، ونبرة لا يفارقها الرفق واللين: لكنه معبر ضيق طويل، لا يمكن أن نقطعه في عجل، والليل يتقدم، أخاف على الإبل الضياع أو التلف.

- مهما يكن، فهذه الغيوم الداجنة التي بسطت رداءها على مكة لا تبشّر بالخير.

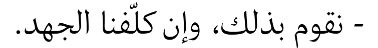
كان ميسرة يدري حقًا أن القيظ إذا اشتدّ في الصيف، وانهمرت السماء بالمطر، فخطر السيول مُحدق، بل يتضاعف في مثل هذا الوادي فلم ير بدًّا من التأييد، فقال: الأمر إليك يا سيدي، سمعًا وطاعة!

- إذن ليس أمامنا إلّا خيار واحد، أن نستند إلى الزُبى حيث لا





يعلوها السيل والرواسب.



- نقوم بذلك، وإن كلّفنا الجهد.

أدار محمد لحظه يمنةً ويسرة، وهو يمشي في ظلام الشفق الشفيف، ثم لوّح إلى الأمام حيث الشعاف والأحجار الضخمة، فقال: يا ميسرة، ما رأيك بذاك المكان؟

أجاب ميسرة، لا بأس به؛ فالصخور تلك ستكون حصنًا حصينًا للركب، إذا انحدرت السيول. ثم التفت إلى القفل وجهر بصوته: استعدوا للنزول، انزلوا، ورائي!

لوى حاديا الركبين - ركب خديجة وركب بني هاشم - عنان بَعيريهما، كرهًا أو رضًا، وانطلقا وراء ميسرة ومحمد.

مضى محمد حتى توقّف عند موضع لا تعجز عن السير إليه تلك الإبل المرهقة المثقلة، وتبعته الجمال، ثم أوعز إلى الركب أن يحلّوا الرحال، ويهمّوا بعلف الدواب.

احتذت القوافل الأُخر حذوهم، ونزلت في العوالي إلّا ركب مصعب من بني جمح، وكان قد تخلّف عن قفل قريش، فلما التحق به، أمر مصعب رجاله أن ينزلوا وسط الوهاد المنبسطة.

نصحه ميسرة ألا يأتي على ما عزم، لكن مصعبًا ردّ عليه، ساخرًا:

قل لسيّدك إنّ الذعر يساوي الموت، فلو كنا نخاف القَزَع وقطع السحاب لما كنا نخرج للرحلة!

أمسك ميسرة لسانه عن الكلام وسكت.

أرخى الليلُ على الوادي سدوله، وصمدتْ طخية سوداء في السماء أمام خنجر الهلال واكتسحت نوره، وأخذت الظلمات تتكاثف تحت الجبال وظلالها الوارفة. وانزوت الإبل جاثمةً، مثنيةً الركبتين تحت البطن لتجترّ أو تنام، وانهمك الرجال ببعض الأعمال، واحد يُعلف النياق، والآخر يطارد الأفاعي والعقارب والرتيلاوات، وبعض يجمع الهشيم والقذى في حلقات، ثم يضرم النار فيها بحجر القداح، فتتناثر مواقد صغيرة هنا وهناك. ونفرٌ بسط مائدةً صغيرةً ليتناول وجبة العشاء، لكنّ آخرين انصرفوا - من اللغوب - عن الطعام، فتحلّقوا بمتاعهم نائمين، وقد أسندوا الظهر إلى الرحل، أو وضعوا الرأس على النعلين أو صرّة الثياب. أمّا الشيوخ ممن مسّه الكبر، فقد اجتمعوا ليفيضوا في سرد ما مرّ عليهم في سالف الرحلات من الحوادث والحكايات. وهناك في ركب بني مخزوم، جلس عجوز على صفوان صغير لينقل إلى من حوله قصة سيف بن ذي يزن.

وفي خضمّ ذلك كله، لمّا نفض محمد اليد من العمل، ارتقى جلمود صخر في الشعاف؛ كي يسرّح النظر في ألاعيب النجوم وسبحات الغيوم وسباق القمر.

وفي الجهة الشمالية من السماء، برز الكلب الأكبر من وراء حجب السحاب، وقد علق بفمه، الشعرى، ألمع النجوم. وبذلك أطلّ برج الجوزاء بحرارته اللافحة المضطرمة...

ها هو الليل يسير سيرًا رفيقًا، والقمر يتحرّر من مخالب

الغيوم، فيطّلع على الجبال الراسية في الطرف الآخر من الطريق، والغيوم تتراكم، ويركب بعضها بعضًا، فيغطّ الوادي في ظلام دامس فيحجب مصعبًا وركبه عن الأنظار. وها هم الرجال في القوافل يركنون رويدًا رويدًا إلى الرقاد. وتخمد نار أثافيهم ومواقدهم الحجرية الصغيرة، ويسكن لهيبها. ويخفّ اللغط والضوضاء هنا وهناك، وتنقطع الإبل عن الهدير، وعن أنةٍ كانت ترسلها من النصب والإعياء بين حين وحين، وتتحّول الأنسام المسائية الهادئة إلى رياح. ويتعالى من البعيد عواء الثعالب والضباع الجياع. ومحمد في غفلة عن كل ذلك؛ فقد أدمن النظر - كدأبه - في سماء حالكة كئيبة، وانقطع لعالمه المرموز العذب، غارقًا... سارحًا...



مضت ليال أربع، والركب لا يزال في وادي البلايا.

«في الليلة الأولى، أيقظتني حبّات المطر، ومن حولي صرخات صاخبة، فانطلقت أبحث عن سيّدي الأمين، فرأيته يُصحي النيام، ويرشدهم فالتحقت به، وأنا على روع ووجل».

«تساقطت الأمطار في شدة لم يكن لها ندٌّ من قبل ولا نظير، وانهمرت السيول من الجبال، كالأنهار الواسعة العريضة، فالتقت عند موضع، ثم انسالت في الوادي مندفعةً عبر مجرًى صغير. شهدتُ بأم عيني كيف جرفت السيول الرجال والإبل، وكلّ ما كان مع مصعب من المتاع.

كان هو ورجاله يستصرخون من ينجدهم في ذعر وذلة وهوان، لكن كلًا كان في شأن يغنيه، في حيرة من أمره وأمر بضاعته، إلّا محمدًا، كان ينظّم صحبه، ولا ينفك يصيح فيهم أن انجوا بأرواحكم، واتركوا الإبل والمتاع، بيد أن أحدهم لم يعره أذنًا صاغية. زادتهم الظلمات حيرةً وذهولًا، فعشت العيون، ولم تكد تبصر قدّامها. حتى الإبل - على صبرها وجسارتها - ضاقت ذرعًا، فنفرت حيرى هنا وهناك وتلاحقت منها النعرات».

وأخيرًا، أطلّ النهار في أعقاب ليلة ليلاء. ولمّا ارتفع الضحى،

انقشع السحاب الداجن، وأقلعت السماء؛ فهمّ الرجال يبحثون عن الإبل الشاردة.

وها هو الحظ يبدو أنه حالفهم إذ اتخذت الإبل - بطبعها - بين الرعب والظلام طريقها نحو العوالي، فلم ينجرف مع السيول بعيرٌ. وذاك ركب خديجة، لم يمسّ أثقاله ضرر ما؛ فإن ميسرة كان قد أوثق شدّها. وكذلك كان شأن بقية القوافل إلّا ركب مصعب...

«لمّا انحسر الظلام عن المكان، عرفنا أننا نجونا من السيول جميعًا إلّا بعيرًا لعمرو بن هشام، فهو - كما يظهر - قد انحدر نحو الشعب منتجعًا فحملته السيول معها. لكن مصعبًا هلك وعشرون من رجاله ولم يسلم من غلمانه إلّا خمسة؛ بعد أن شقّوا عليه عصا الطاعة؛ فلم ينحدروا معه إلى الوادي. رأيناهم في الليلة الثالثة، وهم نزول من الشعاف، فأحاطونا بما فعلوا علمًا، فأوعز إليّ سيدي الأمين، قائلًا:

يا ميسرة، أطعمهم، واكسهم الثياب، وإذا ما عزموا على العودة إلى مكة، فزودّهم بما يعينهم على الطريق من الماء والطعام، فنفّذت ما أمر.

رجع القوم إلى مكة مشاةً؛ ليخبروا بني جمح بما جرى وحدث.

جفّفنا نحن الأحمال، وتهيّأنا لشقّ الطريق، فحال دوننا معبر ضيّق عميق، طاغٍ بالماء، لم يتجرأ الركب على العبور؛ فعمق المكان على الجميع مجهول، وبداياته غطّتها أوحال؛ فخشينا أن يستعصي على الإبل، نزع الأخفاف والخروج، وعلى جانبي المعبر، جبال بانحدارات شديدة، تزلّ فيها الأقدام؛ وهناك أيضًا يصعب على



أيّ بعير المرور.

حكاية بلا مثيل، غريبة حتى على من ساح منّا في الأرض طويلًا وجال الجولات.

وفي الليلة الرابعة، لمّا رفعنا الرأس عن الوسادة، رأينا بني مخزوم تستعدّ للأوبة إلى مكة؛ فالطريق ثمة كان مفتوحًا.

لمّا شهدت ذلك منهم، رحت إلى سيدي لأستعين به على حلّ ما، فقال لي: مُرْ الرجال يشدّوا الرحال، ويستعدّوا للانطلاق.

نفّذنا الأمر، ونحن نظنّ الظنّ أننا سنعود مع بني مخزوم إلى مكة، فإذا بسيدي يركب المرقال ويبسمل، ثم يولّي الوجه شطر الشام؛ فسخر منه عمرو بن هشام: تريد ركوب البحر، يا بن عبد اللّه؟

استمسك محمد عن الكلام، ولم يردّه بجواب. وإذا رأيتُ الركب في ريبه يتردد، قلت لسيدي: ما الذي حملك على ما عزمت، والسيل لا يزال يقطع علينا السبيل؟!

قال: تلقّيت هاتفًا في المنام أمسِ، أن أشدّ الرحال مع الفجر - إذ يحلّق طائر أبيض في السماء، ويرقم بجناحيه على الماء - فأذكر اللّه حينئذٍ، وأغطّ ثمة في الماء، وها أنا الآن، رأيت الطائر قد حلَّ، وقام بما نبأني به الهاتف. ثم أضاف ببسمة عذبة: لا تتردد يا ميسرة، ولا ترتاب؛ فالربّ لا يخذل أولياءه من العباد».

«نحن بنو زهرة شأننا شأن بني مخزوم، كنا يؤمئذٍ في مرية من العودة أو تكلّف الانتظار، فرأينا الأمين مع الطلوع، يتقدّم ركب





خديجة، وهو يضرب الطريق في السيول.

وقفنا جميعًا محملقين فيه إذ خاض محمد ناحيةً من الماء، ثم تابع السير وئيدًا، والإبل تتبعه دراكًا.

لمّا اجتاز الماء بسلام، هلّت القوافل مبتهجةً وزغردت مسرورةً. واندفعت جميعًا وركب عمرو بن هشام وراءها؛ فصار بذلك قفل خديجة يرأس العير، ويسير في طليعته قُدُمًا حتى بُصرى...».

تولَّى ميسرة إلى ظل شجرة، زيتونة، بعد أن تفرّغ من تدبير أمر القافلة، فبعث من أغواره أنين كدح، بل زفرة ارتياح، مزيجًا عذبًا من الشعور، لا يكاد يغيب عن باله؛ فإنه يراوده كل عام، إذا رحلوا إلى بصرى، وبلغوا بعد شهر هذا المقام. وها هنا أيضًا يداخله الانشراح ويغمره الدعة والاطمئنان؛ فهاجس النهب والصعاليك انجلى وكذلك الظمأ والضياع.

استند ميسرة إلى الشجرة، ثم خلع نعليه. فمرّ عليه من جانب الينبوع، وما حُفّ به من الجنان، نسيم هادئ عليل أنعشه، ونفخ فيه الروح من جديد.

الركب يلامس أيضًا في مثل هذه الساعات - إلى حدّ قليل أو كثير - ما يلامسه ميسرة من الشعور والإحساس؛ فكل شيء هدأ: السرعة خفّت، والنظرات أترعت حنانًا وفاضت رحمةً، والطباع لانت والأصوات رقّت، حتّى الإبل عزمت - على أية حال - ألا تهمل متعة الفرصة تلك؛ فتفلت من يدها هدرًا.

جَمَّع كلٌ حمله في جانب، وراح أشياخ القوم يتجاذبون أطراف الحديث بين المروج وأعشابها القصيرة، جالسين أو مستندين، وأحاط بعضٌ بالينبوع يغسل الجسم أو الدثار، وأوقد الغلمان



للطهي نارًا هنا وهناك، وأخذت شرائح اللحم سبيلها إلى المواقد والسفود، ففاحت منها رائحة شيٍّ ذكية، ورتعت الجمال هناك، في الوهاد، نشوى، جذلى.

أراد ميسرة أن يركن إلى الراحة بعض الوقت، فوضع تحت الرأس نعليه، ونام على جنبه. فمثلت أمامه تلك الأكمة الصخريّة التي أطلت منها صومعة بحيرى الراهب. صومعة فريدة، بجدران صخرية منيفة، قد اتخذت من القمة مستقرًا. يربط بينها وبين موضع الركب في البستان، طريق ضيق رفيع كشريط ناصع.

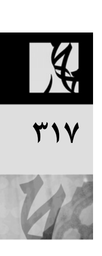
برز في بداية ذاك الطريق، رجل ممشوق القامة، فأقبل نحو البستان، وعليه قلنسوة سوداء كقلانس القسّيسين، وفوق هامته غطاء بلا حافة، أسطواني الشكل، كأنها أغطية القساوسة. نثر على صفحتيه جدائل ذهبية طويلة تنوس كلما خطا خطوةً في المنحدر.

لمّا وصل البستان، توقّف قليلًا، وأخذ يحدّق في ناحية من المكان، فقعد ميسرة القرفصاء، والتفت إلى مطمح نظره، حيث محمد مستلقٍ تحت شجرة السدر، وقد اشتمله النوم من الرهق.

مكث الرجل يتأمله طويلًا؛ فتوجّس ميسرة منه خيفةً، فقام من مكانه، ولبس نعليه، ثم انطلق إليه.

كان الرجل وضيء الوجه، يقارب الخمسين، نشب الشيب في ذهب شعره.

رأى الراهب الكهل ردّة فعل ميسرة، فراح يُطمئنه بتحية: طاب يومك!



- وطاب يومك أيضًا!

- أهلًا بك في أرضنا. رحلة خير وبركة...!

- شكرًا!

تقدّم الراهب قُدُمًا، ثم تريّث وقال: هل لي أن اسألك يا أخي؟

- إسأل، عسى أن تنال مني الجواب!

- مَنْ ذاك الشاب الوسيم الراقد في ظل شجرة السدر؟

- هو من قريش، اسمه محمد، رئيس القفل.

- بم يُعرف في قومه؟

- هو فقير، لكنه ذو شأن عظيم، يلازم الصدق ويصرّ عليه؛ فسمّاه أهل مكة «الأمين». والآن قل لي يا رجل ما المقصود من السؤال؟

- لا بد أنّه الفارقليط، الذي ورد اسمه في الإنجيل.

- الفارقليط... من هو الفارقليط؟

- هو أحمد، أو محمد كما يقول العرب. آخر الرسل وخاتمة الهداية الإلهية للبشر. سيظهر عمّا قريب أمره.

- ومن أين لك ذلك، يا رجل؟

- من صفاته وعلائم ظهوره، وما ورد في الزبور والتوراة والإنجيل وكتب علماء ملتنا. هو - بلا ريب - ذاك الذي مرَّ من



هنا أيام صباه. ونقل إلينا - فيما ما مضى - بحيرى العالم أخباره. واليوم لاحت لي في السماء - وأنتم تُقبلون - غمامة، تظلّل موضعًا من ركبكم دون أن تزايله وتفارقه. وإذ دنوتم، رأيت أنّ الغمامة تظلّل هذا الشاب. وشجرة السدر تلك، حيث نام، كانت منذ أمد سحيق يابسة، لكن انظرْ إليها الآن، طابت وأينعت! انظرْ إلى أغصانها، تهصّرت عليه لئلا تلفحه الشمس...! هذه أيضًا مما ورد في كتبنا من علامات نبوّته...

الراهب مضى في حديثه، لكنّ ميسرة لم يعد يلقي إليه السمع، بل شرد بنظراته، وتذكّر ما شاهده هو من محمد خلال الرحلة: قيامه بالليل، عزلته الغريبة، بصيرته، صحة تنبؤاته، صدق رؤياه بعد السيل، كرامة تعامله، حسن خلقه وطهره...

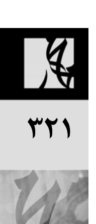
تمثّل في خاطر ميسرة الطريق، فقد كان - إذا اشتد القيظ - يحلّق فوق رأس محمد كائنان سماويان، كأنهما البلور؛ فيخيّلهما شيئًا أو لا شيء. فما كان يدري أيظلّلانه أم يروّحانْ عليه بمحجوب الجناح؛ فيبادر إلى الركب بالسؤال؛ ليعرف هل من أحد منهم رأى ما رآه. فيتبيّن له أن لا أحد رآهما سواه، فيشوبه الشك ويخامره الريب، فيظنّ أن قد استبدّ به الوهم والخيال. فيتحصّن بالسكوت، ويضرب حول القصة سترًا من الصمت لئلّا يتّهموا عقله، ويظنّوا به الظنون. لكن الآن وبما سمع من الراهب...!

ما لبث أن استرد ميسرة وعيه، حتى أخذ يبحث عن الراهب ليبثّ له ما انطوى عليه من السرّ، لكنه لم يجده في مكانه.

التفت ميسرة إلى ما حوله، فرأى محمدًا تحت الشجرة،



والراهب واقف عنده، يتحدث إليه، وقد خرّ بين يديه، يريد أن يقبّل منه الرجلين، ومحمد لا يسمح له بذلك بل يأخذ عضده بحنان، ويجلسه إلى جنبه؛ ففاضت عين ميسرة دمعًا ممّا شاهد، ثم وقع بصره على الراهب وهو يحتضن محمدًا، ويضمّه إلى صدره متشبثًا ويضع رأسه على كتفه كأنه يتيم وجد أباه، فإذا به ينفجر بعبراته المزدحمة في حلقه، وترتعد كاهلاه من العويل والبكاء.



عروس الشام تفيق من نوم ليلتها، وهي متكئة على شواهق محاذية للبنان، أو مستلقية على جانبها بين مزارع التين، وأدغال المشمش والبندق والزيتون والرمّان. وها هي الشمس تشرئبّ بالجانب الشرقي شيئًا فشيئًا، فتبرز من وراء غُلب الحدائق والجنان فتصبغ الشعاف ببريق ذهبي لامع، وتضفي مسحةً من الجمال الفاتن على صروح شامخة انتصبت على أعمدة سامقة بين بساتين الورد والزهور، قصور أطلّت من جوانبها الأربع فسيح الشرفات.

دمشق كانت مطمح الرحلات التجارية، وبداية انطلاقاتها بما ضمّت من السوق الكبير، ومشاهير التجار، وأصحاب الترف الباذخ، ممن يبحثون عن الطرافة والجدة.

بهذه المدينة وسوقها النافقة وبأرباحها الطائلة التي تجنى خلال أيام قلائل، يزول نصب الأسفار المتصلة الخطرة. ومن دمشق هذه تعاود القوافل الرجوع إلى ديارها، محمّلةً بجديد المتاع، وزاكي الأرباح... لكن، تُرى عمّا ستمخّض دمشق ركبَ خديجة؟

القافلة دخلت المدينة مع المساء، وألقت بباب السوق عصا الترحال، ثم استيقظت - على عادة العرب - بكرةً، وغدت إلى بردى لتتحمّم ببارد مائه، الذائب من ثلوج الجبال، ثم بسطت الأحمال



واستعدت لتستقبل من يرغب في الشراء، وإن كانت قد يئست أن يحتفي بسلعها خيرة الزبائن والتجار؛ فركبهم لم يصل دمشق إلّا بعد يومين من الوقت المعتاد؛ فاكتظت السوق بمثل عروضهم ممّا جاء بها غيرهم من تجار مكة.

«والتأخير يعود إلى بعض الركب؛ فقد ألمّ بهم بين بصرى ودمشق مغص شديد، منعهم من الرحلة. فلما أحاط سيّدي بحالهم علمًا، التفت إليّ قائلًا: تُرى، ماذا نفعل يا ميسرة؟!

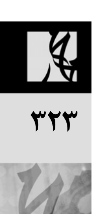
قلت: سوق دمشق خالية من سلعنا الآن، فلو وصلناها في أواننا المحدّد كلّ سنة، فستجد بضاعتنا من يطمح إليها من خيرة المشترين، وإذا ما تأخرنا - ولو ليوم واحد - فسنخسر الخسران المبين.

إلّا أن محمدًا لم تطاوعه نفسه أن يجشّم هؤلاء المرضى عناء السفر؛ فاضطر بنا الأمر أن ننزل في قرية للعلاج؛ ممّا عاقنا يومين عن المنافسين ثم... وصلنا دمشق، وتجار مكة كانوا قد باعوا البضاعة، وبادروا إلى سلع الروم والشام ولبنان وفلسطين بالشراء».

غدت الشمس تنتزع عن عود المدينة برودة السحر، وتلتقط الندى المتساقط على الأسوار، ومداخل البساتين؛ فيحين الأوان لتروج السوق، وتزداد الحركة ويشتد اللغط والضوضاء.

قال ميسرة، والقلق يساوره: سيّدي، فيما سبق من الرحلات قايض ركبنا نفرًا من تجار دمشق، فهل لنا أن نعرض عليهم البضاعة؛ علّ في ذلك مخرجًا؟!

ردّ عليه محمد، وقد طافت عيناه الصافيتان بسكينة سماوية:



إفعل ما ترى فيه الصواب.

انطلق ميسرة ومحمد صوب سوق المدينة المسقف، بعد أن استودعا غلمانهم المتاع.

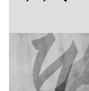
«قطعنا ذاك اليوم أنا وسيدي السوق، وسعينا بين أعلاه وسفلاه وتنقلنا بين المتاجر وصنوف السلع: الجلود، والأحذية، والجواهر، والفلز والسبائك، والزجاج والعطور والتوابل. عرضتُ على كل من عرفتُ من التجار، ما حملناه من المتاع، فتظاهروا بالشفقة علينا والمواساة، والنفوس يراودها الشراء بثمن بخس بحجة أن السوق مكتظ بمثل عروضنا.

وأخيرًا، لم يتمكّن قفلنا أن يبيع إلّا نصف سلعه؛ فانفرد بحمله دون القوافل التجارية».

ها هي السوق تنتعش، وتعود إليها الروح، بعد أن نفضت اليد مع الظهيرة من العمل، فأقبل عليها - بعد هجعة - أهل المدينة زرافات ووحدانًا، وقد كانت فئاتهم إلّا الغلمان بيض الصفيحة، ونفرٌ شقر، خضر العيون أو سود.

كان تجار الشام - من وراء واجهة الدكاكين الغاصّة بالمتاع - يوعزون إلى المرد والغلمان والأجراء، أو كانوا منهمكين بتنضيد البضاعة أو تدبير أمر البيع والشراء. والعاطل منهم ممن لا يتردّد عليه أحدٌ قد غطّ في كرسي عالي الكعب، يريد أن يتمّم ما فاته من القيلولة والهجعة.

في فسحة غير مسقّفة من عتبة السوق، جلس محمد وميسرة على شفا الراكد من السلع، وقد تعلّقت منهما العيون بالطريق، متطلعة إلى من يطمح في الشراء. وها قد آن الأوان لتجار مكة كي يسخروا من محمد ويسلقوه بألسنة حداد، بعد أن عابوا على خديجة من قبل أن استودعت يافعًا، رقيق القلب، مالها الممدود؛ فيثيرون حفيظة ميسرة بما يقولون، لكن أنّى لميسرة الردّ عليهم والإعراض، وهو قلق، مُفرّق النفس. أمّا محمد فقد كان رابط الجأش وادعًا، كأن ليس للغمّ إليه من سبيل.



تناهت بغتةً إلى المسامع جلبة، وتصاعد من الطريق المؤدّي إلى السوق ضوضاء، فأمسك كلٌّ لسانه عن الحديث، وانصرف عمّا كان عليه من البيع والشراء، وأدار الرأس صوب اللغط: على حين فترة، تبيّن أن قافلةً ضخمةً وصلت دمشق توًّا من فلسطين وهي في طريقها إلى السوق.

وهذا يعني أن بضاعة مكة ستنفق وتروج! لكن تُرى هل من ركب يملك ما يعرضه إلّا ركب محمد؟ كما يعني أن يأس ميسرة سينطوي ويزول، ويقرّ منه البال ويهدأ، ثم يتبدّد الشك في أهليّة محمد وجدارته بأمر التجارة وتدبير القفل... فلو كان العير يصل دمشق حين وصلها المنافسون، لما حالفهم الحظ ورواج السلع كما حالفه اليوم...



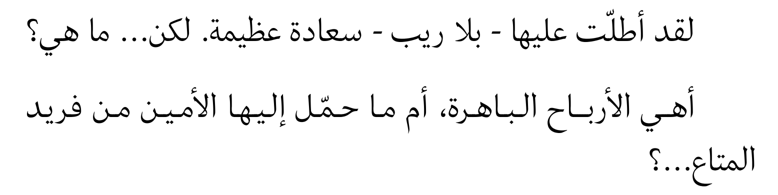
كان الليل، وخديجة جالسة خلف النافذة، داخل الغرفة المطلّة على العرصة الفسيحة من الدار، لكنها لم تكد تعرف، أعلى أعتاب الليل هي، أم في موهن منه؟ كانت ترنو إلى السماء، وتجيل الذهن في مصيرها... في وحدتها...

وبغتةً، هلَّ على أفق السماء القاتمة، الموغلة في الظلام، ضوء لامع، فسار بهوادة ودنا من الأرض، ثم اشتدّ لمعانًا واشتدّ حتى بزغت صفحة شمس مشرقة.

وبينما كانت خديجة منبهرةً بالطلوع المفاجئ، ومنشدّةً ببصرها إلى النور الساطع، ألمَّ بها ما استغربته كلَّ الغرابة: حلّقت فوق هامتها، الغزالة، ثم هبطت على العرصة بهوينى... بأناة، فتألق الموضع منها نورًا... وتوهّجًا.

وهنا استفاقت خديجة من الغفوة، وقعدت القرفصاء في الفراش، ثم ألقت من النافذة على العرصة، نظرةً، والصبح كان قد أسفر فلاح لها في تباشيره، حزم سلع متراكبة، مصطفة، في كل موضع منها، هنا وهناك، انقطعت خديجة لرؤياها في انشراح:

«ترى ما تأويل رؤياى؟».



لقد أطلّت عليها - بلا ريب - سعادة عظيمة. لكن... ما هي؟

أهـي الأربـاح البـاهـرة، أم مـا حـمّـل إلـيـهـا الأمـيـن مـن فريد المتاع...؟

لا، هـذا ليس بتأويل رؤياها؛ وإن كـان ما عـاد بـه محمد من الأرباح لم تحصده من قبلُ في سالف الرحلات. وإن درّت عليها سلع الشام - كما تبين لها خلال الأيام الثلاث - أكثر مما درّته بضاعة مكة. لا... لا، هذا أدنى تعبير للرؤيا!

إذن ما هو تأويله... وأية سعادة تريد الإطلالة عليها؟ ليتها تعرف ليتها تتكهن...!

نزلت خديجة من السرير، وفتحت الباب، وراحت تنادي مولاتها. جاءتها نفيسة تحمل الطست وإبريقًا من فاخر المعادن، صنع في الشام.

- عمتِ صباحًا، يا مولاتي!

- وعمتِ أيضًا!

وضعت نفيسة الطست بين يديها، فجلست خديجة قبالتها، ثم غسلت اليد والوجه بما كانت تصبّ عليها نفيسة من الماء.

- سيّدتي، سيأتي اليوم لاستعراض السلع نفر من تجار مكة والطائف، وطلبت إلى الأمين أن يعرّج علينا لتسلّم الأجرة.

ما إن سمعت خديجة اسم محمد، حتى انبهتت، وتملّكها العجب والحيرة، فتذكرت ما تبادر إليها قبل أيام...



«كنتُ جالسةً تحت القبة المرفوعة على سطح الدار - كدأبي عند الأصيل - وقد آن للقافلة أن تعود. أخذت أترقّب الطريق وأتأمل قدوم الطليعة، فإذا بالغطاء ينكشف عن بصري، وأرى زاهر نور يهلّ على مكة. زعمت أن قد ساورني الوهم ونازعني الخيال، فطرفت بالعين، وعاودت النظر، فإذا بي أرى النور مرةً أخرى، فانتابتني حالة غريبة، مدهشة، كأن صدري انشرح، وخامرني البِشر، وهاج بي الطرب، فطربتْ معي جبال مكة، واشرأبّ بالمدينة الشجر، وارتفع من الطيور الهديل والصداح، فسألتني النسوة ممن حولي، مندهشات: ما هذا الذي أنتِ عليه؟

قلت لهن: خبّرنني أصاحية أنا، أم نائمة؟

قلن: صاحية!

- أترين ما أرى؟

- نرى سوادًا ضئيلًا، كأنه فارس منطلق نحو مكة. فعرفت أنهن لا يرينه كما أراه.

إثر ساعة، شاهد الجميع ذاك الفارس يدخل مكة، ثم تعالى من الزقاق بعد حينٍ طرقات الباب...».

لم تدر خديجة لِمَ هرولت من الخيمة حافية القدمين، وتخطّت السلم واثبةً، تجمع بين الأدراج، ووطئت الباحة، وبادرت إلى السؤال، قبل وصول الإماء إلى الباب: من الطارق؟

أجاب بحرارة تغلغلت إلى أغوار خديجة: طاب يومكم، يا أهل الدار!





إذن ذاك الفارس الغارق في النور... هو الأمين.

- هنيئًا لك السلامة، يا قرة عين قريش...!

- بشراكِ، فإن ركبك رجع بسلام!

- سلامتكَ هي البشرى...

- مولاتي، جاء الأمين (قالته نفيسة).

قفزت خديجة من على السرير.

- لِمَ لِمَ لا تتناولي الفطور، يا مولاتي؟!

- ماذا... الفطور...؟!

التفتت خديجة إلى الطبق النحاسي الذي لم تمسس من طعامه شيئًا، وهي لا تتذكر من حمل إليها الفطور ومتى، ثم رمت بنظرة خارج الغرفة، فرأت الشمس قد ارتفعت في كبد السماء، وانبسط نورها على الفناء.

لمّا شاهدت نفيسة تلجلج مولاتها، قالت: سأقول للأمين ينتظر ريثما تتناولين الفطور.

- لا، لا، لا... لا أشتهي...!

قنّعت خديجة رأسها، ولبست فوق جلبابها الحريري الزاهي جبةً سوداء، مطرّزةً بالذهب، ثم اتجهت نحو الرحبة.

في حلّتها تلك، بدت قامتها الناهضة الممتلئة أكثر وقارًا وهيبة.



وافت محمدًا، وهي تلثّم وجهها المنبسط المشرق بطرف القناع، فلم يبد منه، إلّا كثيف الحاجبين، وحور العينين بأهداب متموجة.

- طاب يومكَ، يا محمد!

- وطاب يومكِ أيضًا، يابنة العم!

كان محمد جالسًا على كرسي، وعليه رداء ناصع نقي، ومنه فاح في قاعة الاستقبال أريج ذاكٍ.

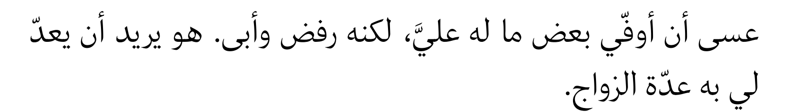
جلست خديجة أمامه على أريكة، فجاءت نفيسة تحمل كأسًا من شراب السكَنجبين. فقدّمتها بين يديه، ثم جلست - بإيعاز من خديجة - على حافة من الأريكة.

غضّ محمد من بصره، وعقف اليدين على الركبة اليمنى، دون أن ينبس ببنت شفه، فقالت خديجة، وقد خفضت ببصرها إلى الأرض: يا أمين، لك مما اكتسبت من الأرباح، نصيب وخلاق، فاطلب ما تشاء!

قال محمد: أرباحك من فضل اللّه، ولم أكن أنا إلّا الوسيلة والسبب.

- بما أنك لازمت الصمت، ولم ترد عليّ بجواب، فأنا أخصّك بنصيب منها، سيقدّمه إليك ميسرة. ثم تريّثت قليلًا وقالت: ماذا عساك أن تفعل بالأجرة هذه، يا بن العم؟!

فوجئ محمد بالسؤال، فتمهّل في الردّ هنيهةً، وقال: لعمي عليّ حقّ عظيم، نويت أن أضع بين يديه كلَّ ما اكتسبته من الأجر؛



عسى أن أوفّي بعض ما له عليَّ، لكنه رفض وأبى. هو يريد أن يعدّ لي به عدّة الزواج.

ألقت خديجة نظرةً على نفيسة، وتطلعت هي إليها، منشدّةً، فقالت نفيسة: حسنًا، يا أمين، لقد تبادر إليّ من قبلُ أن أسألك ما منعك من الزواج، وفيك الشباب والوسامة، والصحة، والطهر والسداد؟

لم يحر محمد جوابًا، فقالت خديجة: يا بن العم، هل لك أن أختار زوجًا، ممن أراها صالحةً؟

ردّ محمد في استحياء: نعم.

قالت نفيسة: امرأة من بني قومك، فريدة بين نسوة مكة في الجمال والطهر والمال والكمال. صبا إليها كثير من رجال العرب والاشراف، لكنها لا ترغب إلّا فيك، امرأة قنوع، عون لك على السراء والضراء.

ثم عقّبت خديجة بالقول: بيد أن فيها عيبين: قد عرفت قبلك رجلين، وتكبرك خمس عشرة سنة.

تأمل محمد قليلًا وسكت، ثم قال: ألا تسمّينها؟

- إنها سيدتي، وسيدة قريش، خديجة!

ما لبث أن شمل جبينه الناصع حبّات العرق، وطغت حمرة قانية على محياه المشرّب شفيف الاحمرار.

أطال محمد السكوت، فبادرته خديجة بالقول: لِمَ لا تتكلّم، يا



بن العم؟!

ردّ محمد بصوت خافت: أنتِ يابنة العم ذات مال، وأنا فيه قُلٌّ، وعليّ أن اختار الكفء.

- ما هذا الذي تقوله، يا محمد؛ فليس بين العرب أشرف منك حسبًا ونسبًا، ثم إنه لا مثيل لك في الصدق. فيك رغبتي وإن عرض عليّ الزواج - كما تعلم - أشراف العرب وشبانهم، وذلك لما حدثني عنك ميسرة وسواه، ولما توسمته أنا، فيك، فإن شئت وهبتك نفسي ورؤوس أموالي كلها، والغلمان والإماء.

سكتت خديجة برهةً، حتى إذا رأت بوادر الرضا عليه، قالت: أحسنْ الظن يا بن العم فيمن أحسن بك الظن. لا تخشَ الصداق الغالي، فسأدفعه من مالي[1].

مسح محمد بسبابته عرق الجبين، وقال: كما تشاءين.

---

(١) **السيرة النبوية**، ١/ ١٨٨ - ١٨٩. [المعرّبة]

أفاق عمرو بن نوفل على الضوضاء، والدوار يأخذ برأسه، من سكر ليلة أمسه. كانت الشمس قد استوت في السماء، فزاده أوارها صداعًا بعد صداع. فصرخ في غضب وهياج: جابر...؟

دخل الغرفة على عجل، خادم عجوز، ضئيل الجسم والعود، وقال: طاب يومك، يا سيدي! هل من أوامر؟

- ما هذه الضوضاء؟

- أي ضوضاء، يا سيدي؟

- الدف والزغردة والدبك؟

- سيدي، الأصوات من دار ابنة أخيك، خديجة!

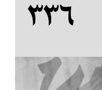
- من دار خديجة...؟! لِمَ؟!

- وكيف لا تدري، يا مولاي؟! ففي الأمس كان حفل زواجها.

- ها، ها، ها...؟ زواجها...؟ مع مَن؟!

- مع الأمين، ابن عبد اللّه، ابن عبد المطلب.

- مع الأمين؟ هذا الفقير المسكين، كيف قامت خديجة بالأمر



من دون استئذاني، وأنا عمها الكبير، وسيد أهلها؟

- لا، يا سيدي، لم يكن ذلك منها، بلا إذن؛ فقد ذهب إليها أبو طالب وأعمام الأمين يخطبونها، فدلّتهم عليك، ثم جاؤوك، وأنت مع الندمان بين الزقّ والدنان.

- حسنًا، حسنًا...! فصّل الكلام؛ لأعرف ماذا حصل على غفلة مني في سويعات.

- أقبل الأمين بحلّة زاكية، وقد تطهّر واغتسل، وتقلّد مهندًا، وركب جوادًا، معه أعمامه وعشرة رجال من قومه.

- نعم، نعم، بدأت أتذكّر بعض ما تقوله.

- أجل، يا سيدي، جاؤوك وأنت على سكر ونشوة. فسُررتَ بحضورهم، وأحسنت وفادتهم. ثم قال أبو طالب إنه رغب إليك لابن أخيه رغبة. فقلت في بهجة: مرحبًا بمحمد. أحببته باللّه، واللات والعزى، وازددتُ اليوم فيه حبًّا، فإليه ما يشاء.

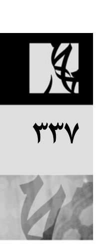
قال أبو طالب: رغبنا ومحمدًا إليك في خديجة، ابنة أخيك.

فقلت على الفور أمام من اجتمع: اشهدوا عليّ يا معشر الحاضرين أني زوّجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب زواج طهر وعفّة على الصداق الذي تعيّنها هي وذلك بطلب من أبي طالب.

فقام أبو طالب بخطبة العقد[1]، ينطق فيها بلسان محمد،

---

(١) **دلائل النبوة**، المقدمة، ص ٢١. [المعرّبة]



تولّى فيها دفع صداق خديجة من ماله أو مال غيره، مهما بلغ الثمن، ثم ألبسك محمد حلّةً مستنًا بالسنّة والعادة، فقبلتها برضا الخاطر.

ثم أشار جابر إلى جانب من وسادة عمرو، حيث الكتان الأبيض بخطوط عريضة زرقاء، وقال: ها هي!

حملق عمرو في الحلّة قليلًا، ثم طرحها جانبًا وهو يتميّز من الغيظ فقال: قل لخديجة تأتني!

قال جابر: سمعًا وطاعة... ثم انطلق.

«كانت دار خديجة على بعد دارين من بيت عمرو».

ترك عمرو الفراش وذهب إلى الفناء ليغسّل ويستعيد الطراوة، ريثما تأتي خديجة.

فلمّا فرغ من الغسل، دخلت خديجة مع جابرٍ الدارَ، وقد غطّت الرأس والوجه، وتلففت بشملة بيضاء.

- طاب يومك، يا عم!

- ما هذا الذي صنعتِ يا خديجة؟!

أظلَّ فجأةً عينيها الجذلى غطاء قاتم، فقالت بصوت راعش يشوبه حنق ما: وما هذا الذي صنعته يا عم، فلم تطب به نفسًا؟!

أجاب عمرو، متجهمًا: ما فعلته بالأمسِ؟!

- ألم تأذن لي، ألم تنطق أنتَ بلساني في خطبة العقد!؟

سكت عمرو هنيهةً في سهوم، ثم مسح الوجه بطرف الجبة،





وقال: كيف أتيت بهذا، وقد طلب يدك الأشراف الصيد؟!

- يا عم، أتنكر نسب محمد ورفعة شأنه بين قريش؟

- لا، لكنه فقير...!

- ولو...، فعندي من المال ما يكفيني وإياه.

ما إن طرق كلامها سمعه، حتى انطلق منه الجبين وانفتحت الأسارير، فقال بنبرة هادئة، لا تشي بالغضب والضيق: إن كنت راضيةً بالزواج منه، فأنا أيضًا راضٍ. فإن لم أكن زوجتك بالأمس، فقد زوجتك اليوم.

ثم أضاف ببسمة: وأين الآن زوجك الشاب؟

فاضت السخرية في عيني خديجة الحوراء، وقالت: لولاي لكان الآن في بيت عمّه أبي طالب كما قد اعتاد.

قال عمرو بشغف: ها...؟ لِمَ؟

- بعد أن انفضّت الوليمة أمس، وذهب كبار بني هاشم، قام محمد ليذهب أيضًا، فأخذتُ بأهداب عباءته وسألته: «إلى أين»؟

أجاب: إلى دار عمي. فقلت ضاحكةً: عليك من الآن أن تترك العم، وتبقى عند الزوج.

«غصّ عمي من كلامي ضحكًا، وطارت من عينيه الدموع فانهمرت على الخدود...».

خرج أبو القاسم من الغرفة، فأرسل إلى الباحة نظرةً. كان الجو ثمة عليلًا، وقد ران عليه الهدوء؛ إذ انقطع عنه هدير الناس الهائل، وهياجهم ليلة الأمس بنهارها. وها هي مكة قد لفّها عذب سكون، بعيد الغور، إثر وبيل الأمطار ومتصل صبيبها، وتلك السيول الجارفة الجموح. فلم يعد يتناهى إلى الآذان إلّا الغليان، غليان الحياة والأحياء والدواب، غليان مدينة شمخت برأسها أمام كابوس مرعب، جثم على ليلة منها ونهار.

انقشع كل ذاك الركام من الغيوم الداجنة الكئيبة، فلم يبدُ منها إلّا مزن، سحاب بيض ضئيلة، كأنها منفوش قطن، مندوف تمثّل كلٌّ منها للبصر كائنات سوية. كانت السماء صافيةً لا يحجبها الغبار، زرقاء، غسلتها الأمطار، ممتدة، كأن لا غاية فيها للآفاق.

القَزَع كبيض زوارق مخرت في صدر السماء في لين ورخاء، فعبثت بها يدُ النسيم المستور، فانحدرت صوب الجنوب. والشمس برزت أمام الأرض وأماطت عن الوجه، اللثام، بعد أن توارت لأيامٍ، وراء الحجاب. فاشتدت أشعتها سرعةً وتوهجًا، وانهمرت بشلال النور، ورفيق الحرّ على هامة المدينة وأهلها. وإثر وابل الأمطار تلك، هبّت على المدينة أنسام هادئة شمالية، جاءتها

من وراء الوهاد والجبال، في آخر شهر خريفي، إذ انبثق منه الفجر الأول؛ فحملت إلى فقراء مكة العراة، ممن لم يجرّبوا القرّ، برودةً وقشعريرة.

حمد محمد ربّه، واستعاذ به من كل شرّ وبلاء، ثم استدعى ميسرة.

انهمك ميسرة على السطح، معه زوجه، وبركة وحليمة وزيد بإصلاح خيمة خديجة، وإعادة نصب قبتها الحريرية (هذه الخيمة، وإن فقدت سابق طراوتها وفخامتها وأناقتها المعهودة أيام ترمّلها، لكنها لا زالت مجلسها لدى العصر، وموضع استقبالها نساء القوم، الغريبات منهن والقريبات). ما إن سمع ميسرة نداء محمد، حتى انطلق إلى حافة السطح، ثم أحنى بظهره نحو الأسفل، وحطّ يديه على شَرَفات سياجه الواطئ، وقال: جئتك، يا سيدي. ثم هبط إلى الدور الثاني.

وما زال ميسرة يخدم سيّدته، وإن أخرجته هو وزوجه من الرقّ والعبودية بعد أن قفل من رحلته التجارية إلى الشام قبل عشرة أعوام، وتحدّث إليها عمّا رأى من محمد في الطريق من مدهش الأمور وعجيبها...

وما زال ميسرة يطوي في أحنائه حبّها، ويؤثر كالرقيق أن يدعو خديجة مولاتي، وأبا القاسم مولاي، وإن كان محمد يمقت ذلك.

«كان سيدي يتعامل معنا ومع العبيد، تعامل السادات الأحرار: يكنّ لنا جميعًا الرأفة والحرمة، قولًا وفعلًا، ويلبسنا من ملبسه ويطعمنا من مأكله، ولا يكلّفنا ما لا طاقة لنا به، ولاينفك

يسهّل علينا الأمور».

- نعمتَ صباحًا، يا ميسرة!

- ونعمت صباحًا، يا سيّدي!

- أراك في شغل شاغل!

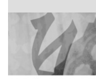
- نعم، يا سيّدي، أنا منذ الفجر أتفقّد الجدران والسقوف والسطح... ثم تريّث قليلًا، وأضاف: قد راح المطر بصاروج السطح؛ فهو بحاجة إلى الردم، وكذلك شأن أسقف الغرف المطلة على الزقاق؛ إذ تسرّبت إليها الرطوبة لكن جدرانها المتاخمة لم يمسها ضرر يذكر، إلّا ثلمة أحدثتها صخرة كبيرة مما جرفته السيول. عمود خيمة مولاتي أيضًا قد سقط، وتفسّخ منها بعضُ الحبال، وها نحن الآن نصلح أمرها؛ لنعاود ضربها.

- وماذا عن الدور، ولا سيما تلك التي في الهاوية وعلى ضفاف السيول؛ لا بدّ أن صبيب المطر والسيول قد أصابها بضرر فادح؟!

- نعم، هو ذاك، لكن لم يتسنّ لي أن أخرج من الدار لأتحرّى الأنباء. قالها ميسرة، منكّس الرأس، وصوته الخفيض ونبرته ينمّان عن الندم وتأنيب الضمير؛ فقد كان يعلم حقًا أن البلية إذا عمّت، تساور مولاه الخشية على فقراء المدينة والعاجزين قبل أن يتملّكه الخوف على نفسه وأهله.

تمهّل محمد قليلًا، ثم رفع رأسه دون أن يحملق في عيني ميسرة ووجهه وقال: دَعْ الدار، واستعد للخروج، ومُر بركة تلتحق





بنا؛ فعسى أن نحتاج إليها.

- سمعًا وطاعة، يا سيدي!

إذ همّ ميسرة الانطلاق صوب الدرج، سأله محمد: ماذا تفعل حليمة؟ هل تناولت الفطور؟

أجاب ميسرة كعادته ببسمة مطبوعة بالحياء: يا سيدي، إن أهل البادية - كما تعلم - يصحون من النوم، والطير في وكُناتها. نعم تناولت حليمة الفطور معنا عند الفجر، وهي الآن مع البقية على السطح، تعينهم على ضرب الخيمة.

عبس محمد وقطب الجبين من كلامه، فعلم ميسرة - وهو على معرفة بطباعه - أن ما قاموا به من حمل الضيف على العمل هو الذي أثار غضبه؛ إذ قد سمعه مرارًا يقول: «إذا حلَّ عليكم الضيف، فأكرموا وفادته». ولا سيما إذا كان الضيف حليمة، تلك التي أحبها محمد وأكبر شأنها وبجّلها تبجيل أمه. فإذا جاءت مكة، وفدت عليه؛ فيشرق محياه حبورًا، ويقوم بين يديها واقفًا، ويبسط لها رداءه، إذا لم يجد ما يفرشه، فيُجلسها عليه.

قال ميسرة، وهو يريد أن يدفع عنه سوء الظن: هي تطوّعت للعمل، حاولت أن أمنعها، مؤكدًا أن سيّدي يكره ذلك، لكنها أبت ورفضت، وقالت: إن البطالة والتفرّغ يبعثها على الملل والكسل.

لم يجاذبه محمد الحديث، بل اتخذ طريقه إلى السلم الحجري، وميسرة وراءه.

«لم أنفك أعرّج على محمد، إذا غدوت إلى مكة، حتى بعد



زواجه من خديجة الطهر. وكان يغمرني ببرّه وإحسانه ويوليني عظيم إكرامه ويردّني إلى البادية محمّلةً بواسع الهدايا. في تلك السنة، ضاقت بنا الحال؛ إذ لم نعد نملك من المواشي شيئًا نستغني به (ثم إن السيل ذاك أصابنا إثر جدب طال ثلاثة أعوام). ولمّا رأيت وسمعت أن محمدًا وزوجه حمى الملهوفين، وعون المحتاجين، قلت لبعلي: فلنشكُ إلى ابني محمد فقرنا، عسى أن يغيثنا.

لم يمنعني الحارث من الذهاب، وإن كان يأنف ذلك، خجلًا وحياءً، فقصدت محمدًا على ظهر حمارة عجوز، مسّها الكبر، ثم واجهت بمكة السيل، فعييت بين ليلة وضحاها بالعودة...».

ارتقى أبو القاسم وميسرة السطح؛ فتوقفت النسوة الثلاث عن العمل.

أنعمهن أبو القاسم صباحًا ببسمة عذبة حنون، وسأل عن حالهن، فرددن عليه - ببشة وهشة - ثم اتجه صوب حليمة ووضع يده على كتفها الضامر، الخفيف اللحم، وقال برفق ولين: كيف أمسيتِ يا مرضع؟ أنمتِ مرتاحة البال؟

برقت عين حليمة الغائرة بالمرح، ودعابة الأمهات، فقالت مازحةً: لم يعرف أحدٌ في هذه المدينة الهدوء بين البرق والرعد والسيل والمطر، فلو أخلد أحدهم إلى النوم، فأنا الثانية، وإن كنت أتحسس السكينة والأمان وأنا إلى جوار ابني داخل هذا الصرح!

قال أبو القاسم: الصحة والأمان نعمتان مكفورتان، مستورتان عن جلّ الناس، بل جميعهم، لا يعرفون قدرهما إلّا بعد فوات الأوان.






- ألا تبقين معنا اليوم، يا مرضع؟

- لا، لا، لا...!

قال لها محمد بضحكة حلوة: إن البقاء معنا - يبدو - قد ثقل عليك وشقّ!؟

ربطت حليمة يدها على معصمه، وقالت: أنت أعلم يا ولدي، كم أنا أصبو إليك، لكن ما باليد حيلة؛ فصغاري وبعلي في انتظاري، وربما انتابهم القلق عليّ بعد حادثة السيل...

قال أبو القاسم: مازحتك يا مرضع... معك الحق!

ثم التفت إلى زوج ميسرة، وقال: خذي أربعين شاةً من القطيع وامنحيها حليمة، إذا عزمت على العودة، عسى أن تستعين بحليبها أو أجرة رعيها، ثم لا تأتلي في زاد طريقها وما تحتاج إليه.

لم يلبث أن غشّت وجه حليمة المرهق الهزيل أمارات الحمد والحنان، وفاضت من عينيها دموع الشوق، فاختلج لسانها مرات لتغدق عليه عميق الشكر، إلّا أن محمدًا كان يأخذ عليها، في كل مرة، سبيل الكلام، ويعاجلها بسؤال، ليفوّت عليها فرصة الثناء.

- هلا أبعث معكِ من يرافقكِ ويعينكِ؟

- ردت عليه حليمة، وقد غصت بالفرحة: فدًى لوفائك، وكريم طباعك! لا زالت مرضعتك قادرةً على الرعي، وإن ناهزت الخمسين!

- قال محمد: لا تعيدي يا مرضع هذا الكلام؛ فما أقوم به من الإحسان قليل في جنب مودتك، ثم أضاف: كنت أظلّ معك،



لولا طارئ يلح عليّ بالخروج. إذا ما بلغتِ الحيّ، فاقرأي على بعلك وأبنائك مني السلام، وقولي لهم: لا أنفك أذكر منهم جميل الإحسان.

- بأبي أنت وأمي، سمعًا وطاعة.

ودّعها أبو القاسم، وانطلق نحو السلم، حتى إذا بلغ الدرج الأول منه، التفت مناديًا: زيد!

انصرف اليافع الجسيم عن شدّ حبال الخيمة بالأوتاد الفولاذية، وردّ: نعم، يا أبتاه!

- تعال معنا، يا ولدي!

- سمعًا، يا أبتاه!

نفض زيدٌ يده من العمل وانطلق إليه.

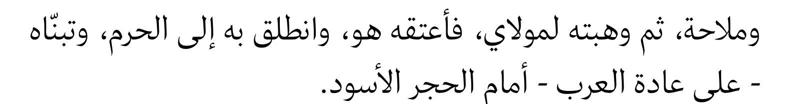
«وزيدٌ هذا، كان دعيّ سيّدي، تبنّاه. أهله من الشام. أصابه الصعاليك - وهو يومئذ ابن ثمانية أعوام - فعرضوه في سوق الرقيق، فابتاعه حكيم بن حزام بن خويلد، تاجر العبيد[١].

ولما قدم حكيم من رحلة الشام، زارته سيّدتي - خالته - فعرض عليها الغلمان وقال: اختاري من شئت منهم!

اختارت مولاتي، زيدًا، وكان صبيًا أسمر اللون، ذا حسن

---

(١) **تاريخ الطبري**، ٢/ ٣٣٦؛ **أسد الغابة**، ١/ ٥٢٢؛ **الإصابة**، ٢/ ٥٣؛ **الاستيعاب**، ١/ ٣٦٢ - ٣٦٣. [المعرّبة]



وملاحة، ثم وهبته لمولاي، فأعتقه هو، وانطلق به إلى الحرم، وتبنّاه - على عادة العرب - أمام الحجر الأسود.

وكان ذلك بعد ثلاثة أعوام من زواج سيّدي ومولاتي، وابنهما القاسم، لا يزال رضيعًا، وعلى هذا كان سيدي يعزّ زيدًا كل الإعزاز، ويؤثره بالمودة والحنان، ويسعى حثيثًا ليؤنسه، ويذهب عنه وحشة الفراق.

وبعد سنتين مات القاسم، فازداد محمد بزيدٍ حبًا ووجدًا، فلم يكد يفارقه، بل كان يصطحبه أينما حلّ وذهب».

لما وصلا الدور الثاني من الدار، أرسل محمد زيدًا إلى الفناء، وانتحى هو جانب اليسار من الممر، حيث الغرفة المطلة على الباحة. فجرّ إليه مصراع بابها الخشبي، ومدّ رأسه إلى الداخل. كانت ابنته الكبرى زينب ثمة، وهي لا زالت تلازم الفراش. فرنا بنظرة ثاقبة، حانية إلى لحظها الأخّاذ، ووجهها الأثير الوضّاء، ومنحها من الابتسامات؛ فازدحمت بباله خواطر القاسم، وغشّت بصره ظلال الأشجان.

آه، يا لسرعة عروجه، ويا لما خلّفه في حنايا أبيه المرهف الشاب من الحزن السحيق الفاجع...

ذكراه كان يراود أباه كل يوم، وإن مرت على رحيله خمسة أعوام. وها هو أبو القاسم يمدّ النظر إلى الوراء، حيث ماضي الأيام، وأعزةٌ نال منهم الموت والهلاك، فلا يجد بدًّا من الانقياد لما قدّر الخالق وقضاه.

صعّد محمد من صدره زفرةً، واستوعب صغيراته، رقية وأم



كلثوم بنظرة، وقد غطّتا في نوم هادئ هنيء، فسأل زينب: أين أملكِ، يا ابنتي؟!

ردّت عليه بنبرة عذبة، ولحن طفولي ناعس: كأنها راحت إلى الفناء، يا أبي!

عاد أبو القاسم أدراجه وهبط من السلم العالي، فوطأ الباحة، وبحث عن خديجة، فلم يجدها، فولّى الوجه شطر الزقاق، والتحق به ميسرة وبركة.

كان زيد وراء مصرعي الباب الواسعتين، على جهة اليسار، جالسًا على صفة صخرية ضخمة، تحت قبو صغير يعلو الباب. وما إن وقع بصره على أبيه بالتبنّي، حتى انتصب قائمًا بين يديه، فضمّ محمد، بحرارة، راحته إلى راحته الرجولية، ثم انطلق الأربع نحو الأحياء، وسط المدينة وضواحيها.

بدأت مكة تستعيد أنفاسها رويدًا رويدًا إثر يوم وليلة من وابل المطر، وذاك السيل العرم. وها قد انفسح المجال أمام الناس ليمدّوا برؤوسهم خارج الدار، ويتحسسوا الأخبار.

لم تنل الفوادح من الأبطح، والأحياء في العوالي لرصانة عمائرها، لكن غسّل السيل والمطر الجدران منها والسطوح؛ فنفض عن وجهها الغبار والأوساخ، وراحت الديار هنا وهناك تلتمع ببريق الشمس وأنوار الفجر البازغة، وتتألق كالشذرات الزاهية.

هذا وقد بعثرت السيول ما في عرصات الدور، فأخرجت ما انطوت عليها من غائط أهلها، ثم انحدرت به صوب المسفلة؛ فالعادة لم تجرِ بين سكنة مكة وعربان الحجاز أن يبنوا في البيوت





مواضع للتبرّز؛ فإذا أرادوا قضاء الحاجة، ارتادوا المطمئن من بقاع الضواحي، ولا سيما أرض منحدرة في سفوح أبي قبيس، تدعى فاضحًا؛ إلّا أن بعض الصغار والنساء والهرم من الرجال كانوا يقضون الحاجة في العرصات، ثم يغيّبون العذرة في التراب. وبذلك تجمّع وسط المدينة والضواحي وفي الأحابيش التي كانت على ضفاف مسيل واسع، قذرات العوالي، ناهيك عما كان فيها من الطين وأوساخ الأحياء.

وفي دروب الأحابيش هذه، كان يستعصي على المارة العبور، لما تكدّس فيها من الرسوب. وبين أزقتها، تدحرج جلمود صخر، بعد أن انهار على هامة كوخ طيني، وأهلك عجوزه البائسة. ثم إن جدران البيوت تصدّعت أو انهارت إذ انقضّت عليها الأحجار والسيول.

لما بلغ أبو القاسم مع رفقته، زيد وميسرة وبركة موضع الكوخ، كان الجيران - لتوّهم - قد أخرجوا من تحت الأنقاض، جثمان العجوز الصغير الهزيل. يبدو أنها ممن لاذوا بمكة، ولم يكن لها أقرباء ولا أنساب. كانت من العفاة المرملات، ممن كفلتهن خديجة؛ فقد سبق أن رآها محمد مرّةً أو مرتين، وهي تتردد على دارهم، تستجدي ما تأكله أو ترتديه.

أوعز محمدٌ إلى ميسرة وبركة بدفن العجوز، وانطلق هو وزيد صوب الحرم، والشوق إلى الكعبة قد أخذ يبرّح بروحه المرفرفة، إثر بَينٍ لم يمتد له إلّا يوم واحد، وإن كان يعرف حقًا أن قد لا يتسنى له الطواف، لما لاح به من معالم السيل، في ساحة الحرم.

لقد صدق ظنّه: رأى الناس مكتظين على بعدٍ من الكعبة،

وقد اشتد منهم اللغط، فعلم أن السيول لا زالت طاغيةً... طامةً؛ فيشقّ عليهم التقدّم أو الاقتراب. فما خطوا خطوات يسيرة حتى شاهدا أكوام الطين والأحجار، قد أحاطت بالكعبة، وأخذت عليها كل سبيل.

هناك، على جرف الماء، طفحت جيفة ضب ضخم، فلاث بها الأطفال، وبين صنمي أساف ونائلة، حيث المنحر انبطحت جثة عجل أرقط.

طما الماء، فناهز الحجر الأسود، وطاول قامات ممشوقة من الرجال، فوقفت وسطه أصنام ملطخة بالأطيان في وهن ووجوم. ومن أوثان الكعبة الـ (٣٦٠)، ضاع معالم بعض، ودحرج التيار البعض الآخر، وانغمس منها في الماء ما كان قصير العود، أو لم يستوِ على قاعدة ما، إلّا إن أسافًا لم يراوح مكانه، وظل ملتصقًا بركن الكعبة، حيث الحجر الأسود، والماء يفيض دون حلقومه.

تحت الشمس الزاهرة، لاحت لزيد هامتها النحاسية الضخمة، وهي تلتمع لمعانها الذهبي؛ فتذكّر طوافه مع والده بالتبنّي.

«لمّا بلغت في الطواف أسافًا، تبركت به - على عادة العرب - فلمّا رأى مني ذلك، والدي بالتبنّي، بل أبي - كما كنت أدعوه - زجرني بقوله: لا تمسح!

واصلتُ الطواف، فإذا بلغتُ أسافًا، عاودت - من حيث لا أشعر - المسح والتبرّك، فصرخ فيّ أبي بلوعة: ألم أنهرك...!؟

ومنذ ذلك الحين، لم أعد أتمسّح بأساف ولا الأوثان الأخر».

رمق أبو القاسم الكعبة بأسًى وحسرة، واستنكر حالها مستغربًا: كيف دنّس جهل الناس بعد ٢٥٠٠ سنة بناءها المتواضع العتيق، ومنضود أحجارها العارية من الملاط، ولوّثت غفلتهم الظاهر منها والباطن. وكيف راح السيل بكيانها اليوم، فآذن بالانهيار والسقوط، وتصدّع منه جداران صدعًا عميقًا، لاح إليه من البعيد وذلك بعد أن تضعضع ذات مرة، إذ جمّرته امرأة، فطارت شرارة مجمرها في ثيابه، فاحترق.

كساء الكعبة الكتاني الفاحم، تسرّب الماء إلى سُداه ولحمته، وإن رُفع من السقف بحبال أربع.

الناس، نساءً ورجالًا وصغارًا كانوا يتجاذبون الحديث عن السيل وخراب الكعبة. وثمة فتًى واقف عند محمد وزيد، تنثال الكلمات من شفتيه وتتطاير؛ فيسمعها من حوله. كان يلهج بالحديث في ولع ويقول: لقد خفَّ السيل كثيرًا؛ فالمكان كان قد غصّ بالماء، لما وصلته عند الفجر؛ فلم يبدُ لأساف ونائلة - أعلى اللّه ذكرهما - عين ولا أثر. ثم أضاف خدنه الذي بدا أكبر منه سنًّا: يقال إن رجلًا تورّط في السيل داخل الحرم.

- رأيتُ أنا أحدهم يسبح حول الكعبة، لم أتبيّنه؛ فالليل كان قد أغبش، ولم أتمكّن من رؤيته؛ لأنه خرج من ضفة أخرى.

تعالى من طليعة القوم صوت جهوري معهود، يمازجه الطعن والسخرية: لا بدّ أن هلع السيل زاده إيمانًا بعد إيمان، فلم يعد يقوى على مغالبة الرغبة في الطواف، أو زيارة الأصنام، فانطلق صوب الحرم وقتئذ، ولم يصبر ريثما يخفّ السيل والماء!!

لم ير أبو القاسم المتحدّث، لكن عرفه من لحن قوله الذي لا يخلو من الزهو والعجب، وكلماته الطاعنة اللاذعة.

لا شك أنّه عمرو بن هشام....

كان عمرو هذا من شجعان قريش، وأولي السعة منهم، إلّا أنه لئيم الطباع، خبيث الطينة؛ فمقت الناس معاشرته وانتبذوا عنه خشية بذاءته ودناءته، ومحمد كان لا يرغب في أمثاله أبدًا؛ ويتجنّب شرّه منذ رحلة الشام وزواجه من خديجة؛ إذ رأى أن الحسد يحتدم في صدره، ونار الحقد والحنق يضطرم فيه.

وذات مرة أصابته من هاشم معرّة؛ لمّا اغترّ بقوة عضلاته غروره، فهمّ ليصارع محمدًا، ويستهين به على رؤوس الأشهاد، فاضطر محمد أن يتصدّى له، ويطرحه على الأرض مجدّلًا - وقد أخذت من الناس الدهشة كلَّ مأخذ - فاصطدمت فخذه بصخرة حادّة، وانخرمت....

- هذا الذي تتحدثون عنه، ولا أحيط بما جرى له خبرًا، شهدته بأم عيني قبل ساعة. هو أبو وهب، خاض الماء، دون أن يلقي للبرد بالًا، فلم يخرج إلّا بعد سبعة أشواط. ساعدته الآلهة! أنا لم أرَ مثل تطوافه ما حييت حياتي الطويلة. هذا ما تفوّه به عجوز واقف عن جُنُب، أحدب الظهر، قد ألقى بعوده الراكع على عصا خيزران، كثير الكعاب.

أخذ أبو القاسم بيد ابنه بالتبنّي، وتنحّى عن القوم، فوقف على بعد، وألقى التحية على الكعبة، فإذا به يسمع هدير جمل هائج، يتصاعد من السوق الموصّل إلى باب بني هاشم. فمالت





إليه الهامات جميعًا، ثم انتفض من وراء الجدار، جمل أدهم، وأغار بلا هوادة على الناس. جمل من الزوامل، ضخم، عريض الجانبين مادت الأرض من أرقاله. أرغى فمه وعلاه الزبد وهدر هديرًا هائلًا أمام الحشود، ثم بصق في وجه بعضهم. فعرف جميعهم أنه فقد وعيه، واستشاط غضبًا، إمّا لظلم ناله، أو لسكر ونشوة في غير موعده؛ فالجمال اعتادت أن تجنّ جنونها على أعتاب الشتاء، أي بعد شهر مما يلي.

ومهما كان، فقد استبد الجموح بالجمل، فاستعصى على الانقياد. فأخذ يأتي على كل من في طريقه بما يضاعف قوة الجمال.

دبَّ في الحشد، الذعر والروع، فلاذوا بالفرار، وهم يصطرخون، واستفحل الخطر، فولّى هشام دبره على الفور، وهرب من المعركة بكلّ ما كان عليه من التباهي والغطرسة؛ فمَن ذا الذي لا يعرف حال الجمل هذه، ولا يدري أن الوقوف في وجهه يساوي الخنوع للموت والانتحار.

كان الجمل يمجّ بماء الفم في عيني القِرن ليغافله، ثم يستعين بطواحنه الرصينة، فيقطعه إربا إربا، ومن ثمّ يروغ عليه بضرباته القاضية، ويصرعه مجدّلًا....

عزم أبو القاسم أن ينتحي جانبًا أسوةً بالآخرين، فلا يعرّض نفسه للخطر سُدًى، لكنّه انصرف عمّا عزم، إذ سمع صرخة امرأة:

في أرض المعركة، سقطت طفلة على خطوات من الجمل، وأمها كانت مبهوتةً قد أسندت ظهرها إلى الجدار، والصرخات الحادّة تنبعث منها، ودونها، عجوز أحدب لفّ عينيه الفزع. كان

يجدّ - بلا جدوى - ليسحب عوده المنهك من الموضع، وينجو بنفسه.

وقف زيدٌ جانبًا على منيف مكان، وجهر بعريض الصرخات في هلع: اهرب، أبِ اهرب!!

وقبل أن تُختم عبارته، رأى أباه بالتبنّي يأخذ السبيل على الجمل ويتمسّك بخطامه المرخى، فيلتفّ على الجانب الأيسر، ويعالجه بضربة قارعة، ثم يجرّ إليه ناصيته بشدّة.

ردّد الجمل الصوت في حنجرته، وهـدر، كـأنّ معدته قد جشأت، إذ انتفخ جوفه هـواء، ثم دار نصف دورة في محاولة لاستخلاص رأسه، لكن القِرن روّضه بحنكته وقوّته، وهدّأ من ثورته ونقمته العمياء، فانهار - أثر عثرة - عوده الثقيل، على الأرض المنحدرة الطينية، فانتهز أبو القاسم الفرصة ليثب عليه، ويأخذ بعنانه ويطوي عليه قبضته بقوّة فظلّ رأسه ملويًا لا يقوى على التماس حركة، مهما حاول محاولاته، فلم يملك أمام محمد إلّا التسليم والانقياد. وانتهت بذلك الطامة الكبرى وسرّحت الصدور مكبوت الأنفاس، واندفعت منها الزفرات. وهرولت الأم الشابة صوب ابنتها، فالتزمتها معانقةً، وتشبثت بها في حضنها، وهي منخرطة في العويل والصراخ، كأنها تخلّصت من كابوس مرعب. ثم إن العجوز أنجده رجل ونأى به جانبًا. أما زيدٌ فقد انطلق نحو أبيه بالتبنّي، ووقف بين يديه، والزهو يموج في صدره، فهمّ أن يعلن على رؤوس الأشهاد: «ألا إنّ هذا البطل الذي لا يُضاهى هو أبي، أبي، أنا»، ثم انهال على محمد الصغار، محملقين، يتملّون من بطل المدينة الجديد، نظرات الإعجاب والافتنان:

أحقًا، أبو القاسم قد نهض بهذا العمل الجلل، أبو القاسم؟!

كان لمكة من قبلُ بطلان: حمزة بن عبد المطلب، وعمرو بن هشام هذا، الذي ولّى اليوم بالفرار من وجه جملٍ مغتاظ. أما حمزة فقد كان ضخم العود والباع، قوي العضد، رحب الصدر، واسعه، لا يظهر بين الناس إلّا قليلًا، والصغار كانوا يرونه ممعنًا في السير نحو الجبال بضواحي مكة، ممتطيًا نجيبًا أدهم، وعليه قباء من جلد الأسُود، وقد تقلّد سيفًا، وتوشّح قوسًا كبيرةً، وكنانة.

كل ذلك، ناهيك عن ثابت نظراته، جعل هؤلاء الصغار يتمثّلونه بطلًا ملحميًّا، بعيد المنال، فيتهيّبونه - على هيامهم به - ويرتدّون عنه، وإن كان الطموح يراودهم أن يكون مَثَلهم، إذا تقدّم بهم العمر.

لم يكن عمرو بن هشام يطاول حمزة في القدّ والقوام، ولا يخرج مثله إلى قنص النمور والأسود، فكان يهابه ويتجنّب منازلته، ويأتي - دونه - على كماة البلدة وأقويائها، فيطرحهم أرضًا. لكنه اليوم سيم خسفًا، وتجشّم أمام أبي القاسم الذلّ والهوان.

بدا عمرو أضخم من أبي القاسم، وكان الصبيان والآباء يبدون الإعجاب بشجاعته وبسالته، وإن كانت تبعث فيهم النفور، نظراته الحادة، وشظاياها المتطايرة.

إلّا أن البطل الجديد هذا من صنف آخر: في عينيه وهج غريب، يخرق الأبصار خرقًا آسرًا، لا بفضاضة صاحبه، ولا بخبثه وشرارته. كان يمنح الصغار كلّ المودة والحبّ، ويتلقاهم بوجه مشرق، متفتّح كالورد، ويغمرهم بشلال من حنانه الأبوي، ويصقل



قلوبهم الصغيرة بطهره وصفائه.

أجل، أخذ محمد يكسف في عيونهم أنوار البطلين، إذ تمثّل لهم باسلًا ضمّ إلى قوّة الذراع والباع روحًا واسعةً رؤوف.

- أحسنتَ، يا بطل، باركَ فيكَ هبل!

لم يكد القوم يسمعون هذه العبارة، حتّى داروا برؤوسهم جميعًا صوب المتحدّث:

كهل، أسمر البشرة، عليه مسحة البدو، أقبل ساعيًا، ثم أخذ يرمق أبا القاسم وجمله في استغراب.

لمّا قبض الرجل بيديه على العنان، تبادر إلى أذهان القوم أن يغدقوا - زرافات أو وحدانًا - على أبي القاسم عبارات الإطراء، لكن عمرًا ولّى عن الناس الدبر، لحسده الطافح، ولما ناله من الضِعة والصَغار.

- أرى أن نأتي البيت العتيق من القواعد، هدمًا، ثم نشيّد بنيانًا جديدًا؛ فالردم ليس هو الحلّ.

- هو ذاك، يا وليد؛ فقد طال عليه العمر، ولا يقوم أمره بالردم كما تقول.

- علينا رفع الجدران أمانًا من معاودة النهب.

«كان طول البيت لمّا رفع إبراهيم القواعد ثلاثين ذراعًا، وعرضه أربعة وعشرين، وله من السمك تسعة أذرع. لم يَعلُه سقف منذ أمد بعيد، مما سهل التسلّق عليه، ثم الانحدار. كان في جوفه على اليسار من الباب، عند قدم هبل، خزانة كالبئر - يقال إنها كانت ثمة منذ بناها إبراهيم - يُطرح فيها ما يُهدى للكعبة من الذهب والفضة والكنوز....

ولمّا جرى السيل، تسوّر أحدٌ البناء وسرق ما في البئر، فرأى الأشياخ أن يزيدوا من سمكها.

في القاعة الممتدة بدار الندوة، انتحى محمد ناحيةً، مصغيًا لما يدلي به كبار القوم. فهمَّ أبو طالب بالحديث على حين من الجلبة: يبدو أنكم أجمعتم على الهدم والبناء، فلنخض في السبيل



إلى ذلك، قبل أن يطول بنا الكلام، فيتأخر العمل ويتأجل.

- حسنًا!

- كلام سائغ ومقبول!

- نعم، هذا أفضل، تجنّبًا الحذر والنزاع.

قال الزبير من أعمام محمد: هذا شرف ستناله قريش دون القبائل، فعلى يد رجالها لا العبيد والإماء، ينبغي أن يقوم الهدم والبناء.

لم يحتج عليه أحد، بل أخذ كلٌ يُومئ برأسه، مؤيدًا إلّا محمدًا؛ فقد ضاق بالكلام صدرًا، إذ تذكّر به جدّه، وهو يريد حفر زمزم.

قال الزبير: لو أحلنا تقسيم العمل إلى الوليد بن المغيرة، أسنّ قريش كلها، وننزل جميعًا عند رأيه مذعنين!

أعلن كلٌ بعبارة ما الموافقة؛ فتحكيم الوليد، ذاك المحنّك الألمعي، الذي يعود إليه أمر بني مخزوم، لا يحتمل الجدل والخلاف.

فإذا ما سمع الوليد ما قيل، تخطّاهم بنظرة، ثم التفت إلى أبي طالب، قائلًا: أرى ألا نُملي للهدم شرطًا، لكن على الجميع أن يجدّوا الجدّ في البناء على قرار ما واضح. أليس كذلك... ها... ماذا تقولون يا بني عبد المطلب!؟

- كما تشاء. (أيدّه الزبير وأبو طالب).

- إذن، إليكم القرار! شِقُ الباب لبني عبد مناف وزهرة.

- حسنًا!

- ظهر الكعبة، ما بين الركن اليماني وأساف، لبني جمح وسهم.

- أحسنت!

- شق الحجر لبني عبد الدار وأسد بن العُزى، وعدّي بن كعب. وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وتيم، ومن ينضّم إليهم من قريش.

- لقد أنصفتَ يا وليد!

الوليد بسعة التجربة، ومعرفته بمكانة كل بطن من قريش، عرف كيف يجزّئ أركان الكعبة للبناء، ثم إنه استظهر بموافقة أبي طالب، ذاك الشيخ المهيب، فلم يملك أحدهم له الخلاف، وأمسك كلٌ عن الاعتراض.

أراد أبو طالب أن يقطع السبيل على الخصام، وعلى الجدال بما لا يرضاه من الرأي والكلام، فبادر إلى القول: للبناء نفقة، وعلى كل بطن حصة، وأرى ألا ندخل في بنائها إلّا الطيب الحلال من كسبنا.

عجّت الأصوات بالتأييد. وارتسمت على شفتي أبي القاسم بسمة، فراح قلبه يلهج بالدعاء لعمّه. ثم انفضّ الشمل بعد أن اتفق جمعهم على ميعاد مع فجر اليوم التالي في الحرم[١].

---

(١) **السيرة النبوية**، ص ١٩٣ - ١٩٧. [المعرّبة]

- أنى للكعبة من يبادر إلى هدمها!؟ قالها عجوز بمزاح يشوبه هلع من الإقـدام. أمّا الآخـرون، فقد راحـوا يتحسّسون خطورة أمر لم يتردّد على بالهم من قبلُ، لكنّه الآن قد أخذ بجماع تفكيرهم. لم لا؛ ألم يحقّ العذاب على من كان يقصد خرابها، والنيل منها؟ ألم يُحَل دونه قبل أن يباشر العمل، ثم من ذا الذي يتجاسر على خراب بنيان لم يزعزعه أحد منذ عهد إبراهيم النبي!؟

كان أبو طالب على علم بما يجول في أذهـان القوم؛ فجهر بعريض الصوت ليسمعه كل من حضر، وقال: رب الكعبة يشهد أننا لا نريد الهدم للهدم؛ فهو عالم بالنيات وبما نريد أن نقوم ببيته.

كـلام يبيحه العقـل؛ إلّا أنـه لا يقـوى علـى استئصال قديم الهواجس، وجذورها في النفوس.

أراد الوليد أن يقضي على أدنى شك مريب، فأضاف لما قاله أبو طالب: كان من الممكن ألّا نعزم، لكننا عزمنا، فلنأتِ عليه!

قال عمرو بن هشام، طاعنًا: إذن باشر، يا عم؛ إنك أكبرنا سنًّا، ونحن نتربصك، فإن لم يصبك شيء من البلاء الفادح، تابعناك.

ردّ عليه الوليد بسخرية: ثكلتك أمك يا عمرو، لا يفيض منك إلّا الشرّ!

رفع الوليد من الأرض معولًا، واتجه صوب الكعبة، ولم يكد يخطو خطوات، حتّى انشدّ برأسه إلى الجدار، فدارت الرؤوس جميعًا إلى حيث ارتدع: ثمة حية كبيرة، تطوّقت على جدار الكعبة، لا تكاد تبصرها العيون للوهلة الأولى لصفرتها. اشرأبت للوليد برأس مذنّب وفم فاغر عريض، وأسنان معوجّة كالإبر؛ فألقت الرعب في القلوب. لسانها القاني أبرق كالصاعقة، ثم غاب بشقيه، فلم يترك في الفضاء إلّا عابر اللمعان.

وقف الجميع أمام عينيها المرعبة، مشدوهين، لا حول لهم ولا قوة.

ترى، أليست هي الحية التي ظن القدامى أنها تحرس الخزانة؟

«على عهد جرهم، قبل أن تحلّ قريش مكة، سُرق مال الكعبة، مرةً بعد مرة، فرأت جرهم أن تجعل لها حرسًا.

وبعد أعوام، سوّل لأحدهم الشيطان، أن ينهب المال، فتحيّن الفرصة، فإذا اشتدت وطأة الحرّ، وانسلّ الناس إلى بيوتهم، دخل البئر، وسرق ما فيها من الكنوز والذهب والفضة، فلما خرج وهمّ أن يسدّ فوهة البئر بصخرتها الضخمة سقط فيها، وانهارت عليه، فحبس بين طواياها حتى جاءه الحرس...

على فترة من النهب، برزت حيّة ضخمة في البئر، ولا زالت بها قابعةً منذ خمسمئة عام، تنال ممن يدنو منها بالموت والهلاك...».

لمّا سُقِط في أيديهم، والتبس عليهم أمرهم، قال قائل منهم: يبدو أن الآلهة لا ترضى بما نريد أن نصنعه من الهدم.

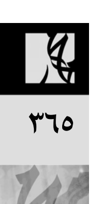
لاذ الحشد بصمت التأييد، إلّا إن أبا القاسم وأبا طالب والمغيرة كانوا على رأي آخر؛ فلا يعقل أن يرضى اللّه بخراب بيته، ويصرف الناس عن البناء، فانطلق أبو طالب ومن ورائه نفر صوب مقام إبراهيم الذي كان على بعد خطوات؛ ليجأروا جميعًا، وأبو القاسم معهم إلى اللّه، يسألونه الفرج والمخرج.

خلع أبو طالب نعليه، واقترب من الموضع، وجثم على ساحة الحرم الصخرية، ثم اتخذ الاشياخ مجلسهم إثره بين الرمال، واستقر من بعدهم الفتيان.

حلّ أبو طالب لفّةً من عمامته الخضراء، وأرخى بها على النحر، ثم مال بهامته وحنّاها، كأنه عبد مسكين، مستكين، ورفع إلى الكعبة يد الضراعة والدعاء.

«كنت إذ ذاك مع والدي بالتبنّي، وهو يدعو بين لفيف الناس بطريقة فريدة، فإذا بطائر ضخم يبرز من حيث لا يعلم، فيخّر كالكسف الصخر؛ ممّا تبادر إلى الأذهان أنه قتل غيلةً، إلّا أنه سرعان ما حلّق في السماء، وقد تشبث بقوي مخالبه، شيء مهتز كأنه سوط سميك.

يبدو أن الطائر كان عقابًا، فانقضّ على الحيّة الصفراء ليختطفها ويذهب بها سحيقًا.



كل ذلك تمّ في لحظات، فلم يتأتَ للناس سبر الأغوار، بيد أن قريشًا ضجّت بالرضا والغبطة، ودوّت منها أصوات التكبير».

انتزع الناس عودهم من الأرض في ثناء وبهجة، وراحوا شطر الكعبة بصدور زال عنها الريب، وولّى القلق، صدور طافحة باليقين، متطلّعة إلى أمرها العظيم...

رفع بعضهم عقيرته، قائلًا: يبدو أن ربّ الدار على مرّ الحقب والأدهار غيّر المنهاج!

مدّ الأعناقَ نفر من الشبان، ليروا المتحدّث بهذا الكلام العجيب: كان عمرو بن زيد، ذاك الموحّد الذي ما فتئ يلتمس الحقيقة ما امتدّ به العمر.

لمّا بلغوا الكعبة، تقدّم الوليد دون القوم، ليباشر هو الهدم في المرة هذه أيضًا، مع كل ما لاح لهم من بوادر صحة ما عزموا عليه.

نزع الوليد عباءته، ووضعها عند قاعدة أساف، ثم أتى إليه بعضهم بمرقاة خشبية. وطئها، ثم ارتقى الكعبة بعوده الجسيم في بطء وثقل فاعترت ركبتيه رعدة الشيخوخة، لا رجفة الذعر والوجل.

- هاتوا المعول!

ارتقى الزبير السلم، وسلّمه معولًا، مريح الاستعمال.

ارتدّ الوليد عند الجدار برهةً، فاحتبست الأنفاس في الصدور وران على الجميع الصمت والسكوت.





- اللّهم لم تُرَعْ، اللّهم أنا لا نريد إلّا الخير!

أتى في أناة بالعتلة على الجدار، وهو يكرّر عبارته الآنفة، فعاد نفر بأدراجهم إلى الوراء.

تغلغلت العتلة بين حجرين، فدوى رنين جاف، ثم قلع الوليد الحجر الأول وطرحه على الأرض.

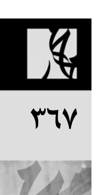
ها هو لم يمسسه سوء ولا ضرر، فلا صاعقة انقضّت عليه، ولا حوّلته إلى رماد، ولا عوده يبس أو شلّ!

استوعب الوليد مَن حوله بنظرة، وهو يشمخ برأسه، ظافرًا، ثم نزع عن رأسه منديله الأسود الصغير، فعلّقه على الجدار، ثم باعد بين قدميه الضخمتين، وبادر إلى العمل، وقد ازداد يقينًا إلى يقينه؛ فأخذ يقارب بين ضرباته القاضية.

تجمّع ممّا قلع الوليد ركام، بل ربوة من الأحجار، ثم انتصب هو واقفًا، ورمق القوم بنظرة مرهقة، أراد بها أن يتساءل: ألم يئن أن تمتلىء صدوركم سكينةً وثباتًا، ألم يسكن روعكم، ويهدأ منكم البال!؟

عاجله الزبير بالردّ، وقال: مدّ اللّه في عمرك، يا وليد، إنزل؛ فقد أدّيت الذي عليك!!

حطّ الوليد العتلة على الأرض، ونزع منديله من الجدار وغطّى به هامته، فوطىء السلم، وهبط في هدوء وهوادة، ثم ارتدى العباءة، والتفت إلى كبار قريش، قائلًا: تعالوا، امضوا في العمل، لا تخافوا، ألا ترون أنني لم أصب بمكروه!



قال عمرو بن هشام: ها، قد حان الغروب، والليل يتقدّم بظلامه، أرى أن نؤجّل العمل إلى الغد.

لم يعترض على رأيه أحدٌ من الأشراف؛ فالهواجس لم تُسرَّ عنهم بعدُ، فكانوا يشاطرون عَمرًا الرأي، ويؤيدون ما كان يذهب إليه، ويردّدون في الأعماق قوله: «ننظر، فإن لم يصبه شيء، فربما نغدو إلى الهدم».

- أبِ... أبِ...! هذا ما صاح به جعفر، إذ أقبل ساعيًا من الزقاق، ودخل الدار، مبهور الأنفاس.

- ترى ما الذي بعث فتى أبي طالب على كل هذه اللوعة والاضطراب!؟

سأله أبو طالب في قلق وارتباك: ها. علي. أصابه شيء!؟

قبل أن يهمّ جعفر بالردّ، تعجّلت أمه في السؤال، وقد كانت تطحن الحنطة بالجاروش: حيدر...؟ (كانت فاطمة تؤثر أن تدعو ابنها الصغير حيدرًا، وإن كان قد سمّاه أبو طالب عليًا).

استعاد جعفر أنفاسه، وقال: لا، لا، لا بأس عليه؛ فهو يلعب مع الصغار خارج الدار.

سأله أبو طالب: إذن ما خطبك؟

- في الحرم... بطون قريش على وشك الاقتتال، وشَهْر السيوف وسفك الدماء!

نزع أبو طالب ظهره من حائط الشرفة المجصّص، وقام بلا سؤال واستفهام، فارتدى العباءة بسرعة، وتغطّى بمنديل الرأس،



وتنعّل، ثم اجتاز فناء الدار الرملي، وانطلق.

لم يمر أبو طالب منذ أربع ليال بالحرم، إذ بلغ البنيان موضع الركن، ونشب النزاع على نصب الحجر الأسود.

«وقعت الحادثة بعد أن انقضى الليل، ولم ينل الوليد مكروه، فتمّ خراب البنيان العتيق في نصف يوم، ثم بادرنا إلى الأساس، وحفرنا الأرض حتى بلغنا عمقًا يطاول بضع قامات من الرجال، فأفضينا إلى أحجار خضر كعظام السنام، دخل بعضها في بعض، فلما أدخل أحدنا العتلة بينها، سطع بريق لامع، فانتفضت الحجارة وتحلحلت دون أن تراوح مكانها.

قال أبي: يبدو أنه الأساس الذي وضعه إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ للكعبة، فلا تحرّكوا الحجر، ولا شيئًا بحذائه، فأذعنا لأمره طائعين.

لما انتهى الهدم، غدونا إلى سيادة لنحمل منها الحجر (وسيادة، جبل يطلّ على وادٍ بضواحي مكة، ينقل منها الصخر).

كان هناك من يجوب الصخر بالوادي، وبعض يحمّله الإبل والحمير والبقر، لكن أسراب النساء والفتيات والصغار كانت عاكفةً على صبّ الجصّ والطين في العربات، وسوق المطايا صوب الحرم.

أعدت النسوة الملاط، وتجاذب الرجال مثنًى أطراف الحجر، فكان ابن عمي، أبو القاسم، ينقل مع عمّنا العباس الصخر.

بلغ البناء ذراعًا ونصف الذراع، وحان موعد نصب الحجر الأسود، فاختصمت القبائل، كلٌّ تريد دون الأخرى أن تنال شرف

رفعه إلى الركن.

انصرف القوم عن البناء، وتعطّل العمل، فجدّ الأشياخ - بلا جدوى - أن يحلّوا عقدة المشكلة. وبذلك صار أبي وأبو القاسم لا يترددان على الحرم، إلّا أنني لم أنفك أغدو إليه مع أخي طالب، وثلة من بني هاشم ثم نعود ليلًا؛ لننقل إلى والدي، الخبر».

- ها.. يا جعفر، لم تقل كيف جرى ذلك؟

قال جعفر مبهورًا، وهو يجدّ ليبلغ مبلغ أبيه في السعي وحثّ الخطى البعيدة: اليوم أيضًا كماضي الأيام تحلّقت البطون حول الحجر الأسود، وأخذ الرجال فيما كانوا يأخذون فيه كل يوم، من حديث الأمجاد، والإعجاب بالآباء والأجداد، حتى اشتعل بينهم شيئًا فشيئًا النزاع، فتمادوا في السب والشتم؛ فقربت بنو عبد الدار، وبنو عدي بن كعب، جفنةً مملوءةً دمًا وأدخلوا فيه اليد، وتعاقدوا على الموت. ولما بلغوا ذلك، أوعز إليّ الوليد أن أنطلق إليك لأخبرك بما يجري.

كانت الضوضاء والجلبة تتناهى إلى الأسماع على بعد زقاق أو زقاقين دون الحرم. بعضهم يرفع صوته بالسبّ في وجه الآخر، وآخر يصرخ فيهم ويحضّ المتخاصمين على الهدوء، والالتزام بحق القربى. ومن النسوة تلاحقت صرخات موجعة، كن يطلقنها من الأعماق. والصغار كانوا يواسون الأمهات ويعولون معهن عطفًا وخوفًا...

لما بلغ الوالد الحرم، معه ابنه، شاهدا الفضاء قد تعجّج بالنقع والغبار، وفاض حول الكعبة لفيف من النسوة والرجال





والصغار، لم يُر لكمهم الهائل نظير إلّا أيام الحجّ.

كان الوليد قد شطر عن قومه في غضب وزعل، فجلس على كومة عيدان اشتريت من ميناء جدّة لتسقيف الكعبة، مسندًا الذقن إلى عمود اليد.

ما إن رأى الوليد أبا طالب، حتى ارتقى ركام العيدان، ورفع عقيرته: اسكتوا... اسكتوا...!

تريّث أبو طالب هنيهةً، ثم تحدّث في نبرة تشي بالود والعتاب وقال: ما لي أراكم تبغون الفتنة في سبيل الخير!؟

اشتدّ اللغط من حواليه، وأوشك أن يخترق الهدوء الذي التزم به القوم للحظات.

رأى أبو طالب - وهو على معرفة بطباع القوم - أن يتدارك الموقف، ويأخذ بمقاليد الحديث، قبل أن تفلت الأمور، فقال بلا تأنٍ: مهلًا... مهلًا...!

انضمّ إليه كبار قريش، فأخذوا يدعون رجالهم إلى السكينة والسكوت، فإذا بطفل متشبث بحجر أمه، ينخرط في العويل.

زاغت إليهما الأبصار قاطبةً في اعتراض وحدّة، فاحتضنت المرأة ابنها، وشطّت به عن المعركة.

قال أبو طالب، مقرّعًا: يا لَلعجب، تدّعي قريش أنها ترعى حرمة البيت وأمانه، وها هم رجالها في الحرم، يسلّون السيوف ويسفك بعضهم دماء بعض! ثم ألقى على الجانبين نظرةً، وأضاف: ألا تخافون أن يتجاسر الآخرون بعدُ على انتهاك الحرمة، فتزول



عنكم النعم والأمان ويحقّ عليكم البلاء والعذاب؟!

ألا تكفّون عن الغي والضلالة، فها هو السيل والجدري والوباء ينال كل يوم من كبارنا وصغارنا... ألا ترعوون!

كأن قول أبي طالب اللين، أفاق وجدانهم من الغفوة والسبات العميق، فإذا لهيب غيظهم المتوقد في العيون يخمد، والوجوه تعلوها غبرة، وترهقها قترة فأغمدت بعض السيوف، وتراخت الأيدي الضاغطة على المقابض. فتقدّم إلى أبي طالب شاب من بني عبد الدار، وقال: يا شريف قومنا، هل لك أن تعيننا على إخماد الفتنة هذه، دون أن ينال أحدنا الذل والهوان؟

مدّ أبو طالب يده إلى ذقنه الصلب، وطأطأ الرأس قليلًا، ثم أخذ لحيته البيضاء الكثّة براحته الضخمة.

شخصت إليه الأبصار في صمت. كأنها عثرت على الحلّال للعقدة الغامضة العويصة.

وأخيرًا رفع أبو طالب رأسه، والتفت إلى الجانبين ليقول: لا بدّ من التحكيم.

- تحكيم؟!

- تحكيم من؟

- من ذاك الذي يذعن الجميع لتحكيمه؟

ردّ عليهم أبو أمية، أسنّ قريش ذاك الرجل الحصيف، الحسن الصيت:





- ماذا تقولون إن أحلنا التحكيم إلى القدر!؟



- تحكيم القدر؟!

- أجل، القدر!

- كيف؟!

- فلننظر إلى الجهات الأربع، ولنجعل بيننا فيما نختلف فيه، أول رجل يدخل الحرم، فنذعن لرأيه بلا منازع.

- لكن...!

- لا مجال للجدال. فلندع التردّد جانبًا وإلا عادت الفتنة جذعًا، واستعصى الحل.

يبدو أنه حلٌّ ذكيٌّ في خضم معركة الحيرة والخطر تلك، وخير سبيل لترك السلاح، وإطفاء ما أوقدوا من نار النزاع، فالأمور به ستؤول إلى حسن مآل.

أسرعوا إلى إملاء الشروط، كي لا يشوب التحكيم ريب أو شكوك، والتفتوا مرةً أخرى إلى أبي أمية، كأنه هو الذي ينبغي أن يردّ على كل ما يتبادر إليهم من سؤال، فيزيل الغمرة ويجلّي المحنة:

- يجب ألا يكون من حاضري المسجد الحرام!

- نعم، ينبغي ألا يكون على اطلاع مما نحن نريده.

قال الزبير: سأجعل على كل باب من أبواب الحرم الأربع، رجالًا يمنعون الخروج، ثم انسلّ من حلقة الأشراف لينفذ ما وعد...

- وكيف إذا دخل الحرم اثنان أو أكثر معًا...؟

- لا بأس، نعيّن بابًا واحدًا!

- باب بني شيبة؟ (كان الناس يفضّلون الدخول من هذا الباب، لأنه كان على واجهةٍ من باب الكعبة وبيت المقدس).

قال أبو أمية: لا أرى سببًا للخلاف!

لوّح السراة بالرؤوس، أو تطايرت منهم عبارات التأييد.

- قال الوليد: ينبغي أن لا يكون طفلًا أو امرأة.

- لا يجدر أن يحكم بيننا فاسق أو سيئ صيت.

- بأبي أنت وأمي، يا أبا طالب. أحسنت فيما قلت، لقد أدّيت حق الكلام. أجل، تحكيم هؤلاء والإذعان لأمثالهم، عار أبدي على قريش.

- عليه أن لا يؤثر بطنه إن كان من قريش.

- يا عمرو، هذا الكلام - وإن كان صحيحًا - يعقّد المسألة. فمن يتسم بالطباع الآنفة لا يجوز الشك فيما يذهب إليه، مهما كان.

قال الوليد: كما تريد يا أبا أمية. إذن فلنختم الحديث ونباشر العمل!

أمسك كلٌ لسانه، وانطلق نحو باب بني شيبة. ثم ارتقى أبو أمية ركام أحجار، وصاح عاليًا ليسمعه الجميع: نبدأ..!

انقطعت الضوضاء دفعةً واحدة، وخيّم على الحرم صمت

عميق، وأرهفت الآذان أيّما إرهاف؛ فراحت تلتقط - بوضوح - كل صوت ينبعث من السكك والطرقات، وخفقت القلوب في الصدور، وانفتحت العيون على آخرها جاحضةً، تترقب الطريق.

مرّ غراب بسماء الحرم عابرًا، فنعق نعيقًا ممتدًّا، كأنه استغرب ما ران على الحشد من السكوت والهدوء، فانخرط الصامتون في الضحك من نعيقه المنكر الطويل، وملأت الفضاء منهم القهقهات.

قال الوليد، مداعبًا: لقد كنت في غفلة عن أسباب السماء، ولم تأخذها يا أبا أمية في الحسبان!

تطلّع إليه أبو أمية بابتسامة، لكن ما إن هم أن يردّ عليه، حتى تعالت أصوات من باب بني شيبة:

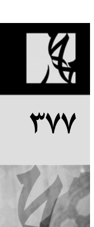
- جاء...! جاء...!

دارت الرؤوس جميعًا، فصاح أبو أمية مستبشرًا من على الركام: هذا الأمين...!

قال الوليد في رضا: الأمين سديد الرأي، صادق الفعل، صائب الحكم، يحكم بالعدل، ونحن بنو مخزوم نرضى بتحكيمه.

ضمّ الأشراف من قريش - في ارتياح - أصواتهم إلى صوت الوليد.

أقبل الأمين بقامته الربعة، عليه دثار أبيض من البرد اليماني زعفراني الوشى، ومرط خردلي اللون، وغطاء رأس ململي من مثل لونه.



كان يمشي متخاذلًا، مطرقًا، غاصًّا في أفكاره، بعد أن وقع بصره على زمرة تتقامر بعظم الكعب، في دار العجوز التي أهلكها السيل، ورأى شابةً تحثّ التراب على الرأس، وهي تدور حولهم صارخةً وتدعو عليهم ثبورًا، فوقف عندها كئيبًا، عسى أن يعينها، فعرف أن بعلها من المقامرين وراحت تعول بعد أن راهن على جمله، ثم داره، فخسرهما، فقامر على عشرة أعوام من عمره، علّه يستعيد الجمل والدار، فنال الخسران وضيّع العمر، فصار عليه الرقّ لمن قمره، عقدًا من الزمن...

أقبل الأمين بقلب جريح، ممعنًا في أفكاره، منقطعًا لها. لكن ما إن رفع رأسه، حتّى رأى حشد الناس محملقين فيه، وتلقّاه أبو طالب بمزيد من الرضا والارتياح ثم تداركه بالإخبار، لينزع عنه الحيرة، ويزيل الدهشة.

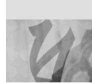
أطرق محمد رأسه، متأملًا، ثم التفت إلى كبار القوم، قائلًا: أعدّوا ملاطًا!

راح جعفر وطالب ينفّذان الطلب.

انطلق الأمين صوب الحجر الأسود، ثم نزع العباءة وبسطها على الأرض.

ضاقت حلقة المحتشدين من حوله، وأتلعت الصفوف الخلفية أعناقها، تتدافع نحو الأمام، وتعلّقت الأنظار بذاك الشاب، الحسن الذكر، الجميل الصيت، ابن الخمس والثلاثين. كلٌّ يريد أن يعرف كيف يحلّ محمد ببنان الفراسة والتدبير، العقدة العويصة تلك!





أحنى الأمين ظهره، ورفع الحجر الأسود، ووضعه وسط العباءة، ثم تعالت منه نبرة واضحة آسرة:

لتأخذ كل قبيلة بطرف من العباءة، ثم ارفعوه جميعًا حتى يبلغ موضعه من الركن!

نهض الأشراف إلى الأمين، وقد بهرهم ذكاءه وملأهم عدله ارتياحًا، فانثالت من أفواه الحاضرين كلمات الثناء، وتصاعدت منهم زغاريد الفرح.

أجل، الحجرالقابع وسط عباءة الأمين، نال الارتفاع على يد الأشراف، ومن ورائهم لفيف البطون يموج بعضه في بعض، في سرور وحبور.

وعند الركن، أخذ الأمين الحجر الأسود بيده، وحطّه في موضعه الخالي، ثم قال: فليأتِ كل بطن شارك في البناء، يصبّ الملاط؛ كي يستقيم الحجر في مكانه.

ها هي الطامة قد انتهت، وغمرة النزاع انجلت، فصار يتبادل الابتسامات، ألدّ الخصام، ممن كان متعطّشًا، قبل سويعات، لسفك الدماء[1].

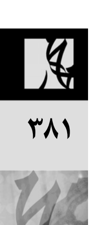
عاود الجميع البناء على حين فترة من الانقطاع، والأمين معهم. كان يطوي العباءة والعمامة، ويزامل عمّه العباس في نقل الحجارة.

---

(١) **السيرة النبوية** لابن هشام، ١/ ١٩٣ - ١٩٧؛ **السيرة النبوية** لابن كثير، ١/ ٢٧٥ - ٢٧٨.



ويقال إن العباس سمع آنذاك رجلًا لم يعهد أن التقى به، يحاور صاحبه في سخط وهياج: عجبًا لهؤلاء القوم، يتكاسل الكبير منهم، فيدع للصغير المقلّ أمر السيادة والتحكيم، أقسم باللات والعزّى لَيقومنّ هذا عليهم، وليتولّى عاقبة أمرهم...!

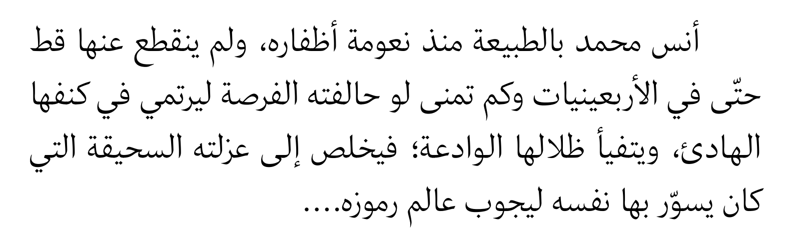


أقبل الأمين مع الغروب على الحرم، مرهقًا من عمل كادّ، مارسه طيلة النهار؛ فمنذ زواجه بخديجة، أخذ على عاتقه تدبير الأمور خارج الدار: من المقايضة حتى إنفاذ القوافل التجارية إلى اليمن والشام، وإرسال السلع إلى الأسواق الموسمية الرائجة في الأشهر الحرم وأيام الحج، ثم أخذ على نفسه - وإنْ كان منزّهًا من رذائل التجار - أن يعيد النظر في الدخل والخرج والأموال....

«شاركت أنا - السائب بن أبي السائب[1] - محمدًا في التجارة، فرأيته نعم الشريك، وأمعنت في أسلوبه مع التجار: ما كان ليكذب، أو يغشّ ويخون، ولم يك يزكيّ بضاعته، ويحسن لها بما ليس فيها - على عادة من يمارس البيع والشراء - كان يكتفي بالزهيد من الأرباح، ولا يريد بالمشتري العسر، ثم إنه لم يكن يفوّض إليّ أمره، وإن كنتُ شريكه». يحب العمل حبًّا جمًّا، لا يخشاه، ولو كلّفه الجهد والعناء. وعلى ذلك كان يؤثر الخلوة ويفضّل العزلة!

«... واهًا لأيام الرعي، واها...! واهًا للرحب الطلق واها...!!».

(١) **السيرة الحلبية**، ١/ ٢٢٣. [المعرّبة]



أنس محمد بالطبيعة منذ نعومة أظفاره، ولم ينقطع عنها قط حتّى في الأربعينيات وكم تمنى لو حالفته الفرصة ليرتمي في كنفها الهادئ، ويتفيأ ظلالها الوادعة؛ فيخلص إلى عزلته السحيقة التي كان يسوّر بها نفسه ليجوب عالم رموزه....

كل ما في المدينة يداهم الذهن، ويأخذ بجماع الفكر، أحاديثها... صخبها... زحمة أعمالها... فضائلها... رذائلها....

الجدران والدور وضيق الدروب أوصدت السبيل كالأقفاص على من فيها، وحالت دون تحليق الأفكار في فسيح الفضاء، فقصرت على العيون الآفاق، مما ضاقت به الصدور وشحّت الأذهان...

لكن هيهات كل ذلك من الرحاب العذراء، الممتدّة بالصحراء، حيث يرسل محمد أمواج الذهن الطويلة إلى كل حدب منها وصوب، دون أي رادع، دون أي مانع، ويستقرئ ببصيرته ونفاذ عقله ما وعاه كتاب الطبيعة الضخم من العجائب والغرائب.

ليته لم يضطر على البقاء بين ظهراني الناس، ليته يشطر عن دنياهم، ويخلو إلى نفسه في أحضان الطبيعة، ويقلّب في السماء عينيه المترقّبة، حتّى يتوفاه اللّه، أو يفتح له مغاليق خزائن أسراره....

كان الحرم على عادته عند الغروب، مكتظًّا بالحشود، بعض يطوف، وآخر يمتثل خاضعًا لصنم بطنه، وثالث يضمّخ هامة الأصنام بالطيب والعطور، وهناك كهل مترهل ينزع عن وثنه، دثاره الخلق البالي ليخلع عليه القشيب الزاهي. وعلى الجهات الأربع من الحرم، بين الأروقة، ووسط الفناء، التفّ الرجال حول كبار بطونهم



في حلقات، وهم يتجاذبون أطراف الحديث، فإذا دخل بعضهم الحرم، طاف بالكعبة، وعكف على صنمه ساجدًا... متبرّكًا، ثم التحق بحلقة من الحلقات. لكن أبا القاسم لمّا ورد الحرم، همّ - كعادته - بالتطواف، وراح يبتهل على طريقته الخاصة، معرضًا عن الأوثان، لا يتمسّح بها، بل لا يلقي إليها بالًا ولا يخصّها بنظرة....

«إذ رأيت منه ذلك - وقد سبق أن شاهدته على هذه الحال بضع مرات - سألته: لِمَ يا أبا القاسم لا تعبد ما نعبد من الأصنام، ولا تعكف عليها ساجدًا؟!

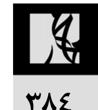
ردّ عليّ قائلًا: كيف أسجد - يا أبا بكر - لوثن منحوت، صنعته الأيدي، أصنام لا تضرّ ولا تنفع؟».

عزم محمد على العودة من الحرم إلى الدار، فالتقى بورقة بن نوفل، عند الباب، وهو يضرب الأرض بعصاه، يلتمس به - كما بدا لمحمد - سبيل الرجوع إلى داره.

ورقة العجوز الراهب لم يكن قد تخلّى عن الطواف وإن تنصّر منذ سنين طوال، وابيضت عيناه، فكان كل مساء يطوي أزقة مكة المنحدرة تحت القدمين، مهتديًا الطريق بعصاه؛ ليبلغ الكعبة وينال التطواف.

خطا إليه محمد خطوات، فرآه يذرف الدموع، ويتمتم هذه الأبيات:

رشدتَ وأنعمتَ ابنَ عمرو وإنما ... تجنّبت تنّورًا من النار حاميا
بدينكَ ربًّا ليس ربٌّ كمثله ... وتركت جنّان الجبال كما هيا
تقول إذا جاوزت أرضًا مخوفةً ... باسم الإله بالغداة وساريا





تقول إذا صليت في كل مسجد حَنَانَيْكَ لا تُظْهِر عليَّ الأعاديا[1]

عرف محمد أن ورقة يرثي خليله القديم، زيد بن عمرو، الذي انقطعت أخباره منذ مدّة.

وزيدٌ هذا، سبق أن رآه محمد عجوزًا منهكًا، قد أسند الظهر إلى الكعبة، يدعو قومه إلى الحنيفية، ومفارقة ما هم عليه من عبادة الأوثان. وبعد حين من الزمن، وَكَّل به عمّه الخطاب، شبابًا من قريش، وبعض سفائها لطرده من مكة، كراهية أن يفسد عليهم دينهم، أو يتابعه أحدٌ منهم.

اضطر زيدٌ إلى أن يخرج إلى جبل النور، ولا يدخل مكة للطواف إلّا سرًّا، فإذا أحسّوا به، راغ السفهاء عليه ضربًا حتى الموت. ووكّل الخطاب به زوجه صفيّة أيضًا وطلب إليها أن تخبره، إن همّ الصدور عن مكة، فصار شريدًا... طريدًا في بلدته لا يؤذن له في تركها.

وعلى ذلك، جاءت خديجة بخبر، أن زيدًا هام على وجهه بلا مؤونة ولا زاد... ثم ضاع أثره....

لكن ليت شعري... لِمَ يرثي ورقة الآن خدنه، ذاك الذي أصفاه ودّه؟

- طبتَ عصرًا!

- آه، هذا أنت يا أبا القاسم، وطبتَ كذلك!

- أراك ملتاعًا، مفرّق الحال، أنالَ صاحبَك زيدًا خطب ما؟

---

(١) **دلائل النبوة**، ٢/ ١٤٤ وص ٥١٥؛ **وسبل الهدى**، ٣/ ٢٧٦. [المعرّبة]



ما إن طرقت العبارة سمعه، حتى انفجر، باكيًا...!

ربت محمد كتفه الهزيل، يواسيه، ثم راح يسأله:

أتلقّيت عن زيد نبأً ما؟

نشّف ورقة عينيه الذابلتين، والعبرة تأخذ بخناقه، ثم ردّ قائلًا: نعم، يا ولدي. مات زيد... قتلوه....

- قتلوه؟!... أين؟!... متى؟!

- نعم، يا ولدي، قُتِل في طريق العودة من الشام، قرب خيبر، قتله الصعاليك من بني خفاجة....

أجهش ورقة بالبكاء وعاود العويل....

غشّت محمدًا كآبة سحيقة فتساءل بعد لحظات يسيرة: ما شأن هؤلاءِ والعجوز المستنير... ثم ترى لِمَ كان زيدٌ هناك؟

قلّب ورقة رأسه يمنةً ويسرة، كمن يترقّب ما حوله، فسأل: هل من أحد؟

ردّ محمد: لا، ما من أحد....

- تعال، لأتحدث إليك في الطريق، فأنت منّا، ولست بغريب.

أمسك محمد بيده القوية الدافئة راحة العجوز المتغضّنة الذابلة، وانطلقا معًا نحو حي الأبطح.

حمل إليّ النبأ أمسِ، ابن عمتك، عبيد اللّه بن جحش، فهو من زمرتنا. لا بدّ أنك تدري أنني أنا وزيدًا وعبيد اللّه وعثمان بن

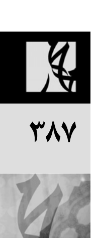


الحويرث ترافقنا منذ عهد بعيد.

كنّا كأمثالنا من أهل البلدة مشركين، نعبد الأوثان، فإذا انتهينا إلى سن التمييز، ارتابت قلوبنا، فأخلصنا نجيًّا، وأظهرنا بعضنا على ما في نفوسنا شيئًا فشيئًا... وحدث أيام الكهولة أن خرجت قريش من مكة بصنمها الكبير «بوانة» في عيد من أعيادها، فعظمت الوثن، ونحرت له، وعجّت بالسرور ومعاقرة الخمور، فخلا بعضنا إلى بعض، وتحالفنا أن نتفرّق في البلدان فنلتمس الدين الحنيف.

سرتُ أنا إلى الشام، أتتبّع النِحَل، متأملًا فيها، حتى اتخذت النصرانية دينًا ثم رجعتُ إلى مكة، وسار عثمان بن الحويرث إلى الروم، لكنه مكث بها، ثم قدم على قيصرها، فحسنت عنده المنزلة. وابن عمتك، عبيد اللّه، ظلّ معتزلًا الأوثان، وإن أقام على ما كان عليه من الالتباس. أمّا زيد، فإن بني مخزوم صدّوا سبيله، فلم يأذنوا له بالخروج من مكة، فجاهر بدينه، وأعلن أنه على الحنيفية، وظلّ يستفسر عن ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ فلم يجد في مكة والحجاز كلها من يقف على شريعته، فاضطر قبل سنة أو سنتين أن يلوذ بالهروب. فلم نحط بأمره خبرًا، حتى التقى به عبيد اللّه في دمشق قبل شهر بعود هزيل، ومدرعة خشنة رثة، وجوانح اعترتها رعشة.

حكى زيد لعبيد اللّه أنه طوى بقدميه الطريق من الحجاز إلى الموصل والشام، فعرض عليه النصارى والأحبار دياناتهم، فلم يرض شيئًا منها واستخبرهم عن الحنيفية، فلم يجد جوابًا، فدلوه على راهب بالبلقاء، كان ينتهي إليه علم النصارى والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فراح إليه ودار بينهما حديث، نقله زيد إلى عبيد اللّه: استفسرته عن ملة إبراهيم، فردّ عليّ قائلًا: إنك لَتطلب دينًا ما أنت بواجدٍ



اليوم من يحملك عليه، ولكن قد أطلّ زمان بنبي يخرج من بلادك التي خرجت منها، يبعث بدين إبراهيم الحنيف، وينسخ الشرائع، فالحقْ به؛ فإنه مبعوث بما تلتمسه وتسأله...

آبَ زيدٌ من فوره إلى مكة، وقد غمره عظيم الفرح، إلّا أن هؤلاء السفهاء سفكوا في الطريق دمه لأسباب أجهلها...



ها هو محمد قد لبس الجاروق[١]، واستعدّ للانطلاق نحو حراء.

«كانت عادة المتعبدين من قريش أن يخرجوا من مكة إلى الشعاف ليخلوا إلى أنفسهم في شهر رجب بلياليه وأيامه. فكانوا يتحصّنون بالصمت، ويعتزلون الناس، ويقطعون الصلة بهم، فيمسكون عن الحديث، ويتحرّزون من الاختلاط. فصار الصمت والخلوة من نسك قريش في الجاهلية.

سنَّ أبناء هاشم السنة هذه، وعمل بها البطون من بعدُ، بيد أن بني هاشم ظلّوا يعيرونها اهتمامًا أوسع، وكان أحرصهم عليها محمد بن عبد اللّه».

«أجل، كان بعلي، أبو القاسم، شديد التعلّق بتلك العزلة والخلوة، إلّا أنني وجدت القلق يعتمل في صدره، وهو يريد الخروج إلى حراء؛ فقد انتابه عامذاك غريب الأحداث: طالما ألمّت بمحمد رؤًى ملهمة، تحققت بعدُ، لكنه منذ طوى الأربعين، صارت أحلامه غريبةً، لا يراها إلّا وجاءت كفلق الصباح.

---

(١) الجاروخ أو الجاروق (معرّبة): حذاء جلدي ذو ساق، له أشرطة. [المعرّبة]



ترى، هل حلمًا ما يراه محمد؟ كلا، شتان ما بين الحلم وما يراه، وشتان ما بين رؤياه وما يسترسل فيه الناس؛ إذ الغفلة عن ذكر اللّه لا تعتريه، سواء في الغفوة أو الصحوة كما قال هو لي ذات مرة: «تنام عيناي، وقلبي يقظان».

أحلامه صدق، هي الفلق، يسطع على روحه... على قلبه، يُجلّي بتباشيره الأشياء، لتنكشف له الحقيقة.

أخذ يبثني ذات نفسه ويفضي إليّ بالذي يسمع ويرى، ويحدّثني بما كان عليه، فأخبرت ابن عمّي ورقة بالموضوع (ورقة كان عابدًا صالحًا، قد ضمّ إليه من علوم الدين جمّ الكنوز) فقال لي: إني أتوسّم فيه الخير، وقد سبق أن تحدثتِ يا ابنة العم عمّا ظهر عليه في رحلة الشام من الدلائل والآيات، عسى اللّه أن يبعث بعلك نبيًا؛ فالرسل تعدّ قلوبهم للبعثة، وتلقى الوحي بالأحلام، أو بما يوحى إليهم في المنام.

ومنذ ذلك الحين كان يتمثّل بين يدي بعلي - إذا أخلد إلى النوم - رجلٌ عظيم الهيبة، ليس له ولا لغيره عهد به. ثم لم تطل إلّا فترة قصيرة حتى قال: يا خديجة، أخذ الرجل يتمثل أمامي في الصحوة أيضًا.

سألته: متى، وأين؟

قال: في كل آن ومكان، في البدو والحضر، في آناء الليل أو أطراف النهار....

أتذكر أن غمغمةً كانت تصل إلى زوجي من بعيد أيام الشباب، لا يظهر عليها أحد غيره، وكان يرى - أحيانًا - ما لا نراه، لكن الغمغمة



تلك اشتدت في ما مضى من الشهور، فأصبح إذا خرج وحده، تناهت إليه من الشجر والحجر عبارة التسليم هذه: السلام عليك، يا رسول اللّه! فيلتفت يمنةً ويسرةً، ويدير وجهه إلى الوراء، فلا يرى إلّا الحجر إلّا الشجر.

فلمّا مكث على هذه الحال، أخذ يأنف الطعام، ولا ينام من ليله إلّا اللمام، فلاحت عليه بوادر الوهن والهزال.

وإذا حان خروجه إلى حراء، بدا لي في عينيه الذعر، فزعمت أنه توجّس خيفةً على نفسه، وخشي مما سمع ورأى، فرحت إليه، وقبّلت بين عينيه، وقلت: بأبي أنت وأمي، لِمَ كل هذا القلق؛ فإنك والسلف من قومك على عافية وقوة، وقد عشت أنت الطهر والصدق والأمانة، لم يجرّب عليك أحد كذبًا ولا خيانة، عفيف الجسم والبصر، طاهر من الأدران والخبائث، تصل الرحم، وتصلح ذات البين، وتحمل الكلّ[1] وتكسب المعدوم، وتعطف على المسكين، وتعين المظلوم. كلا... كلا، لا يجعل اللّه للشيطان إلى نفسك سبيلًا[2].

ابتسم أبو القاسم في وجهي، ولم ينبس ببنت شفة، ثم زوّدته بجرة ماء، وكعك، وجراب زيت زيتون، ثم انطلق نحو حراء».

---

(١) تحمل الكلّ: تعطي صاحب العيلة ما يريحه من ثقل مؤنة عياله. [المعرّبة]

(٢) **السيرة النبوية** لابن كثير، ١/ ٣٨٦، ٣٩٤. [المعرّبة]



ها هو حراء، أنيس انشطاره الشاحط، وعزلته المغلقة الكاتمة، أخذ يتطلّع عليه من جديد بسهوبه وسفوحه، فينسرح شعاع أفكار - بلا قيود - في جوّ طلق لا تحتويه آفاق ولا حدود. ويستوعب محمد من عليائه فسحةً فسيحةً من الكون بنظرة تستعصي على من أخلد إلى الأرض، ولصق بها.

يا لشدَّ ما تزدري العين - في شعافه - هؤلاء القوم، حيث يلوحون إليها أقزامًا، هزالًا، داخرين، تافهًا ما ينهضون به من الحركة والحديث والسعي والصراع!

يا لغفلة من انغمس منهم في رتابة الحياة! آه، كيف شطّ عن الطموح، فكرهم الراسف في قيود العادات الهشة!

«كان معشر العرب - يومذاك - على شرّ دين، وفي شرّ دار منيخون، بين حجارة خُشن، وحيّات صُمّ، يشربون الكدر، ويأكلون الجَشِب، ويسفكون دماءهم، ويقطعون أرحامهم. الأصنام فيهم منصوبة، والآثام بهم معصوبة[١].

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٢٦. [المعرّبة]

الناس ضُلال في حيرة، وخابطون في فتنة، قد استهوتهم الأهواء واستنزلتهم الكبرياء[١].

لم يكن نبي قد بعث على حين فترة من الرسل، وحلكة غط فيها الكون، وطول هجعة من الأمم، وانتقاص من البرم، فبلغ الهلع أقصاه، مما لم يجد الناس منه مفرًّا إلّا السيف، وصارت الدنيا على حين اضطرار من ورقها وإياس من ثمرها[٢]».

ها هو محمد على أعتاب الأربعين، وروحه تطلّ على ما تجري من الفتن والآثام، فما عليها إلّا أن تتلوّى حسرةً وحزنًا، وأملًا حائرًا؛ فهي ونفر آخر لا تدري من ذلك المأزق مخرجًا ولا فرجًا.

ألم يكن زيدٌ وورقة وعثمان وعبيد اللّه من هؤلاء النفر؟ أقليلٌ ما عاناه زيدٌ على الدرب والطريق؟ وهل كان ردّ هؤلاء الذين لامس مأساتهم إلّا الطعن والسبّ والأذى والرجم والرشق... ترى لِمَ؟ ألأنه أراد أن يبرق كخاطف الشُهب في قاتم الظُلم؛ فيضيء لهم ما حولهم من بشاعة الحياة. النكدة. البائسة.

وهناك، خارج مكة، بضعة رجال من أمثالهم: تذكر محمدٌ يوم رأى في عكاظ، قس بن ساعدة الأيادي من بكر بن وائل، جالسًا على صهوة عيس، يمشي بين الناس، واعظًا: أيها الناس اسمعوا وَعُوا: إنه من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ آت... إن في السماء لخبرًا، وإن في الأرض لعبرًا، ما بال الناس يذهبون

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ٩٥. [المعرّبة]

(٢) **نهج البلاغة**، الخطبة ٨٩. [المعرّبة]



ولا يرجعون، أرضوا فأقاموا، أم تركوا فناموا؟ يقسم قسّ باللّه قسمًا لا إثم فيه؛ إنّ للّه دينًا هو أرضى له، وأفضل من دينكم الذي أنتم عليه[١]....

فكانوا ينفضَّون إلى التجارة، ويتركونه قائمًا، أو يلقون حديثه بالإغراق في الضحك والسخرية.

أليس لهؤلاء قلوب يعقلون بها هذه الحقيقة: إن الكون على هذا النحو العجيب من الدقة والإحكام، والعظمة والهيبة لم يخلق سدًى؟!

أتعني الحياة الانغماس في الملذات من الطعام والرقاد وملامسة النساء، والإغارة والعدوان....؟!

رمق محمد السماء الشاحبة عند الأصيل: فالليل مقبل رويدًا رويدًا؛ ليسدل على الربوع سجف العتمة، وتشبّ النجوم واحدةً تلو الأخرى، هنا وهناك، ثم تشتدّ بريقًا أنا بعد آن، فيلفّ البطاح وحراء صمت سحيق الأغوار، فيركن محمد إلى العزلة وصريح الصمت، ويتمادى في تدبّر أبدي لا ينقضي أجله، ويعاود الاستغراق في طوايا الفكر.

بدت له السماء - آناء الليل - عالمًا مدهشًا، شاسعًا، عميقًا متنوعًا، مرموزًا، لا يُبلى جديده، كتابًا ثرًّا غزيرًا. في كل حرف منه، بل كل نقطة انطوى عالم غريب، غير معهود....

---

(١) **البيان والتبيين**، ١/ ٢٥٤؛ **الأوائل**، ص ٦٧؛ **تاريخ مدينة دمشق**، ٣/ ٤٣٢ و٣/ ٢٥٤ و٧/ ٣١٩؛ **العقد الفريد**، ٤/ ٢١٥. [المعرّبة]

هيهات من الكون العجيب، العبثُ، هيهات...! لا بدّ من خالق يدبّر نظامه المدهش بحكمة وقدرة. هيهات أن يترك الناس هَمَلًا؛ فاللّه ليس بغافل عنهم أبدًا... إذن لم صاروا إلى هذا المصير!؟

لم يكن محمد يخشى على نفسه - منذ عرفها - فقد لامس ببصيرته أن هناك من يعينه على الوحدة، فلا يذره فردًا؛ إذ كلما أعضل أمره وضاقت عليه الحال، انفتحت بين يديه الآفاق بما كان يتلقّاه من الوحي والإلهام....

كان يميّز بالعقل ما لا صلاح له، وإذا استعصى الأمر على العقل، أهابت به نفسه محذرةً، أو خايلته في المنام رؤاه، ووجّهت خطاه، وإلا برز دونه مانع أخذ عليه الطريق وصانه.

لا ينفكّ محمد محفوفًا بقوة قاهرة أنا بعد آن، تأخذ بيده وترعاه، فإذا حَصُفَ وبلغ أشده، ازداد وعيًا بما وراء رتابة الحياة من أفكار وأوطار.

بفراسته، وبما يحدّثه القلب، وتلهمه الأحلام، كان يسبر الأغوار، فيعرف مكامن الخطأ ومدار الصواب، إلّا أن كثيرًا من السؤال لا زال يلحّ على ذهنه بالجواب، فلا يجد لها ردًّا يشفي الغليل. كانت تلمّ به على الدوام أسئلة خطيرة عن الكون... عن جمّ الخطايا، وسبيل العلاج.

نشأ محمد أميًّا، لا يعرف القراءة ولا يخط بيمينه، فراح يلتمس ضالته - بلا جدوى - بين قصص الأحبار والرهبان؛ ثم لاذ بالطبيعة وأدمن النظر في مشاهدها... في مظاهرها، لتفيض عليه



بوافي العلوم، غزيرها.. مشهد الفلق إذ انبثق عن غياهب الظلام، والشمس إذا أشرقت من الأفق الشرقي، والشفقة إذا غمرت بعتمها النهار، ثم أتت عليه، والنجوم إذا تدلّت من سقف الليل القاتم كمصابيح الثريا، والقمر إذا غسَّل الليل الوادع بلُجين السنا. مشهد الرعد والبرق والمطر والجبل والسهل، ناهيك عن الجمل بخلقه العجيب.... كل ذلك أثرى محمد بوفير العلم ودلّه على حقيقة ضخمة، عميقة كلَّ العمق. حقيقة ناصعة... أزلية، أبدية... لكن ما هي؟

تلك المشاهد - وإن كانت صمّاء - ألقت على محمد كثيرًا من الأقوال إلّا أنه في عقده الرابع، إذا اكتمل فيه العقل، واستحكم الرأي؛ تخطت أسئلته العالقة حدود الآيات والمعالم، وجابت مساحات سحيقة، بعيدة عمّا كان يشغل باله من أمر الذات.

ألا ينبس كلٌ ببنت شفه: تلك الحقيقة الناصعة، وذاك السرّ العميق، وهذه المعالم والآيات، بل مفتاح الغيب والغموض؟ ألا يعاود الخالق الصلة بالخلق، ويتحدّث إليهم على فترة طويلة من الحيرة والصمت...؟

- طبتَ ظهرًا... يا بن العم!

- طبتَ ظهرًا... يا أبا القاسم!

هـذا علـي الصغير وخديجة - أحـنّ الـناس عليه، وأوفاهـم به - على قيد خطوات من غار حراء، ينفحانه بالتحية مستأذنين بالدخول.

خرج إليهما محمد من الغار في هشة وبشة، رافعًا عقيرته بالترحيب:

- طاب أوقاتكما جميعًا!

رنا محمد إلى زوجه، وألقى على عينيها الآسرة نظرة تقدير وثناء، ثم مسح رأس عليّ بحنان.

أتت إليه خديجة بصُرّة كبيرة، وجاء عليّ بجرة طافحة بالماء بينما نال منهما الإعياء؛ فراحت حبات العرق تنضح من وجهها العريض، وسحنة عليّ السمراء، وإن اشتدت موجة البرد مع الخريف.

انبهرت من خديجة الأنفاس، فتمهّلتْ قليلًا قبل أن تبلغ الغار؛



علّها تتنفس الصعداء. وبدا الشحوب جليًّا على محيّاها الناصع لِما تكلف عودها الأميل إلى السمنة، من مشقة سير متواصل. لكن عليًّا تمثّل بين يدي ابن عمّه الحبيب، غضًّا، موفور النشاط، لا يشوبه الإعياء، كأنه أراد - بعينه المشرقة النجلاء التي أضفى عليها شكلها اللوزي مسحةً من الجمال اللاذع - أراد أن يقول: أبي، ابن عمي، يا لَسروري بلقائك!

قطع عليّ وخديجة على ظهر الجمال مسافة الفرسخين بين مكة وسفوح حراء، ثم تسلقا الجلاميد القاسية السود في نصف ساعة، وذلك ليزوّدا محمدًا بالماء والطعام.

كان علي يزخر حرارةً ونشاطًا، وإن كان في ميعة الصبا ولمّا يكد يتم العاشرة. أمّا خديجة، فقد أرهقها الصعود في حراء وانحدارته الحادّة، لما أدرك شبابها الهرم، وناهزت منتصف العقد الخامس، وأنجبت سبعًا، ومال جسمها إلى الامتلاء، ثم إنها كانت بعيدة العهد بالتسلّق.

كان دأب محمد أن يعود بنفسه إلى مكة ليتزوّد الطعام، إذا شارف على الانتهاء زاده، من يابس الخبز وزيت الزيتون والماء. وقد عهد إلى زوجه الوفية مرات ومرات ألا تجهد نفسها في الخروج إلى الجبل، لكنها أبت ورفضت.

استلم أبو القاسم من زوجه وابن عمّه الصرّة والجرّة، ثم دعاهما إلى الداخل، لكنّ خديجة آثرت أن تظلّ خارج الغار لطيب الأجواء.

دخل أبو القاسم الغار، ووضع فيه الطعام والماء، فخرج يحمل عباءته؛ ليبسطها على متن صفوان ويدعو عليًّا وخديجة للجلوس

ويتخذ هو بينهما مستقره في اتجاه الكعبة.

ما أحبَّ الاثنين إليه، وما أحبّه إليهما...!

لفّهم جميعًا صمت محمد المتأمل، فلم يخوضوا في حديث، بل استغنوا بما كانت تشي به الأحداق، واكتفوا بأمواج الحبّ الجارفة في الأطواء.

«أتدري، يا أبا القاسم، كم أتحرّق إليك شوقًا...! كيف طاوعتك نفسك الانصراف، أم كيف حمّلتني شهرًا النوى والفراق، ما بالك، بذريعة بُعد الشقة، تحرمني عذب اللقاء؟ صدّقني يا أبا القاسم، لو لم تكن في حاجة إلى الزاد، لكنت أبتغي وسيلةً ما لأهفو إليك وراء قلبي المرفرف...».

«أبي، ابن عمّي، يا أحنّ عليّ من والدي. أنت أحبُّ إليّ من جميع أهلي، إخوتي، صحبي، حتى أبي. آه... ليتك لا تفارقني أبدًا...».

«أجل، أجل... أنا أعرف ذاك حقًّا وأنتما على يقين من شغفي بكما، وعلى هذا أنا زاهد فيكما أيامي هذه، أضرب عنكما الذكر صفحًا؛ لأخلص إلى الحقيقة المطلقة؛ فلا يراودني إلّا ذكرها، ولا يلامس شغاف قلبي إلّا ودّها».

راح محمد يستفسر خديجة عن أخبارها، ويَتسقّط أنباء مكة، بينما ضمّ إليه كاهل علي، محتضنًا.

لم يكن هناك من جديد يذكر، سوى أن زيدًا وزوجه بركة همّا أن يأتيا إليه بالزاد، فلم تأذن لهما خديجة؛ إذ أرادت أن تنفرد هي

بالأمر. وحينما اطلع عليّ، أصرّ على مرافقتها، وألحّ، كعادته كل مرّة من خروج محمد إلى حراء....

أمسك محمد كاهلَيْ علي، وأخذ يرنو إليه بحنان؛ مما أشرق وجهه المستدير حبورًا، وتفتح كالورد.

ها هما محمد وعليّ قد أخذا يضيقان ذرعًا حتى بفراق يوم واحد، إثر عِشرة دامت أربعة أعوام. كانا يذهبان معًا في مكة، ويأنس علي في طرقاتها بحديث محمد.

«وضعني ابن عمي في حجره، يضمّني إلى صدره، ويَكْنفُني في فراشه، ويُشمّني عَرْفَه. ولقد كنت أتبعه اتباع الفصيل أثر أمه»[١].

كان محمد يفكّر في الأعوام الأربع التي قضاها مع علي، ويشكر اللّه في قلبه على ما أنعم. فلولا ما أصابت قريشًا من أزمة القحط والجدب الشديد، لما كان يأنس إلى ابن عمّه الصغير الحبيب أنسه الغريب، ثم إنه ما كان يتمكّن من أداء ما لعمّه عليه من الدين والحقّ.

«كان محمد يعين القريب والغريب، وفي سنة الجدب تلك، جدّ جدّه ليجد سبيلًا إلى إعانة أبي طالب، فجاءني ذات يوم، وأنا في الحرم، فقال: يا عمِ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال، صفر اليدين، وقد أصاب الناس ما ترى، فكلٌ في حيرة من أمره، ثم إنه - كما تعرف - يأنف المسألة، ويتعفّف عنها، ونحن الآن أيسر بني

---

(١) **نهج البلاغة**، الخطبة ١٩٢. [المعرّبة]

هاشم؛ إذ وسّع اللّه عليّ وعليك رزقه، فهل لك أن ننطلق إليه حتى نخفّف عنه من عياله؟

قلت: حسنًا!

فرحنا من فورنا إلى أبي طالب، وتلطّفنا في القول خشية أن يضيق صدرًا بالاقتراح... تمهّل أخي قليلًا، إذ فاتحناه في الأمر ثم قال: إليكما حتى ينقضي الجدب...!

قلت: كما تشاء!

قال: يا عباس، خذوا من تريدون منهم إلّا عقيلًا؛ فأنا - كما تعلم – لا أطيق فراقه.

قلت: كما تريد!

فضمّ أبو القاسم إليه عليًا، وضممتُ إليّ جعفرًا».

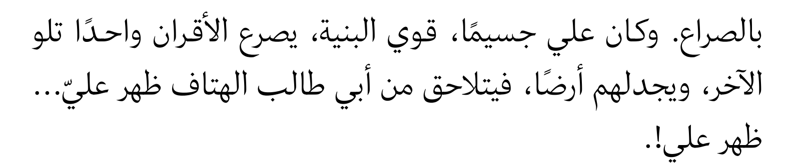
همَّ محمد أن يخرق الصمت؛ فالتفت إلى عليّ، يداعبهُ: هل صارعت الصغار في غيابي؟

ردّ ببسمة يشوبها الخجل والحياء: لا.

ضحكت خديجة وقالت:

لم يكن أبو طالب في مكة ليأتي إليه بقرن يصارعه.

كلام له أساس من الصحة، وإن شابه المزاح؛ فأبو طالب كان يهوى المصارعة ويتسلّى بمشاهدتها، شأنه في ذلك شأن العرب. فكان يجمع شمل ولده وولد أخوته - إذا طابت نفسه - ثم يأمرهم



بالصراع. وكان علي جسيمًا، قوي البنية، يصرع الأقران واحدًا تلو الآخر، ويجدلهم أرضًا، فيتلاحق من أبي طالب الهتاف ظهر عليّ... ظهر علي!.

مسح أبو القاسم رأس عليّ في حنّو فيّاض غامر، ثم توجّه إلى خديجة بالسؤال: كيف حال الصغار؟

- بخير، إلّا أنهم في شوق إلى الوالد.

سأل عن حال زيد وبركة، وميسرة وزوجه، فأخبرته أن الجميع في عافية ويسألون عنه.

- ... وابن عمك، ورقة؟

- ليس على ما يرام.

- مريض؟

- لا، لقد بات في كآبة وحزن عميق، بعد أن نال منه العمى واستعصى عليه التحنّث في الشعاف، ثم إنه لا يزال يستشعر فقد زيد الفادح....

استعاد محمد ذكرى زيد، فأظلّ عينيه الحوراء غم ثقيل، فتأوّه قائلًا: عالم نتن، - يا خديجة - آسن، عفن. ثم شرد منه النظر بعيدًا، وتاه وتاه، كمن زهقت نفسه....

آثرت خديجة القيام - وهي على عهد بحاله هذه - كي لا تفسد عليه عزلته التي طالما سوّر بها نفسه في مثل هذه الساعات.

أمّا علي، فقد انطلق صوب الغار ليأتي بالجرّة الخالية



والخوان. ثم أذعن هو وخديجة للانحدار بعد توديع قصير، بينما ظلّ محمد منتصبًا أمامهما، ثابتًا في مكانه، إلّا أن وليد نسمة راحت تحبو إليه؛ لتداعب منه الجدائل الفاحمة الضافية.

في موهن من الليل، وجوّ تمازجه برودة وقشعريرة، أفاق محمد إثر هجعة قصيرة، ونزح بهامته عن رمال حراء الهشّة، ثم قلع من باطن الغار رأسه، وشدّ بصره إلى الهلال الهزيل في كبد السماء، وهو يذرّ الضوء الضئيل الشاحب على جبال حراء وثبير والبطاح الجنوبية، بينما غطّت في سبات عميق، مكة وما يحيطها، بل العالم أجمع. ساد الكون صمت ثقيل مريب، لا يشقّه صوت ولا نبأة، كأن الأرض آنذاك، والأحياء والزمان، كلٌ في غفوة، بل رقدة. تنكّب النسيم عن الهبوب، وتنكّص النهر - إن وجد - على عقبيه.

لم يكن محمد قد لامس هذا الصمت، ولم يعهد هذه السكينة على مدى قيامه الدائب في جنح الظلام، فانبرى الهدوء العميق يجرح أذنيه، وظلت الساعات عاكفةً على ما كانت عليه، لا تراوح مكانها، ولا تزايله: خلد الكون لحظة. تأبّد....

بين الدعة والهدوء، كانت الآذان تلتقط - بوضوح - حتى صوت الزرع إذا نبت، والبرعم إذا تفتح.

انبثق في السماء بغتةً ضوء قوي غريب، خطف بصر محمد وغمر منه مطمح النظر، فساوره الخوف، واعترت روحه رعدة، وجسمه رجفة، ونال رأسه دوران ودوران... ثم ضغوط وضغوط على



الجسم والروح. شيء ما يبلغ الحلقوم، أنا تلو آن، فتلمّ به آلام وآلام، لا يطيقها محمد وإن كان صلب العود، ثابت الجنان، كأنها حشرجة الموت، سكرات الفناء، زهوق بطيء، قاتل للروح.

عاودته الرجفة وتسرّبت إليه هادئ الأمواج، لتغسل الروح في طيف نوري سائل.

... ولادة. نشأة من جديد. تحوّل للروح. شعور بالخفة، بالصفاء والشفافية، ثم انشراح للصدر وانكشاف عمّا يغطي البصر والأذن والعقل.

يا لشد تحوّل الكون، يا لَحيويته، يا لجماله وعميق أغواره....

التفّ النور فجأةً، ثم انبسط، فبرز منه كائن مهاب كلَّ الهيبة، لم يبدُ غريبًا على محمد؛ فقد سبق أن رآه في أحلام اليقظة، لكنه في هذه المرة، اطلع عليه في أشد الوضوح، فملأ عينيه هيبةً: تمثّل له رجلًا، رائع الجمال، عليه جبّة خضراء من الديباج، في هالة من النور السماوي. كان يراه أينما يقلّب طرفه في الفضاء.

تعالى منه صوت رقيق، لطيفٌ لطفَ المطر، رنين كخرير السواقي والنهر:

- يا محم... مد!

أجابه محمد بصوت مرتعش: ن... عم!

- إق... رأ!

- أنا... ما... ذا... أقرأ؟

- باسم ربك!

-كي... ف... أق... رأ؟

- إقرأ باسم ربك الذي خلق!

أنشأ محمد يقرأ معه:

- ... خلق الإنسان من علق..

إقرأ وربك الأكرم..

الذي علّم بالقلم..

علّم الإنسان ما لم يعلم..

انتهت القراءة، وخفَّ الصوت السماوي، ثم عاد المتحدّث إلى سابق هيئته، فإذا بالطيف النوري الغامر يعتريه الشحوب، ثم يتوارى ويتوارى....

تملّك محمدًا النصب واللغوب، فشعر أن الجسم منه والعظام يُدّق في هاون، والبدن يتهافت. أحسّ بحرارة تضطرم في أتون عوده وهامته، ولامس رعدة هيجان كانت تنتابه في شدّة. همَّ ليقوم على بهت وحيرة، فخذلته الركبتان، وانثنت تحت ثقيل جسمه الأقدام، فانبطح على الأرض، ممرّغ الجبين، منخرطًا في البكاء....



المصادر والمراجع

- ابن أبي سلمى، زهير، **الديوان**، بيروت، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٢.

- ابن أبي الصلت، أمية، **الديوان**، جمعه وحققه وشرحه سجيع جميل الجبيلي، بيروت، دارصادر، ١٩٩٨.

- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن محمد الجزري، **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، بيروت، دار الفكر، لا.ت.

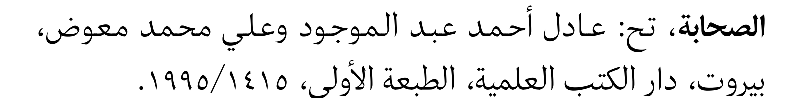
- ابن الأثير، عز الدين أبو الحسن علي بن أبي الكرم، **الكامل في التاريخ**، بيروت، دار صادر - دار بيروت، ١٩٦٥/١٣٨٥.

- ابن أعثم الكوفي، أبو محمد أحمد، **كتاب الفتوح**، تح: علي شيري، بيروت، دار الأضواء، الطبعة الأولى، ١٩٩١/١٤١١.

- ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد، **المنتظم في تاريخ الأمم والملوك**، تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٢/١٤١٢.

- ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي، **الإصابة فى تمييز**





الصحابة، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٥/١٤١٥.

- ابن حزم الأندلسي، **جمهرة أنساب العرب**، تح: لجنة من العلماء، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٣/١٤٠٣.

- ابن سيد الناس، أبو الفتح محمد، **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير**، تعليق إبراهيم محمد رمضان، بيروت، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٩٩٣/١٤١٤.

- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف بن عبد اللّه بن محمد، **الاستيعاب في معرفة الأصحاب**، تح: على محمد البجاوي، بيروت، دار الجيل، الطبعة الأولى، ١٤١٢/ ١٩٩٢.

- ابن عبد ربه الأندلسي، أحمد بن محمد، **العقد الفريد**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٤ هـ ق.

- ابن عربي، أبو عبد اللّه محيي الدين محمد بن علي، **محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار**، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٢ هـ ق.

- ابن عساكر، **تاريخ مدينة دمشق**، بيروت، دار الفكر، ١٤١٥.

- ابن قتيبة، أبو محمد عبد اللّه بن مسلم، **المعارف**، تح: ثروت عكاشة، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الطبعة الثانية، ١٩٩٢.

- ابن كثير الدمشقي، أبو الفداء اسماعيل بن عمر، **البداية والنهاية**، بيروت، دار الفكر، ١٤٠٧/ ١٩٨٦.

- ابن كثير الدمشقي، **السيرة النبوية ومعجزاته**، تح: مصطفى عبد الواحد، بيروت، دار الرائد العربي، الطبعة ٣، ١٩٨٧.

- ابن منظور، أبو الفضل، **لسان العرب**، قم، ١٤٠٥/١٣٦٣.

- ابن هشام الحميري المعافري، عبد الملك، **السيرة النبوية**، تح: مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، بيروت، دار المعرفة، لا.ت.

- أحمد حسن الزيات وآخرون، **المعجم الوسيط**، اسطنبول، دار الدعوة، لا.ت.

- صفوت، أحمد زكي، **جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة**، بيروت، المكتبة العلمية، لا.ت.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، **أنساب الأشراف**، تح: محمد حميد اللّه، مصر، دار المعارف، لا. ت.

- البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر، **أنساب الأشراف**، تح: سهيل زكار ورياض زركلي، بيروت، دار الفكر، الطبعة الأولى، ١٩٩٦/١٤١٧.

- البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة**، تح: عبد المعطي قلعجي، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٨٥/١٤٠٥.

- الجاحظ، **البيان والتبيين**، بيروت، دار ومكتبة هلال، ١٤٢٣.

- الحلبي، علي بن برهان الدين، **السيرة الحلبية في سيرة**



الأمين المأمون، بيروت، دار المعرفة، لا. ت.

- الحموي، شهاب الدين أبو عبد اللّه ياقوت بن عبد اللّه، **معجم البلدان**، بيروت، دار صادر، الطبعة الثانية، ١٩٩٥.

- الخنساء، **الديوان**، بيروت، دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٦٠م.

- الدينورى، أبو حنيفه أحمد بن داود، **الأخبار الطوال**، تح: عبد المنعم عامر، مراجعة جمال الدين شيال، قم، منشورات الرضى، ١٣٦٨ش.

- الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، **تاريخ الإسلام**، تح: عمر عبد السلام تدمري، بيروت، دار الكتاب العربي، ١٤١٣/١٩٩٣.

- الزمخشري، جار اللّه، **ربيع الأبرار ونصوص الأخيار**، تح: عبد الأمير مهنا، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤١٢.

- السمعاني، أبو سعيد عبد الكريم بن محمد بن منصور التميمي، **الأنساب**، تح: عبد الرحمن المعلمي اليماني، حيدر آباد، مجلس دائرة المعارف العثمانية، الطبعة الأولى، ١٣٨٢/١٩٦٢.

- الشامي، محمد بن يوسف الصالحي، **سبل الهدى والرشاد فى سيرة خير العباد**، تح: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ، ١٤١٨/١٩٩٧.

- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **تاريخ الأمم والملوك**، تح: محمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، دار التراث، الطبعة الثانية، ١٣٨٧/١٩٦٧.

- طه حسين، **على هامش السيرة**، بيروت، الشركة العالمية للكتاب، ١٩٨٥م.

- أبو هلال العسكري، **الأوائل**، بيروت، دار البشير - طنطا، ١٤٠٨هـ ق.

- [الإمام] علي بن أبي طالب، **نهج البلاغة**، تر: جعفر شهيدي، طهران، ١٣٧٠ش.

- الكلبي، أبو المنذر هشام بن محمد، **كتاب الأصنام (تنكيس الأصنام)**، تح: أحمد زكي باشا، القاهرة، طبع على الأفست بطهران، ١٣٦٤ش.

- الكليني الرازي، أبو جعفر محمد بن يعقوب بن اسحاق، **أصول الكافي**، طهران، لا. ت.

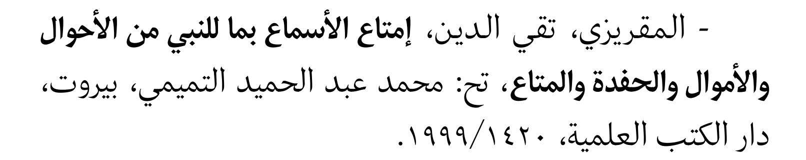
- المجلسي، محمد باقر، **بحار الأنوار**، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣/ ١٩٨٣.

- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي، **مروج الذهب ومعادن الجوهر**، تح: أسعد داغر، قم، دار الهجرة، ١٤٠٩.

- المقدسي، أبو عبد اللّه محمد بن أحمد، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، القاهرة، مكتبة مدبولي، الطبعة الثالثة، ١٤١١ ه.ق.

- المقدسي، مطهر بن طاهر، **البدء والتاريخ**، بور سعيد، مكتبة الثقافة الدينية، لا. ت.





- المقريزي، تقي الدين، **إمتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع**، تح: محمد عبد الحميد التميمي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٢٠/١٩٩٩.

- النويري، شهاب الدين، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.ق.

- الهاشمي البغدادي، جعفر محمد بن حبيب بن أمية، **كتاب المحبر**، تح: ايلزة ليختن شتيتر، بيروت، دار الآفاق الجديدة، لا. ت.

- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، **تاريخ اليعقوبي**، بيروت، دار صادر، لا. ت.

ها هو اليتيم بعين اللّه

النبي (ص) من الولادة إلى البعثة

"لهذا الكتاب قيمة عظيمة، تستحق العمل، وبذل المساعي، وإن طال العقدان من الزمن، ولم تأتِ بغيره" - **الإمام السيد علي الخامنئي**.

"كُتبت الرواية بحس عقائدي عبّر عن عاطفة الكاتب الدينية ويقينه الراسخ الذي نقله إلى المتلقي بشفافية مطلقة وثّق فيها سيرة النبي محمد (ص) من المهد إلى ما قبل البعثة، بانسجام متقن في السرد والصياغة وبتقنيات فنية عالية. ففي كل مشهد من مشاهد هذه الرواية العصماء تشتعل روحك وتنسلخ لتعيش فضاءات الكاتب وتحليقه في أنوار النبي محمد (ص) القدسية بانعتاق ملكوتي بقوة بلاغية رائعة وألفاظ جزلة ترتقي بذائقتك وأحاسيسك" - **الأديبة العراقية خولة القزويني**.

"ترتبت سردية الرواية بنسق مموسق بين مستويات الحدث والزمان والشخصية، مما أضفى على العمل هالةً تتوهج فيها إمكانية التأويل لتُحوِّل القضية الرئيسية للرواية (صراع ذرية عبد المطلب مع قريش) إلى رمزٍ يسكن فيما وراء النص. وفي علاقة وطيدة بين الرمز والمرموز، يستعرض الكاتب رضا سرشار هذه القضية بأسلوب تلألأ بنعومة مفرداته، وفاض بشعرية لغته، ولولا براعة المترجم (د. بتول مشكين فام) لما وصل إلينا هذا العمل محتفظاً ببكارة الإيحائية التي وسمته. وإن أحد أبرز العناصر التي وسمت النص بهالة التميز هو الراوي، الذي امتزج فيه الراوي «العليم» ذاك الذي يتحدّث بضمير الغائب، بالراوي «المصاحب»، الذي لعبت دوره شخصيات الرواية والتي كان كلامها يتلألأ بين غمازتين (قوسين)، ليتحول العمل إلى عنقود سردي تستبطن الأحاديث فيه بعضها بعضًا، بأسلوب واثقٍ من صنع الكاتب الفذ، يضرب فيه المثل على إمكانية تقديم الحداثة مع الحفاظ على أصالة الشكل، مما يكفل للعمل الإبداعية بامتياز" - **الشاعر الكويتي محمد صالح صرخوه**.

"هذه الترجمة هي منظومة عشق مشحونة بالوظيفة الإغرائية لمساءلة النص في السر اللغوي، وقراءتها هي متعة وجهد" - **الدكتورة أمل إبراهيم**.



